

قنبلة

إسمها الزواج العرفى



خالد توحيد

قنبلة اسمها الزواج العرفي

للكاتب الصحفي

خالد توحيد

إهداء

إلى علي وهداية ومريم.. الأطفال الأبرياء الذين
سيتغير زمانهم كثيرا.. أهدي هذا الكتاب
لعله يكون – يوما – نافعا لهم.

خالد توحيد

المقدمة

الفصل الأول: الزواج.. المعنى والتاريخ ١٠

الفصل الثاني: للزواج شروط.. وأيضا أسماء وأشكال..٣٩

الفصل الثالث: الزواج العرفي.. من الألف إلى الياء....٦٧

الفصل الرابع: عندما تتكلم الأرقام ١٠٣

الفصل الخامس: المشكلة تفرض نفسها على الجميع....١٢٧

الفصل السادس: ماذا يقول الدين.. حلال أم حرام؟ ١٤٢

الفصل السابع: حكايات وقصص أغرب من الخيال ١٩١

الفصل الثامن: البداية جنس.. والنهاية في القسم........٢٤٩

الفصل التاسع: مشقة الحل.. وضرورة العلاج ٢٧٩

شكر واجب

لإحساسه العميق بأهمية القضية التـي يتناولهـا هـذا الكتاب وتقديرا منه لضرورة الكتابة عنها والسعي للتصـدي لها.. لم يكتف رسام الكاريكاتير المبدع.. مصـطفى حسـين بتطويع ريشته لإخراج غلاف يعبر عن المعنى والمضـمون فقط، بل إنه قرر أيضا إهداء العمل مؤكدا انحيازه للرافضين للزواج العرفي ولهذا له مني أسمى آيات الشكر .

المؤلف

خالد توحيد

مقدمة

فتاة في الصف الخامس الابتدائي – لم يتجاوز عمرها بأي حال الثانية عشرة – تقف وتروي أمام أهلهـا.. وبكـل برود وثقة.. أنها تحب زميلها في المدرسة ولا تسـتطيع أن تستغني عنه أبدا. وتؤكد لهم نيتها على الارتباط به وتقـول بجرأة تحسد عليها: "لما أكبر شوية هاجوزه عرفي"!

الفتاة، أو الصبية – إن أردنا الدقة – تتكلم عن شـيء من المؤكد أنها تدركه وتفهم معناه جيدا. وإلا ما كانـت قـد تحدثت عنه من الأصل، بل وما كانت لتقرنه – أي الـزواج العرفي – بالحب والارتباط الشديد بزميل لها، وبعدم قدرتها على الاستغناء عنه!

القصة البسيطة – التي سمعت تفاصيلها منقولـة عـن أصحاب الشأن في عائلة الفتاة دون تحريـف أو تهويـل – كانت طلقة الرصاص الأخيرة. التي جعلتني استسلم دون قيد أو شرط للوقوف أمام هذه القضية محاولاً الاقتـراب منهـا، والغوص فيها، والكتابة عنها.

ومن قبل الطلقة الأخيرة.. كانت الطلقات كثيرة ومثيرة ومزعجة، ولعلها لم تقل قوة أو ضجيجا عن طلقة فتاة الصف

الخامس الابتدائي المدوية. لقد أصبح الكـلام عـن الـزواج العرفي عادة شبه يومية بين الناس..

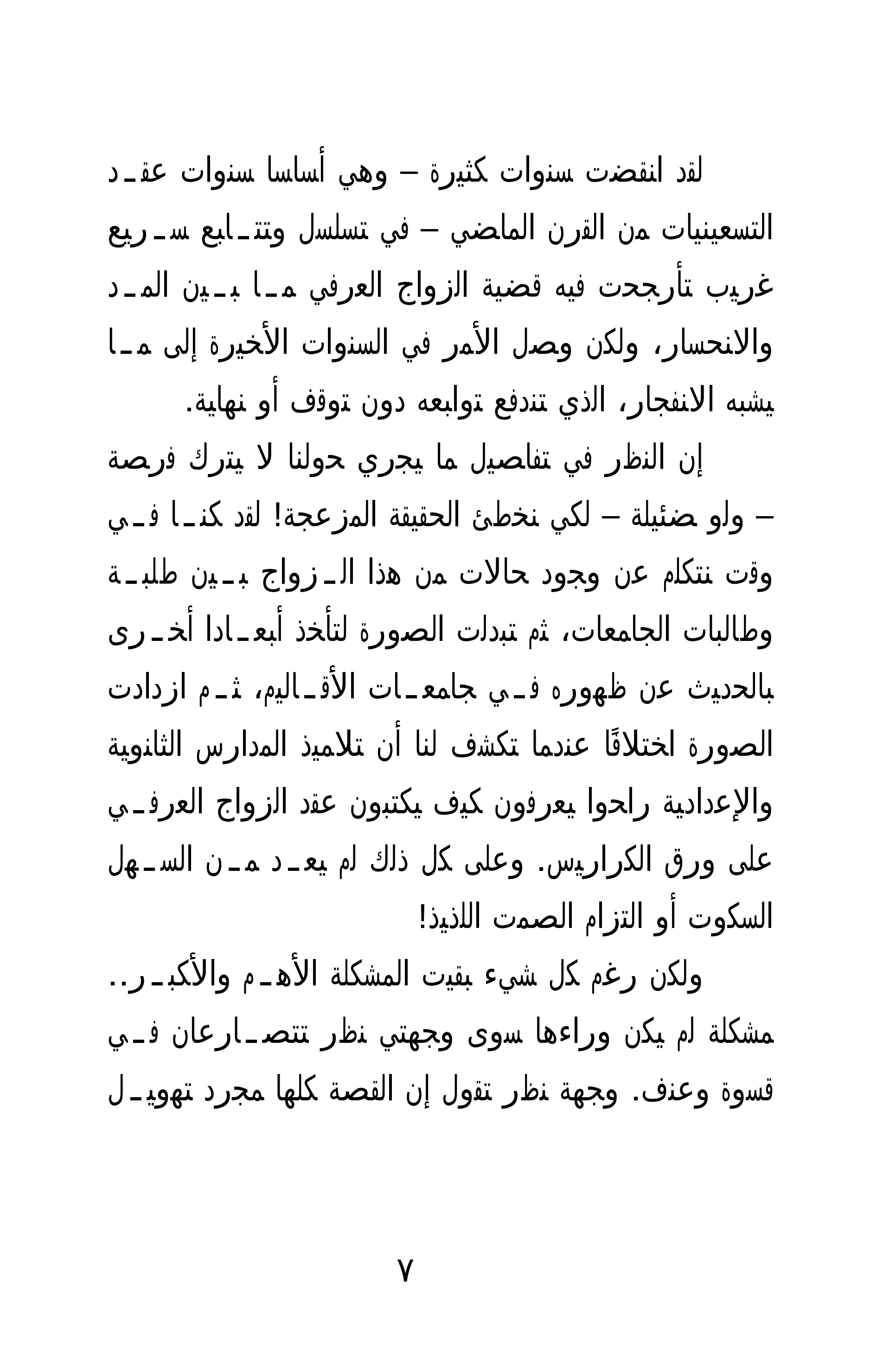
الكل يتحدث عنه، الجرائد والمجلات ووسائل الإعلام تكتب فيه. التحقيقات والموضوعات والأخبـار، وشاشـات التليفزيون تبث ما يؤكد أنه بات يحتاج للعلاج، ولا يكاد يمر يوم إلا وتصادفك حكاية من حكايات هذا الزواج.

الحكاية في مرة تتناول فتـاة تشـكو مـن المصـير المأساوي الذي وصلت إليه!

والحكاية في مرة تروي معاناة فتاة أخرى يتحرك في أحشائها ثمرة لهذا الزواج.

والحكاية في مرات أخرى تعرض مشكلات لبنات لـم يعد يعرفن ماذا يفعلن بالضبط بعد أن أصـبحن متزوجـات عرفيا دون علم الأهل وأصبح هناك من تقدم بالفعل للـزواج منهن؟!

والحكاية في مرات ومـرات تتحـدث عـن جـرائم ومصائب لم تكن لتحدث من الأصل، لكنها وقعت – بالفعل – بسبب الزواج العرفي!!



لقد انقضت سنوات كثيرة – وهي أساسا سنوات عقد التسعينيات من القرن الماضي – في تسلسل وتتابع سريع غريب تأرجحت فيه قضية الزواج العرفي ما بين المد والانحسار، ولكن وصل الأمر في السنوات الأخيرة إلى ما يشبه الانفجار، الذي تندفع توابعه دون توقف أو نهاية.

إن النظر في تفاصيل ما يجري حولنا لا يترك فرصة – ولو ضئيلة – لكي نخطئ الحقيقة المزعجة! لقد كنا في وقت نتكلم عن وجود حالات من هذا الزواج بين طلبة وطالبات الجامعات، ثم تبدلت الصورة لتأخذ أبعادا أخرى بالحديث عن ظهوره في جامعات الأقاليم، ثم ازدادت الصورة اختلاقًا عندما تكشف لنا أن تلاميذ المدارس الثانوية والإعدادية راحوا يعرفون كيف يكتبون عقد الزواج العرفي على ورق الكراريس. وعلى كل ذلك لم يعد من السهل السكوت أو التزام الصمت اللذيذ!

ولكن رغم كل شيء بقيت المشكلة الأهم والأكبر.. مشكلة لم يكن وراءها سوى وجهتي نظر تتصارعان في قسوة وعنف. وجهة نظر تقول إن القصة كلها مجرد تهويل

لأشياء ليست قائمة أو موجودة بهذا الشكل في الواقع.. وهذا – في رأيي - غير صحيح!

ووجهة نظر أخرى تقول إن الظاهرة لم تعـد تحتمـل التهوين، وينبغي أن نبدأ في علاجها قبل أن تكتشف أغلـب بيوت مصر.. أن واحدا أو أكثر ممن يعيشون فيها.. تورطوا في هذا التصرف غير المحسوب.. وهـذه – فـي رأيـي – وجهة نظر صائبة وصحيحة.

أنا لست من هواة التهويل أو التضخيم. ولست في نفس الوقت من أنصار التهوين أو تسطيح الأمور ولكـن – ودون الخوض في تفاصيل التهويـل أو التهـوين – يظـل مـن الضروري الكتابة عن الزواج العرفي.. ولماذا ظهر؟ ومـا هي حقيقته؟ وما هي الأسباب الحقيقية للجوء البعض إليـه؟ ومن هم أولئك الذين تورطوا فيه؟ وهل هو – وهذا هو الهام والضروري – حلال أم حرام؟!

لقد تصديت لهذه القضية رغم تحذير البعض بألا أفعل. لا لشيء سوى أن هؤلاء البعض يرون أن القضـية كبيـرة وشائكة ومن الصعب تناولها لمجرد أنني شعرت بضـرورة الكتابة فيها.

ورغم التحذير. ورغم المحاذير. ها أنا أقف أمام قضية الساعة التي لا أتمنى أن تكون قضية كل ساعة.

خالد توحيد

القاهرة ٢٠٠٢/١/١

الفصل الأول

الزواج.. المعنى والتاريخ

لم يعرف تاريخ البشرية – على إطلاقه وعبر امتـداده الطويل – نظاما اجتماعيا أقدم وأرسخ وأشد وضـوحا مـن نظام الزواج.

وجاء الزواج – كصورة إنسـانية وأسـلوب حيـاة – مواكبا لظهور الخليقة ونشأتها الأولى.

نعم.. لقد خلق ا الإنسان، وتجلت حكمته فـي هـذا الخلق بأن جعله زوجين.. آدم وحواء عليهما السلام.

ومن خلق الزوجين.. كانت بداية الأسرة.

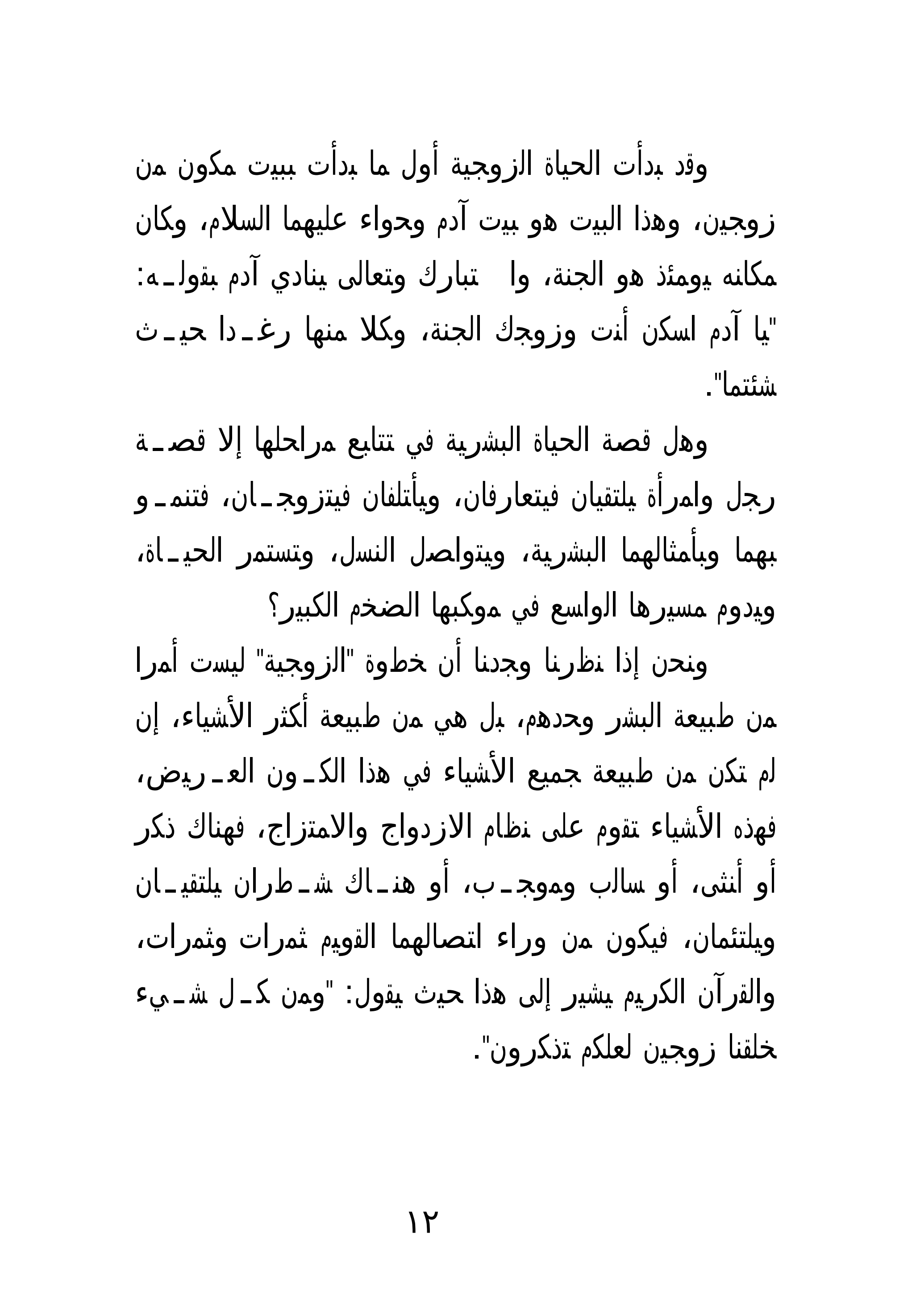
والأسرة – في كل وقت وزمان – هي أسباب الحياة.

والأسرة[1] هي المجتمع الصغير الذي يجب أن يستقيم بناؤه، ويعتدل أمره، وينهض على أسـس قويمـة وأركـان سليمة، حتى يسهم في دعم المجتمع الإنساني الكبير.

وإنما يستقيم أمر الأسرة باستقامة أمـر البيـت، لأن البيت هو اللبنة الأولى في بناء الحياة الواسع، وإنما يعتـدل أمر البيت باعتدال قطبيه الأصليين وركنيه الأساسيين وهمـا الزوج والزوجة.

---

[1] الدين والمجتمع، الدكتور أحمد الشرباصي، ص ١٢٦



وقد بدأت الحياة الزوجية أول ما بدأت ببيت مكون من زوجين، وهذا البيت هو بيت آدم وحواء عليهما السلام، وكان مكانه يومئذ هو الجنة، والله تبارك وتعالى ينادي آدم بقولـه: "يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، وكلا منها رغـدا حيـث شئتما".

وهل قصة الحياة البشرية في تتابع مراحلها إلا قصـة رجل وامرأة يلتقيان فيتعارفان، ويأتلفان فيتزوجـان، فتنمـو بهما وبأمثالهما البشرية، ويتواصل النسل، وتستمر الحيـاة، ويدوم مسيرها الواسع في موكبها الضخم الكبير؟

ونحن إذا نظرنا وجدنا أن خطوة "الزوجية" ليست أمرا من طبيعة البشر وحدهم، بل هي من طبيعة أكثر الأشياء، إن لم تكن من طبيعة جميع الأشياء في هذا الكـون العـريض، فهذه الأشياء تقوم على نظام الازدواج والامتزاج، فهناك ذكر أو أنثى، أو سالب وموجـب، أو هنـاك شـطران يلتقيـان ويلتئمان، فيكون من وراء اتصالهما القويم ثمرات وثمرات، والقرآن الكريم يشير إلى هذا حيث يقول: "ومن كـل شـيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون".

وأظهر هذه الثمرات الحسية والنفسية أمـام مـداركنا وحواسنا تكون في التقاء الرجل بالمرأة فـي ظـلال البيـت الأمين!.

**.................

ولكن ما معنى الزواج؟

هل هو مجرد اقتران رجل بامرأة؟

وهل هناك اختلاف بين معنى كلمة زواج في اللغـة. وبين واقعها في الحياة. أو رؤيتنا لها؟

الزواج([1]) في اللغة يعطي معنى انضمام شـيء إلـى شيء آخر ليصيرا زوجا أو زوجين، ولفظ الزوج يطلق فـي اللغة على خلاف الفرد، وكل واحد من الرجل والمرأة يسمى زوجا، ويقال للاثنين زوجان، وهما زوج، كما يقـال: همـا سيان وهما سواء. قال ابن سيده: الزوج هو الفرد الذي لـه قرين، والزوج هو الاثنان. والرجل زوج المرأة، وهي زوجه وزوجته. وأباها الأصمعي. بالهاء. وأهل الحجاز يضـعون "زوج" للمذكر والمؤنث وضعا واحدا، تقـول المـرأة: هـذا زوجي، ويقول الرجل: هذه زوجي، قال تعالى "اسكن أنـت

---

[1]) الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ عطية صقر، ص ٣٤ – ٣٥.

وزوجك الجنة" البقرة (٣٥) وقال: "أمسك عليـك زوجـك" الأحزاب (٣٧) وقال: "وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج" النساء (٢٠) أي امرأة مكان امرأة. والأصمعي بلا داع فـي عدم قول زوجة لأن العرب قالوه.

ومما جاء في القرآن مفيدا لأن لفظ زوج يطلق علـى الفرد باعتبار اقترانه بالفرد الآخر أو اتصاله به على نحو ما من الاتصالات قوله تعالى "ثمانية أزواج، من الضأن اثنـين ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين" الأنعـام (١٤٣، ١٤٤) أي فردان من كل نوع من الأنواع الأربعـة فالزوجان من الضأن مثلا بينهما صلة نوعية وهي الـذكورة والأنوثة بصرف النظر عن ارتباطهما بزواج، هذا في اللغة، أما الزواج في الشرع فهو العقد الذي يباح به للرجل التمتـع بالمرأة والالتزام بالواجبات المقررة بينهما، على أن يكـون هذا العقد بلفظ زواج أو نكاح أو نحوهما، حتى يخرج بـذلك المخاللة والهبة والتمتع بملك اليمين.

**.......................

وهناك العديد من محاولات تعريف الزواج. وكان كل تعريف يأتي معبرا عن رؤية وتصور من تصدى للمحاولة.

فنجد[1] أن من يعنى بأن يبرز عنصر العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة في عقد الزواج يعرفه بأنه: "عقد يفيد حل استمتاع كل من العاقدين على الوجه المشروع".. أو أنه "عقد يرد على تملك المتعة قصدا".. وهذا رأي الكثيرين من فقهاء الشريعة الإسلامية، بل هو التعريف الذي ما كنا نجد غيره في معظم كتب الفقه المتأخرة.

فالحنفية يعرفون الزواج بأنه.. "عقد يفيد ملك المتعة قصدا".. ومعنى "ملك المتعة" اختصاص الرجل ببضع المرأة وسائر بدنها من حيث التلاذذ.. ومعنى "قصدا" أن يخرج ما يفيد تلك المتعة ضمنا، كما إذا اشترى رجل جارية فإن عقد شرائها يفيد حل وطئها ضمنا..

أو يعرفونه بأنه "عقد يفيد ملك الذات في حق الاستمتاع "، ومعناه أنه يفيد الاختصاص بالبضع يستمتع به..

أو أنه عقد يفيد ملك الانتفاع بالبضع وبسائر أجزاء البدن.. بمعنى أن الزوج يختص بالاستمتاع دون سواه..

---

[1]) الزواج في المجتمع المصري الحديث، عادل أحمد سركيس، ١٩٧٠ ص ٢٠ – ١٩.

أما الشافعية فيعرف بعضهم الـزواج بأنـه.. "عقـد يتضمن ملك وطء بلفظ إنكاح أو تزوج أو معناهما".. والمراد أنه يترتب عليه ملك الانتفاع للذة المعروفة..

ويقول البعض الآخر إن عقد الزواج يتضـمن إباحـة الوطء فهو عقد إباحة لا عقد تمليك..

والمالكية يعرفون الزواج بأنه.. "عقد على مجرد متعة التلذذ بآدمية".. ومعناه أن الزواج عبارة عن عقد على متعـة التلذذ المجردة..

أما الحنابلة فيعرفون الزواج بأنه.. "عقد بلفظ إنكاح أو تزويج على منفعة الاستمتاع".. والراجح أن المعقود عليه هو الانتفاع بالمرأة دون الرجل..

ومعنى ذلك أن موضوع عقد الزواج هو امتلاك المتعة على الوجه المشروع وأن الغرض منه في عـرف النـاس والمشرع هو مجرد تحليل هذه المتعة.. وقـال الحنفيـة إن الحق في التمتع للرجل لا للمرأة.. بمعنى أن للرجل أن يجبر المرأة على الاستمتاع بها.. ويتحتم عليها أن تطيعـه فيمـا يأمرها به من استمتاع..

إن الزواج وفق هذه التعاريف يعطي – مثـل الـرهن الحيازي – حقا يخول للزوج سلطة على جسد زوجته، لأنـه يقصر بيانه على أن الزواج مجرد علاقة مادية تنصب على المرأة..

لقد كانت هذه التعاريف تصلح عندما كانـت الرابطـة القانونية ذات طابع شخصي محض، فكان للدائن حق علـى شخص المدين.. وكان المدين وقتئذ في حالة عبودية بالنسبة للدائن.. كان يوضع في السجن ولا يفرج عنـه إلا إذا دفـع دينه ولو قضى حياته كلها حتى مات..

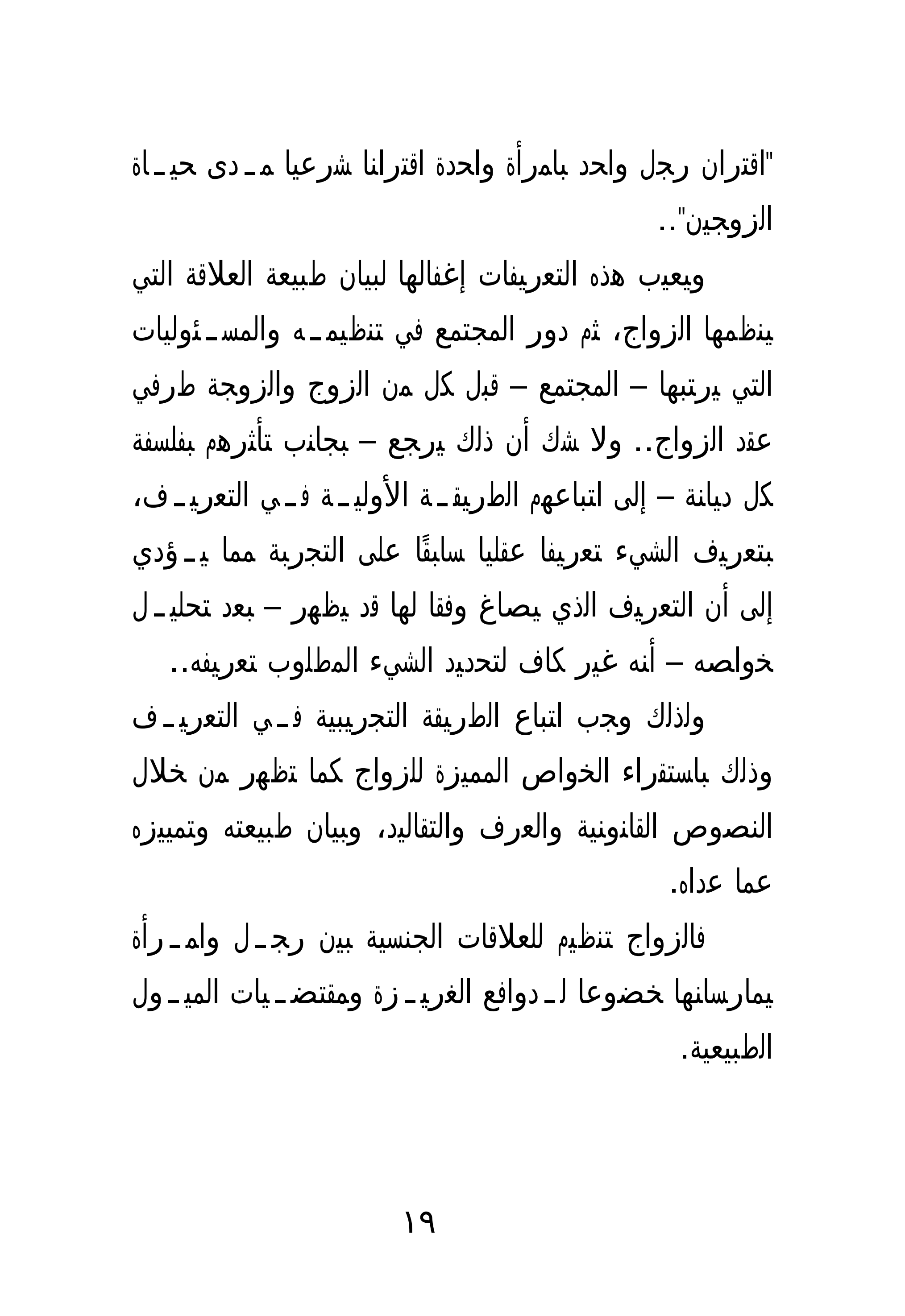
ولكن هذه التعاريف لم تعد تصلح بعد أن أخذت تلـك الرابطة تقترب من المبادئ الإنسانية ومن قواعـد المدنيـة والحرية...

وإذا كانت العلاقة الجنسية من أغراض الزواج، فهـي ليست كل أغراضه، ولذلك فقد عرفه البعض بأنه "عقد يفيـد حل العشرة الزوجية بين الرجل والمرأة وتعاونهما ويحدد ما لكليهما من حقوق وما عليهما من واجبات".. وهؤلاء يقرون أن الزواج لا يوجد إلا بتحقيق الغرض منه بمباشرة الشخص لحقوقه المقررة بموجب عقد الزواج.

بينما نرى المسيحيين لا يقيمون وزنـا للمتعـة فـي التعريف بالزواج استنادا إلى أن المتعة ليست خاصية فيـه، ولكنها وصف يقوم به ويختلف مدى أهميتها باختلاف رغبة الناس أو انصرافهم عنها، وإن كانوا يجعلون إنجـاب الأولاد غرضا أساسيا للزواج وهو أمر يتميز لـديهم عـن مجـرد المتعة.. وهؤلاء يعرفون الزواج بأنه.. "سر مقدس به يرتبط ويتحد الرجل والمرأة اتحادا مقدسا بنعمـة الـروح القـدس للحصول على ولادة البنين وتربيتهم التربية المسيحية"..

وتعرفه المادة ١٥ من قـانون الأحـوال الشخصـية للأقباط الأرثوذكس بأنه.. سر مقدس يثبت بعقد يـرتبط بـه رجل وامرأة ارتباطا علنيا طبقا لطقوس الكنيسة الأرثوذكسية بقصد تكوين أسرة جديدة والتعاون على مدى شئون الحياة"..

وتعرفه المادة الأولى من قانون الأحـوال الشخصـية لطائفة الأقباط الكاثوليك بأنه.. "عقد اجتماع شرعي بين رجل وامرأة يلتزمان بمقتضاه مدى الحياة بوحدة المعيشة ويجعـل شخص كل منهما للآخر قصد التناسـل".. وتعرفـه المـادة السادسة من قواعد الأحوال الشخصـية للإنجيليـين بأنـه..



"اقتران رجل واحد بامرأة واحدة اقترانا شرعيا مـدى حيـاة الزوجين"..

ويعيب هذه التعريفات إغفالها لبيان طبيعة العلاقة التي ينظمها الزواج، ثم دور المجتمع في تنظيمـه والمسـئوليات التي يرتبها – المجتمع – قبل كل من الزوج والزوجة طرفي عقد الزواج.. ولا شك أن ذلك يرجع – بجانب تأثرهم بفلسفة كل ديانة – إلى اتباعهم الطريقـة الأوليـة فـي التعريـف، بتعريف الشيء تعريفا عقليا سابقًا على التجربة مما يـؤدي إلى أن التعريف الذي يصاغ وفقا لها قد يظهر – بعد تحليـل خواصه – أنه غير كاف لتحديد الشيء المطلوب تعريفه..

ولذلك وجب اتباع الطريقة التجريبية فـي التعريـف وذلك باستقراء الخواص المميزة للزواج كما تظهر من خلال النصوص القانونية والعرف والتقاليد، وبيان طبيعته وتمييزه عما عداه.

فالزواج تنظيم للعلاقات الجنسية بين رجـل وامـرأة يمارسانها خضوعا لـدوافع الغريـزة ومقتضـيات الميـول الطبيعية.

وقد أدى ذلك بالضرورة إلى وجود الرجل والمرأة معا ونشوء رابطة بينهما، فتدخل المجتمع لينظم ارتباط الرجـل والمرأة بصياغته في الصورة التي ترسمها النظم الاجتماعية، ويحددها العقل الجمعي للجماعة.. ولذلك تختلف هذه الرابطة باختلاف العصور والمجتمعات.. فإذا كان المجتمع قد نظـم ارتباط الرجل والمرأة برابطة الزوجية بمجرد التراضي فـي عصر من العصور. فإن نفس المجتمع – في عصر آخـر – لم يعد يرتضي ذلك، بل اشترط ضرورة صياغة عقد الزواج في شكل خاص أو اتخاذ إجراءات معينة. والخطف الذي كان يعتبر أحد طرق الزواج في كثير من المجتمعـات.. أصـبح الآن جريمة يعاقب عليها القانون.. والمجتمعـات الإنسـانية المتطورة لا تبيح مباشرة رجل وامرأة للعلاقة الجنسية إلا في صورة خاصة وفي حدود معينة هي الزواج..

وقد ترتب على وجود رابطة بين الرجل والمرأة حقوق وواجبات لكل منهما تجاه الآخر، فعقد الزواج يرتب التزامات متبادلة لكلا الطرفين وإن اختلفت المجتمعـات – بـاختلاف نظمها الاجتماعية والاقتصادية والدينية – في مدى الحقـوق والواجبات التي ترتبها لكل من الزوجين تجاه الآخر..

فالشريعة الإسلامية – مثلا – ترتب حقوقا مشتركة للزوجين مثل حل العشرة الزوجية والتوارث بينهما وحرمة المصاهرة، وترتب حقوقا للزوج على زوجته مثل حق الطاعة والقرار في بيت الزوجية والقيام على شئونه ورعايته، وثبوت الولد إلى أبيه. كما ترتب حقوقا للزوجة على زوجها مثل العدل والمهر والنفقة..

وقد ترتب على تنظيم الرابطة بين الرجل والمرأة اعتبارهما نواة الأسرة – الوحدة الأولى للمجتمع – والمسئولين عن حفظ النوع الإنساني، وتربية ورعاية أولادهما الذين هم امتداد لحياتهما ولوجود المجتمع وبذلك تحددت مسئوليات الزوجين الاجتماعية قبل المجتمع..

ولعلنا بعد أن استعرضنا طبيعة العلاقة الزوجية وما يتميز به الزواج نستطيع أن نضع له التعريف الآتي: "الزواج تنظيم اجتماعي للعلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة يترتب عليه التزامات متبادلة ومسئوليات اجتماعية".

ولاشك أن هذا التعريف أشمل من التعريفات التي أوردها الكثيرون، وذلك لاشتماله على العناصر التي نعتقد أنها تميز عقد الزواج عن غيره من العقود كالبيع والإيجار..

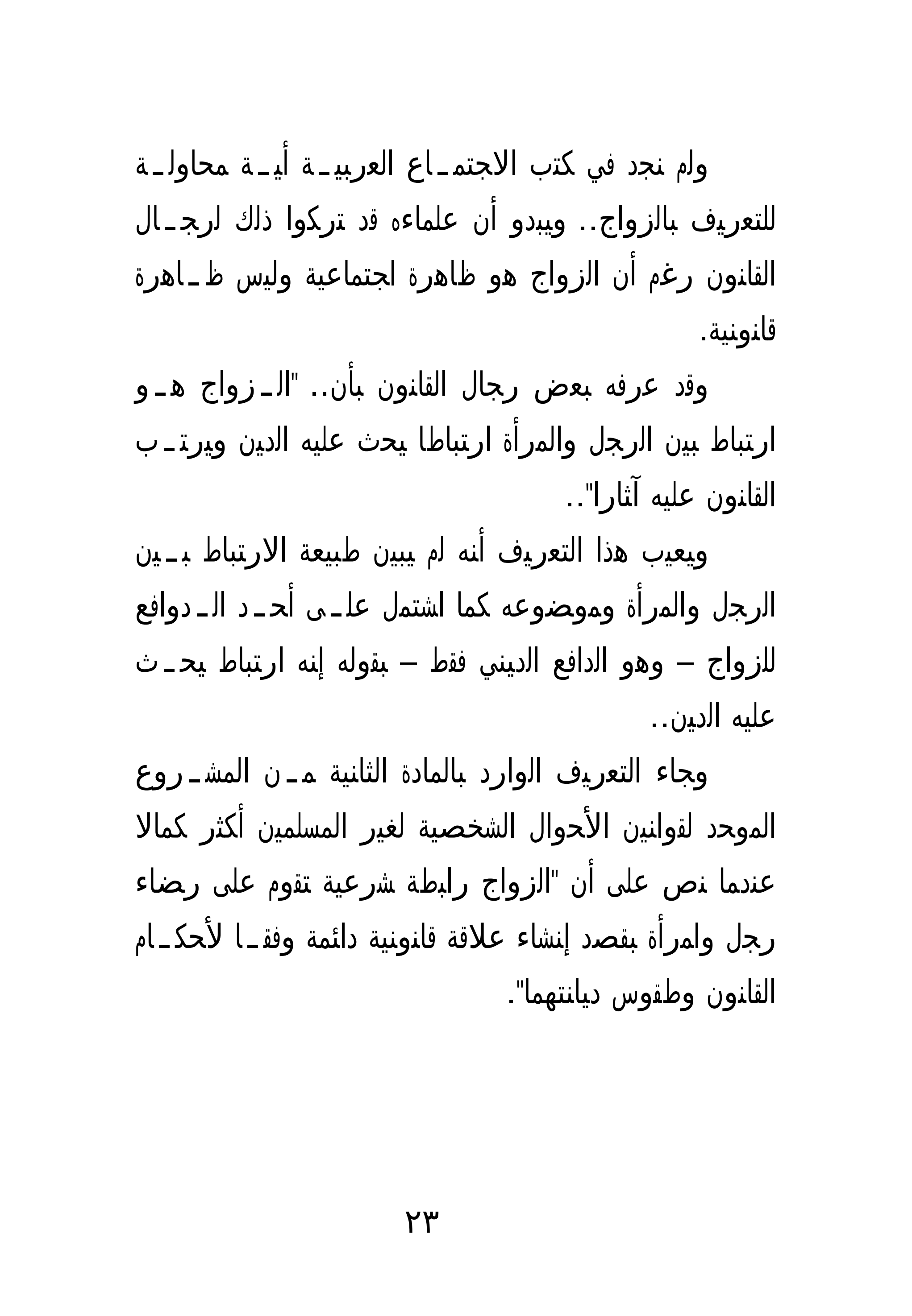
كما يختلف هذا التعريف عن التعريفات الأخرى من الوجوه الآتية:

١- أننا قد أغفلنا بعض العناصر التي لم نرها ضرورية لتمييز الزواج مثل النص على كونه "سرا مقدسا أو أنه يتم طبقا لطقوس معينة، فإنها أحد الأشكال والإجراءات الخاصة التي ارتضاها مجتمع معين.. كما لم نر من الضروري أن نبين على وجه التفصيل التزام تربية البنين، لأنه يدخل تحت تعبير المسئوليات الاجتماعية".

٢- كذلك حرصنا في تعريفنا للزواج على أن نبين في وضوح كافة جوانبه وأطرافه وهم: الزوج والزوجة والمجتمع.

٣- أننا قد راعينا أن يصدق تعريف الزواج على الزواج الكامل الذي يتضمن عنصر المتعة إلى جوار عنصر المسئولية.

٤- الاعتداد بطرفي عقد الزواج بقولنا إنه "علاقة بين رجل وامرأة.. إذ لا يمكن – ولا يجوز – اعتبار الزواج مجرد سلطة الرجل في الاستمتاع بجسد امرأة..



ولم نجد في كتب الاجتمـاع العربيـة أيـة محاولـة للتعريف بالزواج.. ويبدو أن علماءه قد تركوا ذلك لرجـال القانون رغم أن الزواج هو ظاهرة اجتماعية وليس ظـاهرة قانونية.

وقد عرفه بعض رجال القانون بأن.. "الـزواج هـو ارتباط بين الرجل والمرأة ارتباطا يحث عليه الدين ويرتـب القانون عليه آثارا"..

ويعيب هذا التعريف أنه لم يبين طبيعة الارتباط بـين الرجل والمرأة وموضوعه كما اشتمل علـى أحـد الـدوافع للزواج – وهو الدافع الديني فقط – بقوله إنه ارتباط يحـث عليه الدين..

وجاء التعريف الوارد بالمادة الثانية مـن المشـروع الموحد لقوانين الأحوال الشخصية لغير المسلمين أكثر كمالا عندما نص على أن "الزواج رابطة شرعية تقوم على رضاء رجل وامرأة بقصد إنشاء علاقة قانونية دائمة وفقـا لأحكـام القانون وطقوس ديانتهما".

وقد عرف بعض رجال الاجتماع الأمريكيين الـزواج بأنه "اتحاد جنسي شكلي ودائم بين رجل أو أكثر بـامرأة أو أكثر في نطاق مجموعة محددة من الحقوق والواجبات"..

ويعيب هذا التعريف أيضا أنه تضمن بعـض كلمـات تحتاج إلى تعريف آخر.. إذ ما هو الاتحاد الجنسي.. وما هي المجموعة المحددة من الحقوق والواجبات.. ومن الذي قـام بتحديدها؟!

كما وصف هذا التعريف الزواج بأنه "شكلي" وبـذلك خرج عن التعريف "الزواج الرضائي" الذي لا يلزم لتمامـه شكلا معينا أو صياغته في عقد رسمي.. وكذلك يعيبه وصف الزواج بأنه "دائم" إذ أنه بذلك يخرج عن التعريف – الزواج المؤقت وزواج المتعة، كما أن الزواج ليس "دائما" في أغلب التشريعات، إذ يكون للزوج وحده حق إنهائه بإرادته المنفردة كما في الشريعة الإسلامية.. أو يكون لكلا الزوجية كما فـي معظـم التشـريعات التـي لا تخضـع لسـلطان الكنيسـة الكاثوليكية..

ولعل أهم ما يعيب هذا التعريف أنـه لـم يبـين دور المجتمع في تنظيم الزواج، أو المسئوليات التي يرتبها الزواج

لمصلحة المجتمع، خاصة بعد أن أصبح الزواج نظاما قانونيا تكفل المشرع بنصوص أمره بتحديد أحكامه وآثاره، ولم يعد عقدا خاضعا لسلطان الإرادة يباح لطرفين فيه تعـديل هـذه الأحكام وتلك الآثار..

ويعرفه وستر مارك بأنه "رابطة تربط بين رجـل أو أكثر بامرأة أو أكثر تعترف بها العادة أو القانون وتنطـوي على حقوق وواجبات معينة"..

ويعيب هذا التعريف وصفه للزواج بأنه "رابطة" وهـو بذلك يخرج "الزواج الجماعي" عن التعريف لأنه لا يمكن أن نتصور وجود "رابطة" في الزواج الجماعي.

ولذلك نرى وستر مارك يقر بعـد ذلـك أنـه "مـن الضروري أن يتم الاتحاد – حتى يعتبـر زواجـا – وفقـا للقواعد التي ترسمها العادة أو القانون كائنة ما كانـت هـذه القواعد".. وهو مـا عبرنـا عنـه فـي تعريفنـا بـالتنظيم الاجتماعي.

ونجد تعريفا آخر للزواج لوستر مـارك فـي كتابـه "الزواج الإنساني".. وهو "الزواج ليس أكثر أو أقل من علاقة

جنسية متينة بين ذكر وأنثى تدوم إلى ما بعد عملية التوالـد، حتى بعد ميلاد الطفل"..

وتعرفه هيلين كلارك بأنه "عقد يخضع الرجل والمرأة لالتزامات قانونية واجتماعية متبادلة"..

ويعرفه جيمس كورين بأنه "ليس أكثر أو أقل من اتحاد جنسي دائم يفرضه القانون والقوة أو العادة"..

**...............

أنا لم أسع إلى معرفة كل تعريفات الزواج وعرضـها في هذا المكان إلا من أجل إيضاح كيف أن الـزواج لـيس بالأمر الهين أو البسيط، وهو من الأشياء التي يتعامل معهـا الناس بكثير من التقديس والاحترام، لهذا كان نزوع الـبعض إلى خوض تجربة "الزواج العرفي" يمثل نوعا من الخـروج على هذا التقديس، وإخلالا بذلك الاحترام. فقد كنـت – ولا أزال – أرى أن من خاضوا تجربة "الزواج العرفي" جعلـوا للزواج وجها واحدا فقط وهدفا واحدا ولا شيء سواه وهـو: الممارسة الجنسية! مع أن الحقيقة ليست كذلك. لأن الـزواج ينطوي على عشرات التفاصيل المهمة والضـرورية.. مـن

بينها الجنس بالطبع.. لكن ليس أي منها وحده ينفـع لإقامـة علاقة زوجية صحيحة وسليمة.

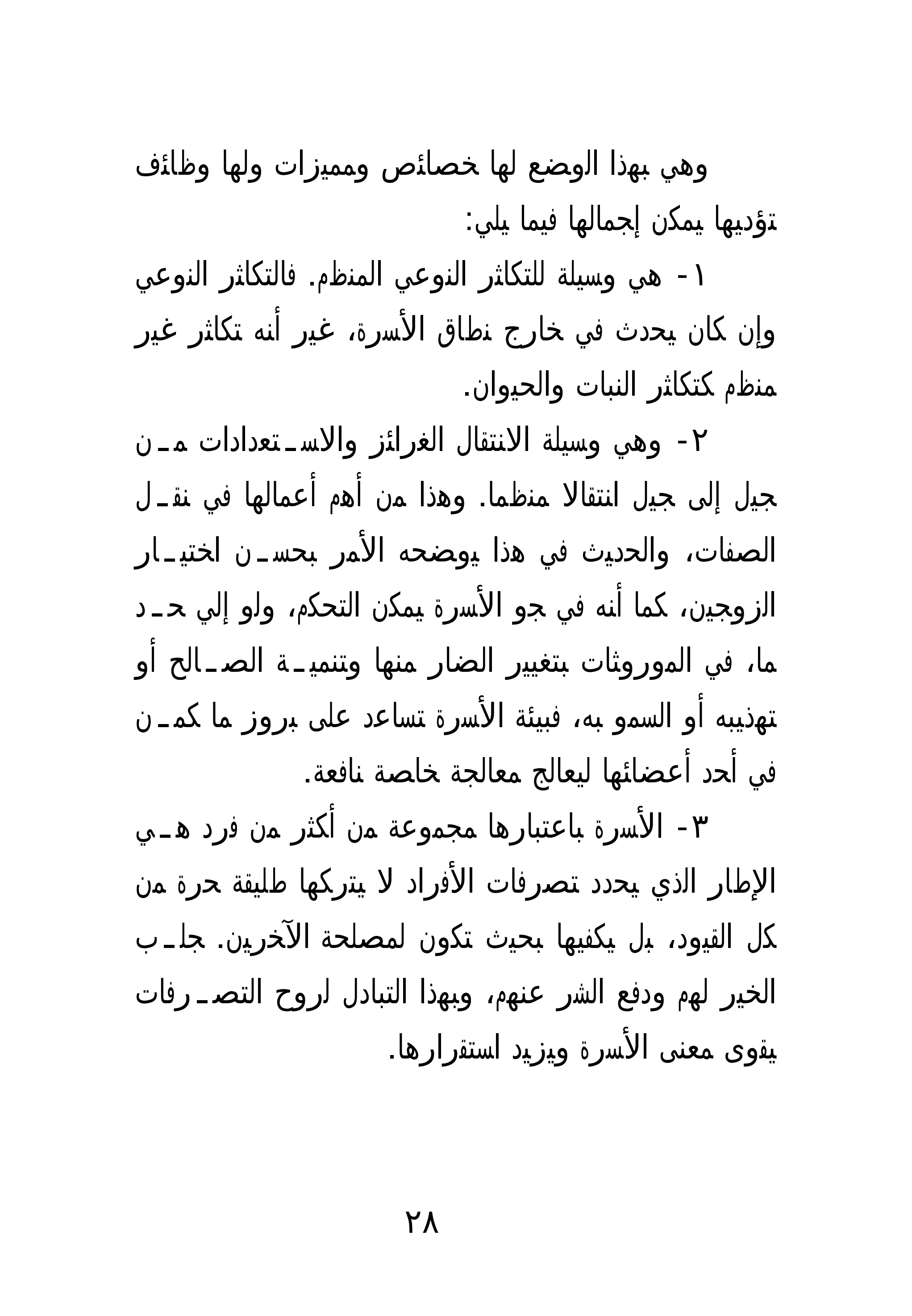
إن هدف الزواج في كل التعريفات وفي كل الأديان هو تكوين الأسرة. وتكوين الأسرة ليس بالأمر البسيط أو السهل. وحتى لو كان سهلاً أو بسيطًا فلا أظن أن أحدا ممن أقـدموا على تجربة الزواج العرفي كانوا يفكرون في تكوين أسـرة بالمعنى الحقيقي للأسرة، ومن المؤكـد لا يـدركون الأدوار الحساسة والمهمة التي تقوم بها هذه الأسرة.

ولما[١] كان الزواج الشرعي هو الوسيلة الصـحيحة لتكوين الأسرة كان الحديث عنها حديثًا عن الـزواج فهمـا متلازمان.

إن الأسرة هي أول خلية في جسم المجتمـع، أو هـي اللبنة الأولى في بناء الهيكل الإنساني العام، ومن أجل بنـاء المجتمع عليها كانت لها قوانين تحكم وجودهـا وارتباطهـا بالمجتمع، عن طريق الأديان والأعراف والتقاليد المتواضـع عليها، فهي تؤثر فيه وتتأثر به كالجسم البشري تماما.

---

[١]) الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ عطية صقر.

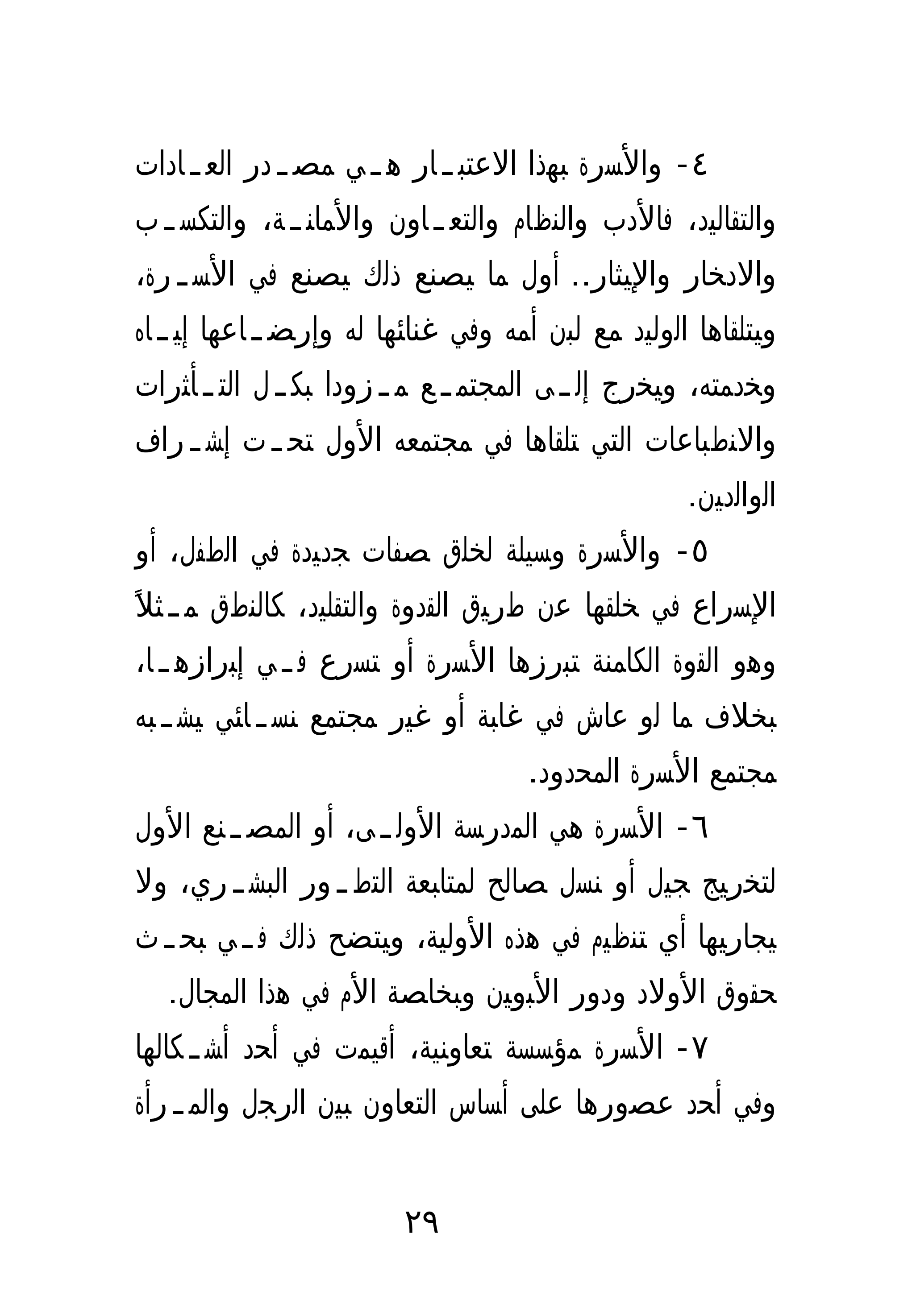


وهي بهذا الوضع لها خصائص ومميزات ولها وظائف تؤديها يمكن إجمالها فيما يلي:

١- هي وسيلة للتكاثر النوعي المنظم. فالتكاثر النوعي وإن كان يحدث في خارج نطاق الأسرة، غير أنه تكاثر غير منظم كتكاثر النبات والحيوان.

٢- وهي وسيلة الانتقال الغرائز والاستعدادات من جيل إلى جيل انتقالا منظما. وهذا من أهم أعمالها في نقل الصفات، والحديث في هذا يوضحه الأمر بحسن اختيار الزوجين، كما أنه في جو الأسرة يمكن التحكم، ولو إلي حد ما، في الموروثات بتغيير الضار منها وتنمية الصالح أو تهذيبه أو السمو به، فبيئة الأسرة تساعد على بروز ما كمن في أحد أعضائها ليعالج معالجة خاصة نافعة.

٣- الأسرة باعتبارها مجموعة من أكثر من فرد هي الإطار الذي يحدد تصرفات الأفراد لا يتركها طليقة حرة من كل القيود، بل يكفيها بحيث تكون لمصلحة الآخرين. جلب الخير لهم ودفع الشر عنهم، وبهذا التبادل لروح التصرفات يقوى معنى الأسرة ويزيد استقرارها.

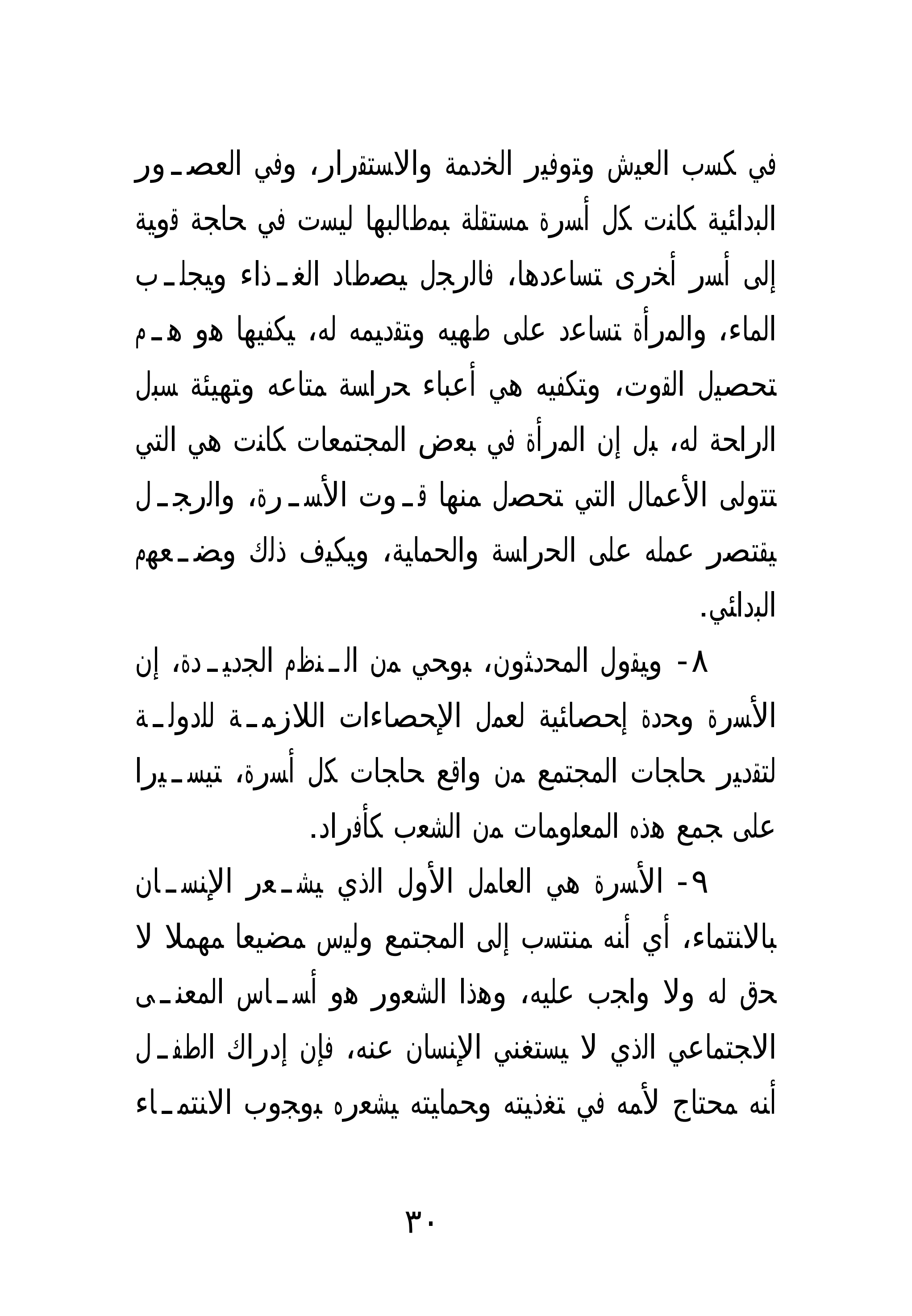


٤- والأسرة بهذا الاعتبار هي مصدر العادات والتقاليد، فالأدب والنظام والتعاون والأمانة، والتكسب والادخار والإيثار.. أول ما يصنع ذلك يصنع في الأسرة، ويتلقاها الوليد مع لبن أمه وفي غنائها له وإرضاعها إياه وخدمته، ويخرج إلى المجتمع مزودا بكل التأثرات والانطباعات التي تلقاها في مجتمعه الأول تحت إشراف الوالدين.

٥- والأسرة وسيلة لخلق صفات جديدة في الطفل، أو الإسراع في خلقها عن طريق القدوة والتقليد، كالنطق مثلاً وهو القوة الكامنة تبرزها الأسرة أو تسرع في إبرازها، بخلاف ما لو عاش في غابة أو غير مجتمع نسائي يشبه مجتمع الأسرة المحدود.

٦- الأسرة هي المدرسة الأولى، أو المصنع الأول لتخريج جيل أو نسل صالح لمتابعة التطور البشري، ولا يجاريها أي تنظيم في هذه الأولية، ويتضح ذلك في بحث حقوق الأولاد ودور الأبوين وبخاصة الأم في هذا المجال.

٧- الأسرة مؤسسة تعاونية، أقيمت في أحد أشكالها وفي أحد عصورها على أساس التعاون بين الرجل والمرأة



في كسب العيش وتوفير الخدمة والاستقرار، وفي العصـور البدائية كانت كل أسرة مستقلة بمطالبها ليست في حاجة قوية إلى أسر أخرى تساعدها، فالرجل يصطاد الغـذاء ويجلـب الماء، والمرأة تساعد على طهيه وتقديمه له، يكفيها هو هـم تحصيل القوت، وتكفيه هي أعباء حراسة متاعه وتهيئة سبل الراحة له، بل إن المرأة في بعض المجتمعات كانت هي التي تتولى الأعمال التي تحصل منها قـوت الأسـرة، والرجـل يقتصر عمله على الحراسة والحماية، ويكيف ذلك وضـعهم البدائي.

٨- ويقول المحدثون، بوحي من الـنظم الجديـدة، إن الأسرة وحدة إحصائية لعمل الإحصاءات اللازمـة للدولـة لتقدير حاجات المجتمع من واقع حاجات كل أسرة، تيسـيرا على جمع هذه المعلومات من الشعب كأفراد.

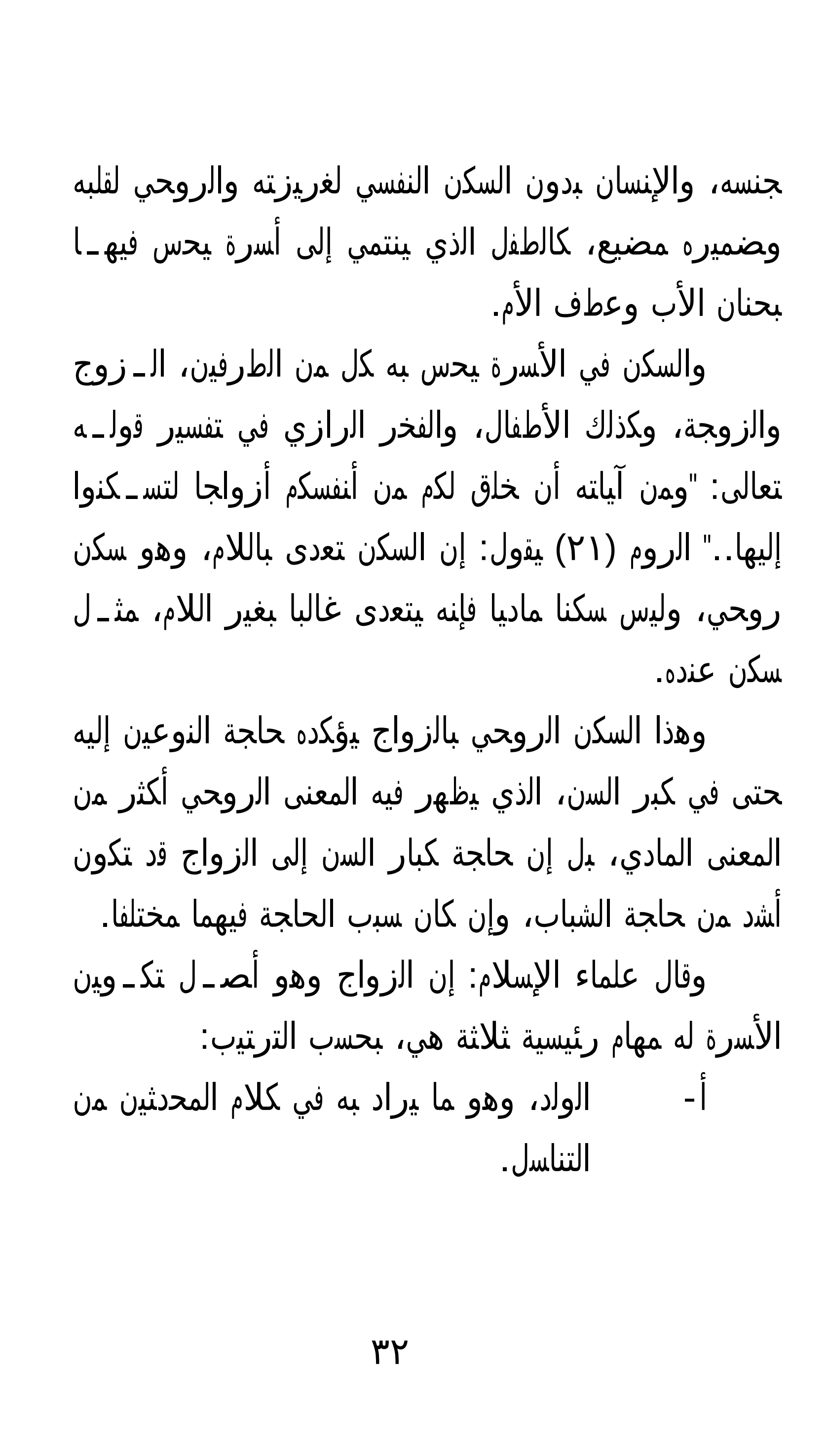
٩- الأسرة هي العامل الأول الذي يشـعر الإنسـان بالانتماء، أي أنه منتسب إلى المجتمع وليس مضيعا مهملا لا حق له ولا واجب عليه، وهذا الشعور هو أسـاس المعنـى الاجتماعي الذي لا يستغني الإنسان عنه، فإن إدراك الطفـل أنه محتاج لأمه في تغذيته وحمايته يشعره بوجوب الانتمـاء

أو بخلق الشعور الاجتماعي، ولا يترك الشعور الفردي الأناني يستبد به، وهذا ما يشير إليه كتاب الاجتماع بقولهم: الإنسان مدني بطبعه.

كما يلاحظ في شعور الانتماء إلى المجتمع الذي يقوى في محيط الأسرة، أن الالتزام بقوانين الأسرة أقوى وأشد من الالتزام بقوانين الدولة، نظرا لعوامل كثيرة، منها أن قوانين الأسرة تنفذ مع عامل الاحترام لها، وأنها أول ما عرف من قوانين تلتزم، وأن الرقابة فيها أقوى وفرص التفلت منها أقل، وأن الآثار الاجتماعية والأدبية المترتبة على مخالفتها أصعب على النفس من مخالفة القوانين العامة.

١٠- تكوين الأسر المستقرة يحد من تنازع الرجال على النساء والتقاتل على الفوز بهن، فالأسرة بهذا مهذبة للغريزة الجنسية ومنظمة لها، وهي بهذا تبعد الإنسان عن الشبه بالحيوانات.

١١- الأسرة الشرعية من أهم العوامل للسكن النفسي والراحة الفكرية، لأن الاتصال الجنسي خارجها لا يمنع القلق والاضطراب ولا تأنيب الضمير، ولا يوفر الاستقرار والسكن النفسي حتى لو عاش الإنسان مع زملاء من بني



جنسه، والإنسان بدون السكن النفسي لغريزته والروحي لقلبه وضميره مضيع، كالطفل الذي ينتمي إلى أسرة يحس فيهـا بحنان الأب وعطف الأم.

والسكن في الأسرة يحس به كل من الطرفين، الـزوج والزوجة، وكذلك الأطفال، والفخر الرازي في تفسير قولـه تعالى: "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسـكنوا إليها.." الروم (٢١) يقول: إن السكن تعدى باللام، وهو سكن روحي، وليس سكنا ماديا فإنه يتعدى غالبا بغير اللام، مثـل سكن عنده.

وهذا السكن الروحي بالزواج يؤكده حاجة النوعين إليه حتى في كبر السن، الذي يظهر فيه المعنى الروحي أكثر من المعنى المادي، بل إن حاجة كبار السن إلى الزواج قد تكون أشد من حاجة الشباب، وإن كان سبب الحاجة فيهما مختلفا.

وقال علماء الإسلام: إن الزواج وهو أصـل تكـوين الأسرة له مهام رئيسية ثلاثة هي، بحسب الترتيب:

أ- الولد، وهو ما يراد به في كلام المحدثين من التناسل.

ب- التعاون، وهو واضح من تعاون الـزوجين بعضهما مع بعض لرخاء عيشهما ورعايـة النسل الناتج منهما.

ج- قضاء الشهوة الجنسية، ذلك أن هذه الشهوة لا بد أن يكون لها منفذ طبيعـي، وإلا لأضـرت البدن كفضلات الطعـام ومـا يتخلـف عـن العمليات الكيماوية العضـوية فـي الجسـم، والرجل والمرأة في ذلك سواء.

وهذا المعنى وإن كان يوجد بوسيلة أخرى غير الـزواج، إلا أن له أخطاء لا تخفى على أي إنسان، فقضاؤها فـي ظـل أسرة شرعية يمنع هذه الأخطاء.

يقول المودودي (توفي ١٩٧٩) في حكمة مشروعية الـزواج ما ملخصه: ليس المقصود منه النسـل فقـط، فالحيوانـات تتناسل، ولا قضاء للشهوة فقد تنفصل المحبة بعد قضـائها، وإنما المقصود منه هو التمدن، والتحضر، ومن هنـا كـان الإنسان دائما في شوق إلى الزوجة، والمرأة في شوق إلـى الزوج، بخلاف الحيوان. كما أن حب الرجل لأولاده يـدوم بعد فترة التربية ولأجيال قادمة، أما الحيوانات فتحنو علـى

أولادها مدة طفولتها ثم تتركها، فالمقصود من الزواج الحياة الاجتماعية لا الفردية، وذلك أسـاس التمـدن والحضـارة، فالعلاقة الإنسانية بين الـزوجين أدوم وآكـد مـن العلاقـة الجنسية، ولا بد للتمدن من تعديل الميل الجنسي، لأن إضعافه لا يساعد على التمدن، كما أن الإفراط فيه يسبب الفوضـى، واستقرار الأسرة لا يكون بمجرد الحمل فإن المـرأة تكابـد آلامه وتبعاته سنين طوالا، أما الرجل فلا يتحمل شيئًا بعـد وضع النطفة، لذلك ربط الدين الرجل والمرأة بالنكاح وألزمه بنفقات الولد والأسرة، وجعل زينة المرأة وأسـلحتها شـبكة لإيقاعه في حبها مع وجود الولد بينهما.

**..................

والسؤال الآن: هل كان أحد يفكر في أي من هذه الجوانـب عندما قرر اللجوء إلى الزواج العرفي؟ هل خطر على باله – أو بالها – شيء منها؟ هل شغله أو شغلتها فكرة تكوين أسرة بكل ما يتحقق بها من أهداف وبكل ما هو واقع عليهـا مـن تبعات؟

المؤكد أن المسألة لم تخرج من كونها "حالة جنسية" سيطرت على ذكر وأنثى!

هذه الحالة جاءت نتيجة للقاءات متكررة ومتعددة تتولد عنها مشاعر بين الطرفين. وبمرور الوقـت تضـغط المشـاعر وتزداد حدتها وتتحول في النهاية إلى مطلب حسي، أو حالـة جنسية، وعندما ألحت هذه الحالة واستحكمت لم يكن هنـاك سوى الزواج العرفي حلا لها. ولذلك فهو بكل بساطة مجرد ارتباط من أجل قضاء غريزة.

وعندما تنقضي الحالة – بعد يوم أو شهر أو سنة – ينتهـي كل شيء!!

والحقيقة أن[1] الذين ينحرفـون فـي حيـاتهم ويخرجـون بالغريزة الجنسية عن طريقها المشروع ويقولون نفعل ذلـك خوفًا على أنفسنا من الكبت الجنسي الذي يكون سـببا فـي هزات نفسية وانفصام في الشخصية وتـأثير علـى صـحة الإنسان العامة نقول لهم: إن ما تقولونه شيء يخالف منطوق الفكر السليم، لأن الإسلام لا يرضى بهـذا مطلقًـا.. وإنمـا الإسلام اعترف بالإنسان جسما وعقلا وروحا. وتعامل معـه من خلال ذلك. ولم يحاول أن يكبت قوة على حساب أخرى. وإنما كل طاقة لها اتجاه ناحية الخير أو الشر. وينعكس أثـر

---

[1] الإسلام ومنهجه في تربية الأبناء، منصور الرفاعي عبيد، ص ٣٩ - ٤٢

ذلك على الشخص أولا، والمجتمع ثانيا.. ولهذا كانت التربية الإسلامية التي تنمي في الإنسان نوازع الخير وتحولها إلـى طاقة بناءة. وتحجم طاقة الشر في الإنسان.. بحيث لا تنـدفع تلك القوة فتحطم صاحبها.

والإسلام ذم العزوبة. ونفر من الرهبانية. وشـرع الـزواج تلبية للفطرة واستجابة للغريزة.. وإذا أحس الفتى بأن لديـه قدرة على الزواج. فعليه أن يسارع إلى تحقيق تلك الرغبـة. وإذا لم يستطع فإن الإسلام قد رسم له طريقـا فيـه السـمو لنفسه، والتهذيب لعواطفه ألا وهو الصيام. وقد جاء في ذلك حديث رسول ا صلى ا عليه وسلم – حيث قال: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصـر وأحصن للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء".

والقرآن الكريم ضرب للشباب مثلا بنموذجين عظيمين همـا يوسف عليه السلام الذي اكتمل شبابه ونضـجت رجولتـه: "وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ ا إنه ربي أحسن مثواي إنـه لا يفلـح الظالمون" يوسف (٢٣). ولما هدد بالسـجن إذا لـم يفعـل

المعصية قال: "رب السجن أحب إلي ممـا يـدعونني إليـه" يوسف (٣٢).

والمثل الثاني: موسى عليه السلام.. فعندما دعته الفتاة ليذهب إلى أبيها ليجزيه أمر ما قدم لابنتيه مـن مسـاعدة.. غـض بصره وتقدم في مشيته على الفتاة لذلك قالت الفتاة لأبيها: "إن خير من استأجرت القوي الأمين" القصص (٢٦).

إذن. فلا مجال في الإسلام لكبت غريزة أبـدا.. لـذلك أراد بعض الصحابة من باب التقرب إلى ا سبحانه وتعـالى أن يقضوا على الدافع الجنسي في أنفسهم من أساسـه ويعطلـوا الطاقة الغريزية فيهم بأن يخصوا أنفسهم. يقول سعد بن أبي وقاص: لو أذن رسول ا صلى ا عليه وسلم لعثمان بـن مظعون في التبتل لاختصينا.. مما يؤكد لنا حتمية الزواج في الإسلام عند القدرة عليه.

إن إشباع الغريزة الجنسية في الإسلام عن طريـق الـزواج ليس مجرد استمتاع فحسب. بل يقصد بـه إشـباع الحاجـة الاجتماعية التي يكون من ورائها إنتاج النسل. وما وراء ذلك من مصالح مشروعة. وهو عمل يثاب عليه في يوم لا ينفـع فيه مال ولا بنون.

والنضج الجنسي يجب أن يتآخى مع النضج الاجتماعي. حتى لا يحدث اضطراب بين الإنسان ونفسه. أو يوجد صراع بين الشخص وقيمه السلوكية. والعقيدة الإسلامية هي صمام الأمن لأن الشخص يحس بمراقبة ا له فـلا يفعـل معصـية ولا يرتكب فاحشة. وإنما يصون نفسه يعفها عن الحرام ثم هـو يشغل نفسه طوال اليوم في أعمال مفيدة تعود عليه بـالنفع. وعلى المجتمع بالرخاء. لأن الفرد إذا صلح صلح المجتمـع وإذا لم يشغل نفسه بالحق مزقه الباطل.

الفصل الثاني

للزواج شروط..
وأيضًا أسماء وأشكال

ليس كل الزواج. دائما. هو ما نعرفه. أنا وأنت. هو أو هي!

وليس كل الزواج أحيانـا – هـو مـا فعلـه آباؤنـا وأجدادنا.. والكل أمثالهم!

الزواج الذي نعرفه، والزواج الذي فعله من سـبقونا.. هو أن يذهب الناس إلى المأذون ليتم عقد بين اثنين – رجـل وامرأة – بعد توافر عدد من الشـروط، لا يصـح الـزواج بدونها ولا يكتمل.

وإلى جانب هذا الزواج – الذي يطلق عليه البعض اسم الزواج الرسمي – هناك أشكال وصور أخرى للزواج.

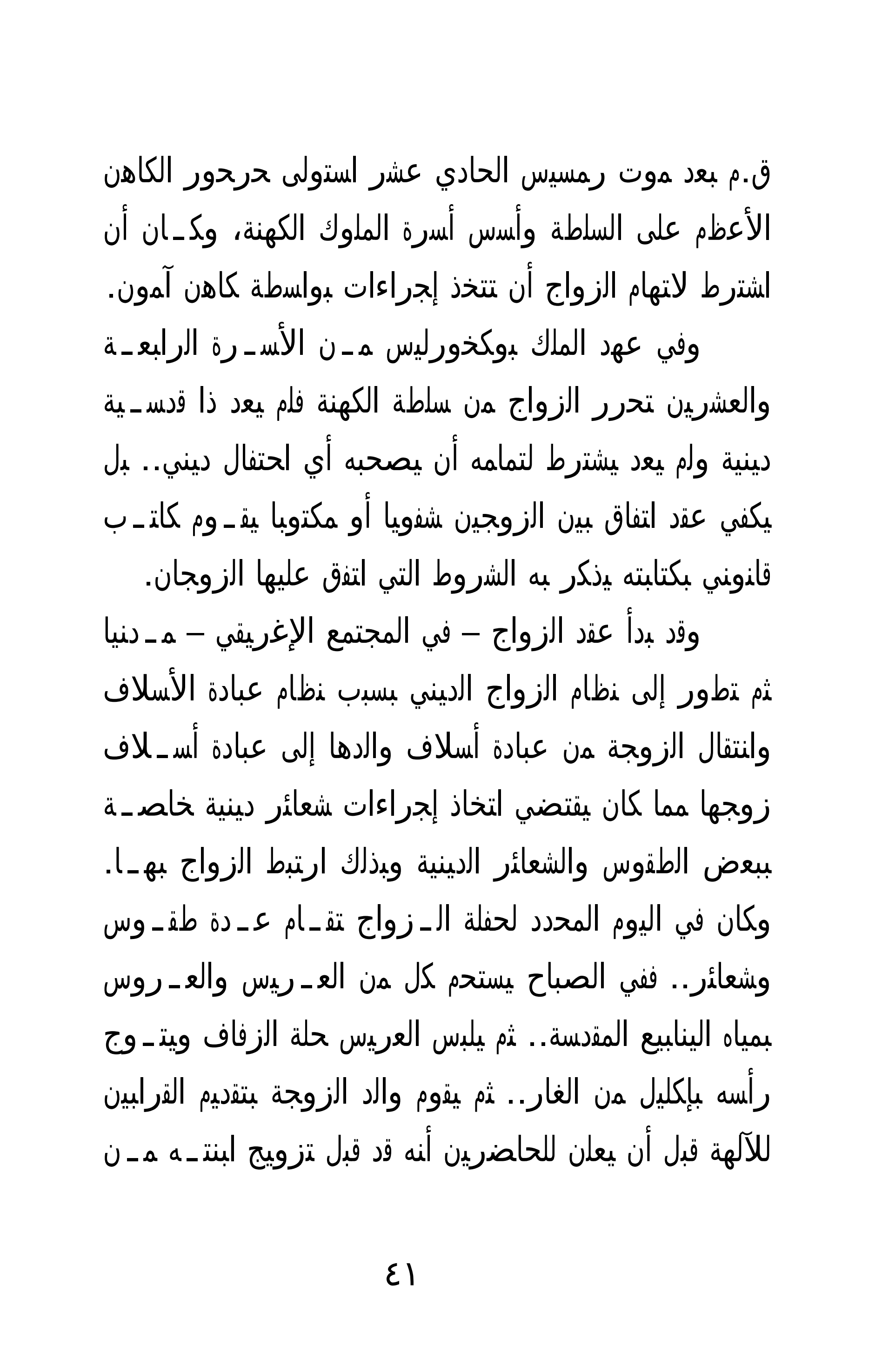
وهكذا كان الحال دائما.. صور وأشكال للـزواج فـي وقت واحد، وصور وأشكال وأسماء للزواج عبر التاريخ.

وقد[1] اتخذ الزواج في تطوره مع الحضارات القديمة أشكالا مختلفة.

كان الزواج – في المجتمع المصري الفرعوني – يتم في المعبد بحضور أقرباء الزوجين.. ولكن في عـام ١٠٩٤

---

[1] الزواج في المجتمع المصري الحديث، عادل أحمد سركيس، ص ٢٠٤ – ٢٠٧.



ق.م بعد موت رمسيس الحادي عشر استولى حرحور الكاهن الأعظم على السلطة وأسس أسرة الملوك الكهنة، وكـان أن اشترط لاتهام الزواج أن تتخذ إجراءات بواسطة كاهن آمون.

وفي عهد الملك بوكخورليس مـن الأسـرة الرابعـة والعشرين تحرر الزواج من سلطة الكهنة فلم يعد ذا قدسـية دينية ولم يعد يشترط لتمامه أن يصحبه أي احتفال ديني.. بل يكفي عقد اتفاق بين الزوجين شفويا أو مكتوبا يقـوم كاتـب قانوني بكتابته يذكر به الشروط التي اتفق عليها الزوجان.

وقد بدأ عقد الزواج – في المجتمع الإغريقي – مـدنيا ثم تطور إلى نظام الزواج الديني بسبب نظام عبادة الأسلاف وانتقال الزوجة من عبادة أسلاف والدها إلى عبادة أسـلاف زوجها مما كان يقتضي اتخاذ إجراءات شعائر دينية خاصـة ببعض الطقوس والشعائر الدينية وبذلك ارتبط الزواج بهـا. وكان في اليوم المحدد لحفلة الـزواج تقـام عـدة طقـوس وشعائر.. ففي الصباح يستحم كل من العـريس والعـروس بمياه الينابيع المقدسة.. ثم يلبس العريس حلة الزفاف ويتـوج رأسه بإكليل من الغار.. ثم يقوم والد الزوجة بتقديم القرابين للآلهة قبل أن يعلن للحاضرين أنه قد قبل تزويج ابنتـه مـن

الشاب المتقدم إليها.. ويتلو بعض التراتيل والأناشيد الدينيـة التي تحرر ابنته من سلطانه ومن عبادة موقده.. وبعد ذلـك تحمل الزوجة إلى منزل زوجها في موكب زفـاف يتقدمـه الزامرون وحاملو المشاعل.. وعنـد بـاب البيـت تتصـنع العروس التمنع عن دخول المنزل، فيمثل زوجها معها عملية الاختطاف وهي تصرخ وتستغيث فيتظاهر أهلها وأصدقاؤها بالدفاع عنها، وتدور معركة صورية قبل أن يرفعها زوجهـا بين ذراعيه ليدخل بها إلى منزله.. حيـث تقـام الطقـوس الأخيرة فيتقدم العروسان – وهما في لباس العرس الأبيض – نحو موقد الزوج لتتلى الأدعية التي يقدمون بها الزوجة إلى آلهة موقد الأسرة الجديدة.

**........................

وفي المجتمع الروماني القديم، كـان نظـام الـزواج بالسيادة يشترط عقد الزواج في معبد الإلـه جـوبتر – إلـه الآلهة – بمعرفة الكاهن الأعظم وكاهن المعبد اللذين يكونان مولودين من مثل هذا الزواج ومتزوجين أيضا بـنفس هـذا النظام.. ويرتل العروسان بعض العبارات الدينية أمام عشرة شهود رومانيين. ثم ظهر شكل جديد لعقد الـزواج بالسـيادة

دون حضور الكهنة ودون التزام بعقده في المعبد أو القيـام بأية مراسم أو شعائر دينية.. أطلـق عليـه اسـم الـزواج بالشراء.. وكان يستلزم حضـور أشـخاص معينـين هـم العروسان وخمسة شهود رومانيون يمثلون طبقات الشـعب الخمس وحامل الميزان والولي أو القيم على المرأة.. وميزان من البرونز وسبيكة برونزية ترمز لثمن الشـراء.. ويقـول الزوج.. "أقرر أن هذه المرأة مملوكة لـي طبقـا للقـانون الروماني وقد اكتسبتها عن طريق هذه السـبيكة البرونزيـة وهذا الميزان".. ثم يضرب الميزان بقطعة من البرونـز ثـم يسلمها إلى والد الزوجة أو القيم عليها.

ولكن نظام الزواج بالسيادة – الديني أو المدني – لـم يحتمل البقاء مع تقدم مركز المرأة الاجتماعي فانتشر نظـام الزواج بدون سيادة حيث لا تخضع الزوجة لسلطان زوجهـا المطلق أو لمن له السيادة عليه.. واقتصر الزواج بالسيادة – الذي يتخذ شكلاً دينيا – على رجال الدين وحـدهم وبعـض الأشراف.. وانتشر بين عامة الشعب شكل جديد للزواج كان يتم بلا إجراءات، بمجرد اتفاق الطرفين ومعاشـرة الرجـل للمرأة سنة كاملة دون انقطاع فيكتسب الرجل السيادة علـى

زوجته بنفس الآثار التي تترتب علـى الـزواج بالسـيادة – الديني والمدني الذي يتم بطريق الشـراء – فـإذا انقطعـت معاشرتها ثلاث ليال متوالية خلال هـذه السـنة لا يكتسـب الرجل السيادة على زوجته ويكون زواجا بغير سيادة.

ثم وجد نظام جديد للزواج يتم أمام الحـاكم القضـائي "البريتور" لا يشترط لتمامه الإرضاء وموافقـة الأب.. ثـم حلت موافقة الحاكم – باعتباره ممثلا لمصـلحة المجتمـع – محل موافقة الأب.

ثم نشأ نظام الزواج بالاتفاق المباشـر بـين الرجـل والمرأة مع نمو مركز المرأة الاجتماعي.. ولم يشترط إثبات عقد الزواج بالكتابة إلا في عهد الإمبراطور جستنيان.

وفي المجتمع العبري القديم كان الزواج يـتم بمجـرد دفع الرجل مهر المرأة فيتسلمها وتصير زوجة له.. ثم أخذوا نظام الزواج بالشراء باستعمال العملة النحاسية عن الرومان بعد عهد الملك هيـردوس (٤٠ - ٤ قبـل المـيلاد).. ثـم اشترطوا تحرير عقد الزواج الذي يشمل النص على الزواج طبقا لشريعة موسى وعلى دفع المهر واستلامه وهو لا يقـل عن خمسين شاقل – العملة العبرية القديمة – للبكر ونصـفها

للثيب.. ولما كانت لبكارة الفتاة قيمة مالية، تعين التحقق منها قبل دفع المهر.

وفي مجتمع – بابل – سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد – كان يشترط تحرير عقد الزواج لأن القانون كان ينص علـى أن العروس لا تعد زوجة إلا بوثيقة زواج.

**...................

وشهدت العصور المتعاقبـة اخـتلاف النظـرة إلـى الزواج، وإلى مفهومه ومعناه، وكيفية إتمامه؟

ويرى الكثيرون أن أرض الأديان – أو المواضع التي شهدت مهبط الرسالات – كانت تنظر للزواج نظرة مختلفة. وكان أساس هذه النظرة هو التقدير والاحتـرام، بينمـا رأى أهل الأماكن الأخرى التي لم تعرف الدين أو الحضـارة أن الزواج عملية مطاوبة للغريزة الجنسية فقط.

ولا شك أن المفاهيم والسلوكيات كـان يغلـب عليهـا الفطرة والبهيمية. وكان الرجال يلجئون إلى أعنـف وأحـط الوسائل للحصول على المرأة لإشباع رغباتهم الجنسية.

كان هناك قتل.. وسطو.. وعراك على الأنثى من أجل الجنس.

صور من الأفعال المتوحشة القاسية – التي لا تختلف عن سلوك الحيوانات في الغابة – للفوز بامرأة. ففي قبائل قديمة في أفريقيا وأمريكا كان الرجل تعجبه أنثى ويريدها لنفسه.. فيقرر أن يقاتل زوجها ويدخل في معركة لا إنسانية معه، وعندما يتغلب عليه تذهب معه المرأة طائعة.. لتكون زوجة له!

هكذا كان الزواج من جانب الرجال. وربما أنه كان نفس الزواج من جانب المرأة. كيف؟ كانت المرأة، التي ظفر بها الرجل بعد معركة ضارية، تريد أن يكون هذا الرجل لها وحدها – فهو يضع يده على عدد من النساء – وعلى ذلك نجدها تقرر هي الأخرى خوض معركة مع ضرائرها ليكون لها الرجل وحدها. ويبدأ الصراع بالحراب والعصي لتنتصر في النهاية ويصبح لها زوجا وحيدا!!

وفي قبائل أسترالية قديمة كانت جماعتان من الرجال تتقاتل قتالا شرسا، وعندما يحسم أحد الطرفين المعركة لصالحه كانت نساء المهزومين يذهبن إلى الفائزين مباشرة. وهكذا كان الغالب اليوم يمكن أن يصبح المهزوم غدا. وبالتالي تضيع زوجاته في معركة لا أحد يعرف متى ستأتي؟

وفي بلاد أخرى. كانت الفوضى الجنسية التي تشـبه سلوك الحيوان سببا في اللجوء إلى تسمية الأبناء باسـم الأم. لأن الأب غير معروف. بل لا يمكن معرفته من كثرة مـن مارسوا الجنس مع هذه المرأة. وفي المقابل كانت هناك نظرة أرقى للزواج. وأنه فيه شيء أكبر من كونه تلبيـة لغريـزة. فهو حياة كاملة لها قواعدها وأصولها سواء علـى مسـتوى الرجل والمرأة اللذان يقتسمان جوانبـه. أو علـى مسـتوى المجتمع الذي يتعمق تحضره من خلال هذا الزواج، وكـان الفضل في تلك النظرة الإيجابية للزواج يرجع إلى الأديـان والرسالات السماوية التي كان لها دور في تهـذيب أفكـار وسلوك أغلب البشر الذين عاشوا في دائرة تأثيرها.

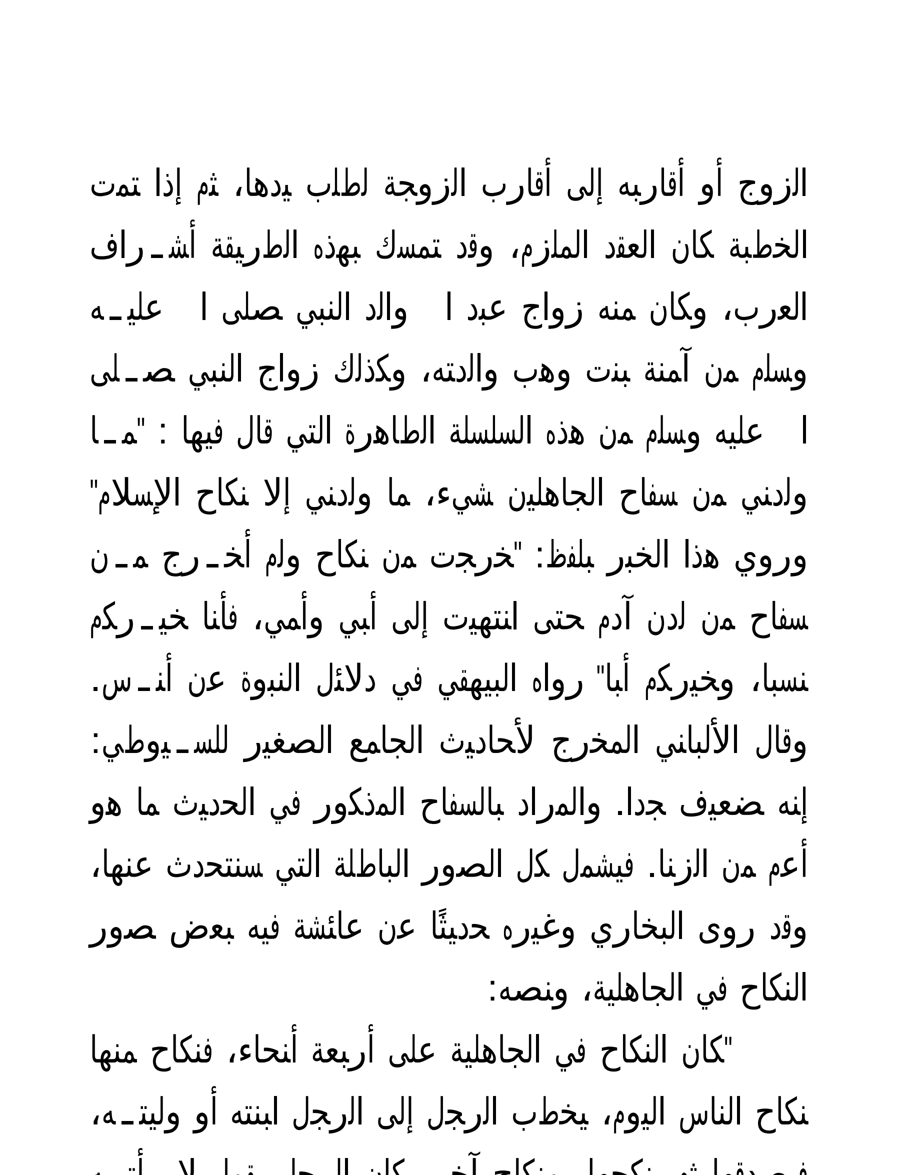
**..........................

وإذا انتقلنا إلى الجانب الذي يهمنا وهو جانب العـرب الذين تنتسب إليهم غالبية شعوب المنطقة. سوف نكتشـف أن الحال كان مختلفًا تماما في أكثر من اتجاه.

كانت([1]) عند العرب قبل الإسلام عدة صور لاتصـال الرجل بالمرأة لكن أمثلها هو الذي كان عـن طريـق تقـدم

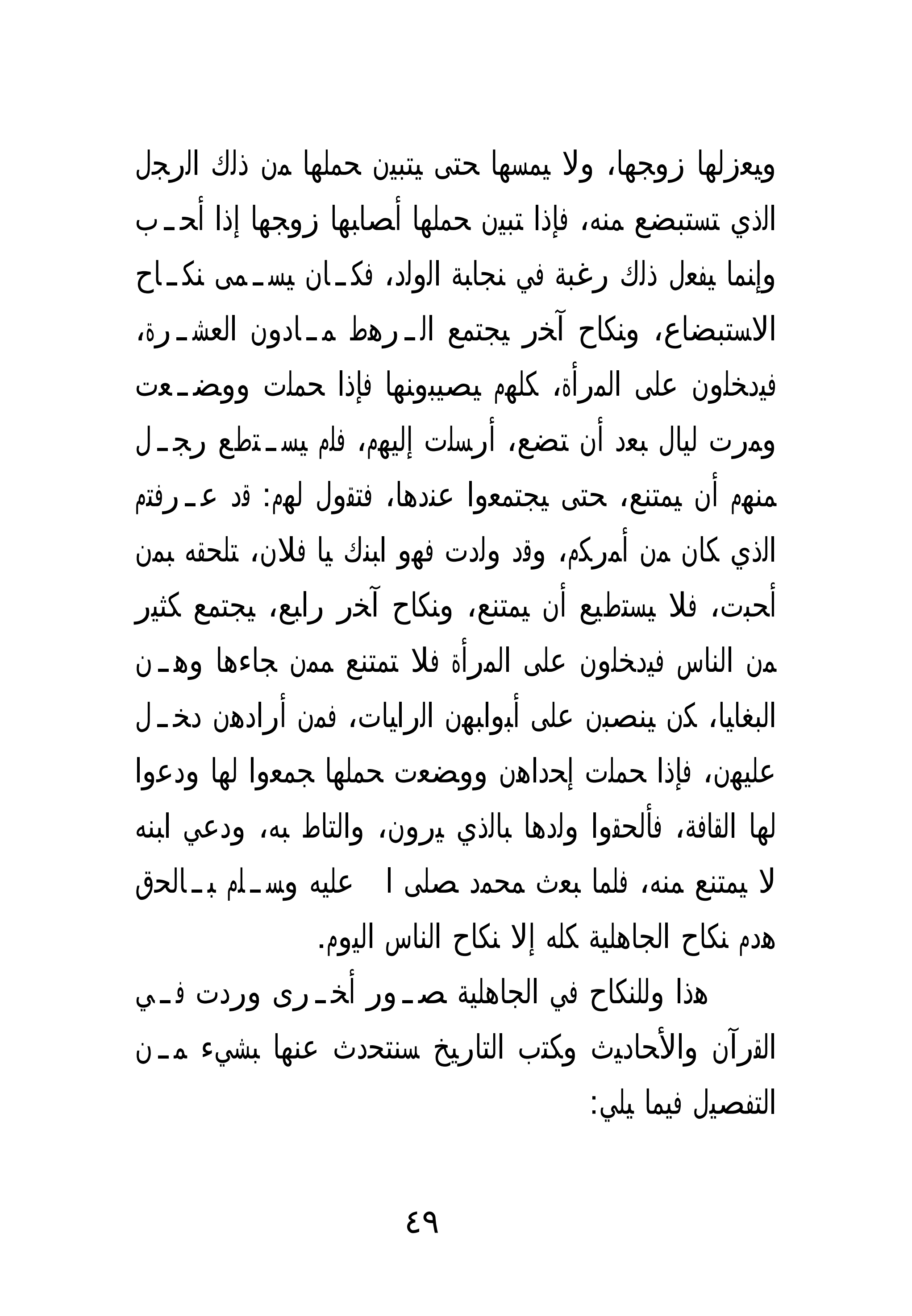
---

[1]) الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ عطية صقر، ص ٢٨٧ - ٢٩٧



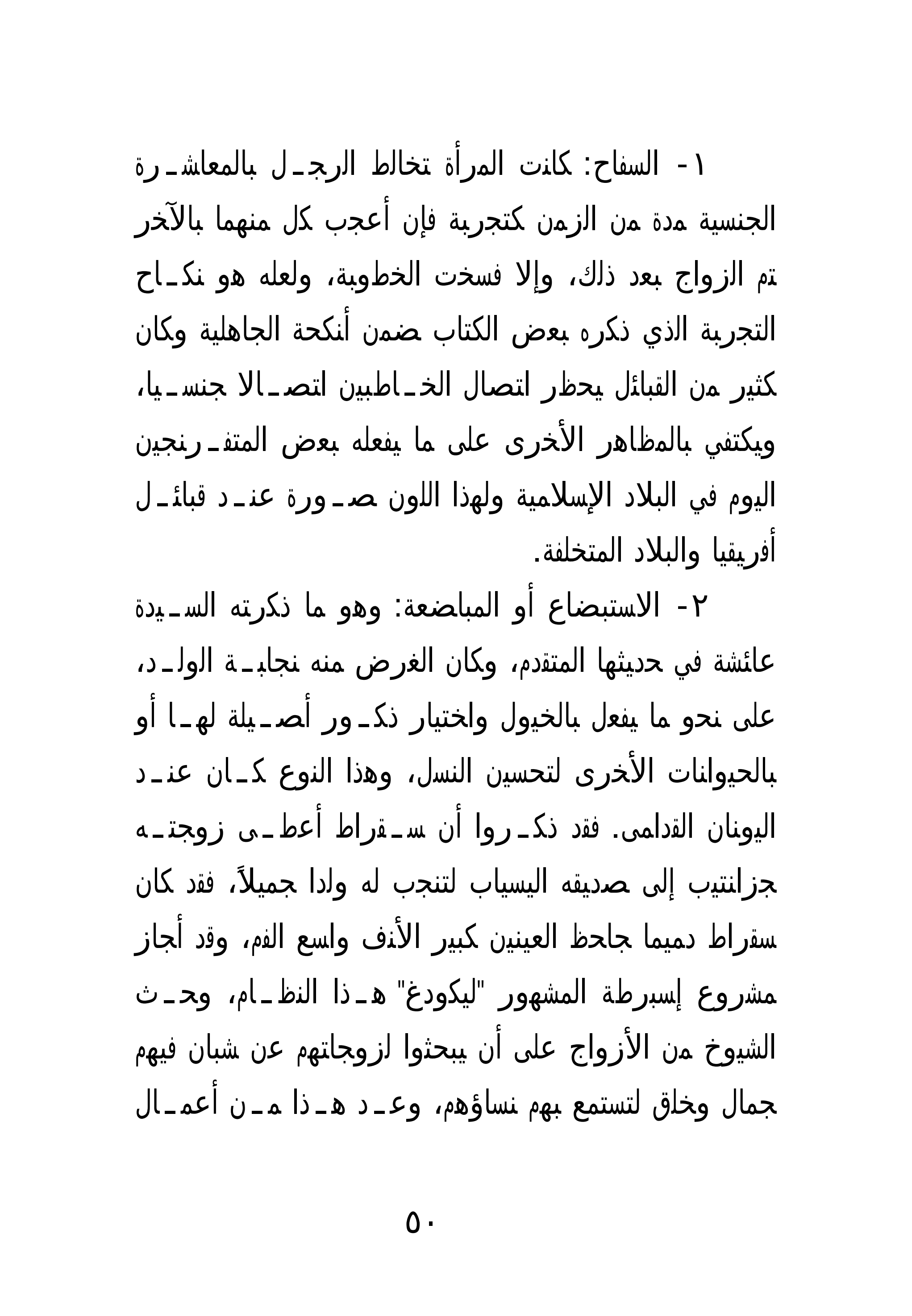
الزوج أو أقاربه إلى أقارب الزوجة لطلب يدها، ثم إذا تمت الخطبة كان العقد الملزم، وقد تمسك بهذه الطريقة أشـراف العرب، وكان منه زواج عبد ا والد النبي صلى ا عليـه وسلم من آمنة بنت وهب والدته، وكذلك زواج النبي صـلى ا عليه وسلم من هذه السلسلة الطاهرة التي قال فيها : "مـا ولدني من سفاح الجاهلين شيء، ما ولدني إلا نكاح الإسلام" وروي هذا الخبر بلفظ: "خرجت من نكاح ولم أخـرج مـن سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي، فأنا خيـركم نسبا، وخيركم أبا" رواه البيهقي في دلائل النبوة عن أنـس. وقال الألباني المخرج لأحاديث الجامع الصغير للسـيوطي: إنه ضعيف جدا. والمراد بالسفاح المذكور في الحديث ما هو أعم من الزنا. فيشمل كل الصور الباطلة التي سنتحدث عنها، وقد روى البخاري وغيره حديثًا عن عائشة فيه بعض صور النكاح في الجاهلية، ونصه:

"كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء، فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل ابنته أو وليتـه، فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر، كان الرجل يقول لامرأتـه إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضـعي منـه،



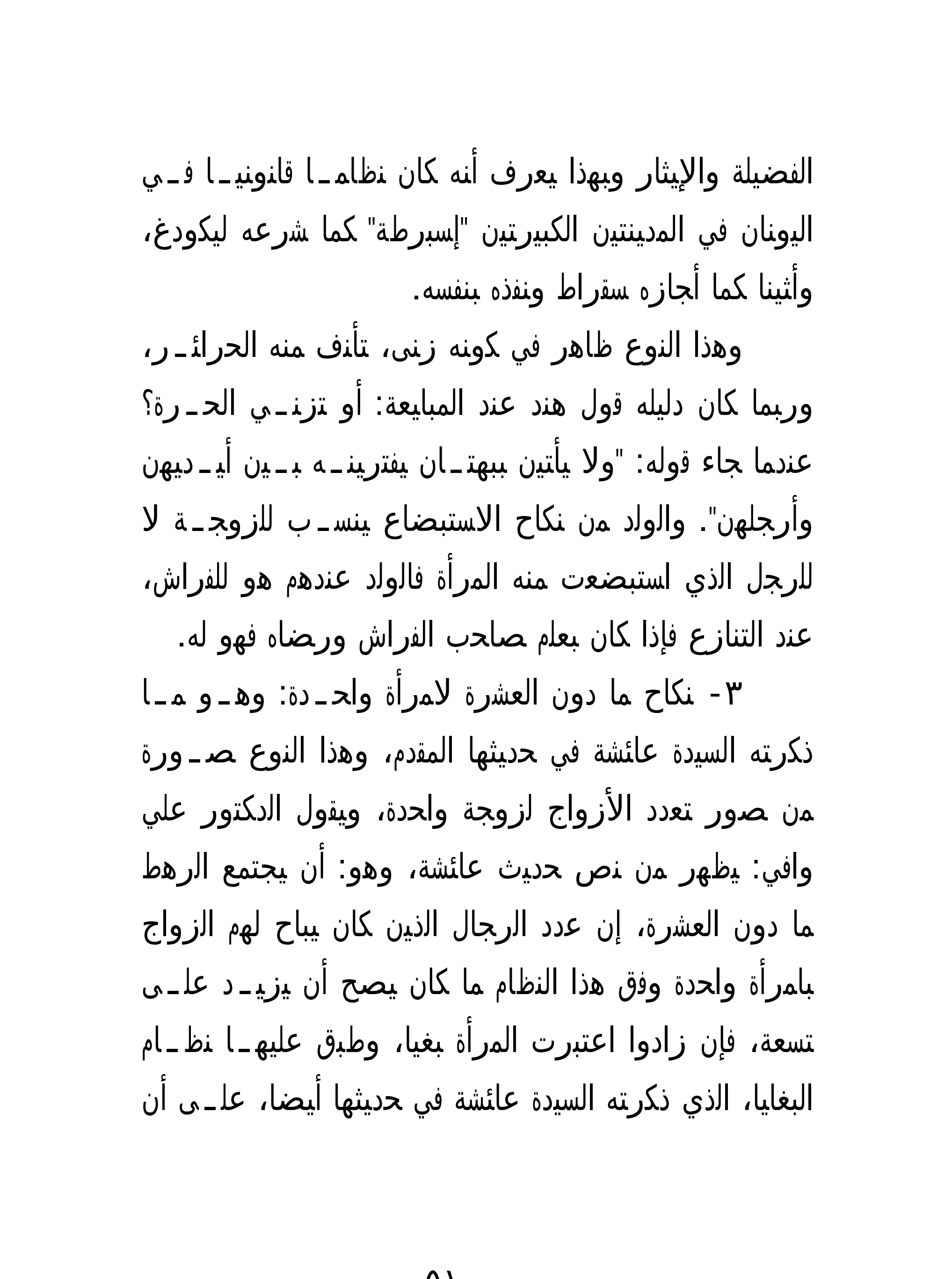
ويعزلها زوجها، ولا يمسها حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان يسمى نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر يجتمع الرهط مادون العشرة، فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبونها فإذا حملت ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، تلحقه بمن أحبت، فلا يستطيع أن يمتنع، ونكاح آخر رابع، يجتمع كثير من الناس فيدخلون على المرأة فلا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن الرايات، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لها القافة، فألحقوا ولدها بالذي يرون، والتاط به، ودعي ابنه لا يمتنع منه، فلما بعث محمد صلى ا عليه وسلم بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم.

هذا وللنكاح في الجاهلية صور أخرى وردت في القرآن والأحاديث وكتب التاريخ سنتحدث عنها بشيء من التفصيل فيما يلي:



١- السفاح: كانت المرأة تخالط الرجـل بالمعاشـرة الجنسية مدة من الزمن كتجربة فإن أعجب كل منهما بالآخر تم الزواج بعد ذلك، وإلا فسخت الخطوبة، ولعله هو نكـاح التجربة الذي ذكره بعض الكتاب ضمن أنكحة الجاهلية وكان كثير من القبائل يحظر اتصال الخـاطبين اتصـالا جنسـيا، ويكتفي بالمظاهر الأخرى على ما يفعله بعض المتفـرنجين اليوم في البلاد الإسلامية ولهذا اللون صـورة عنـد قبائـل أفريقيا والبلاد المتخلفة.

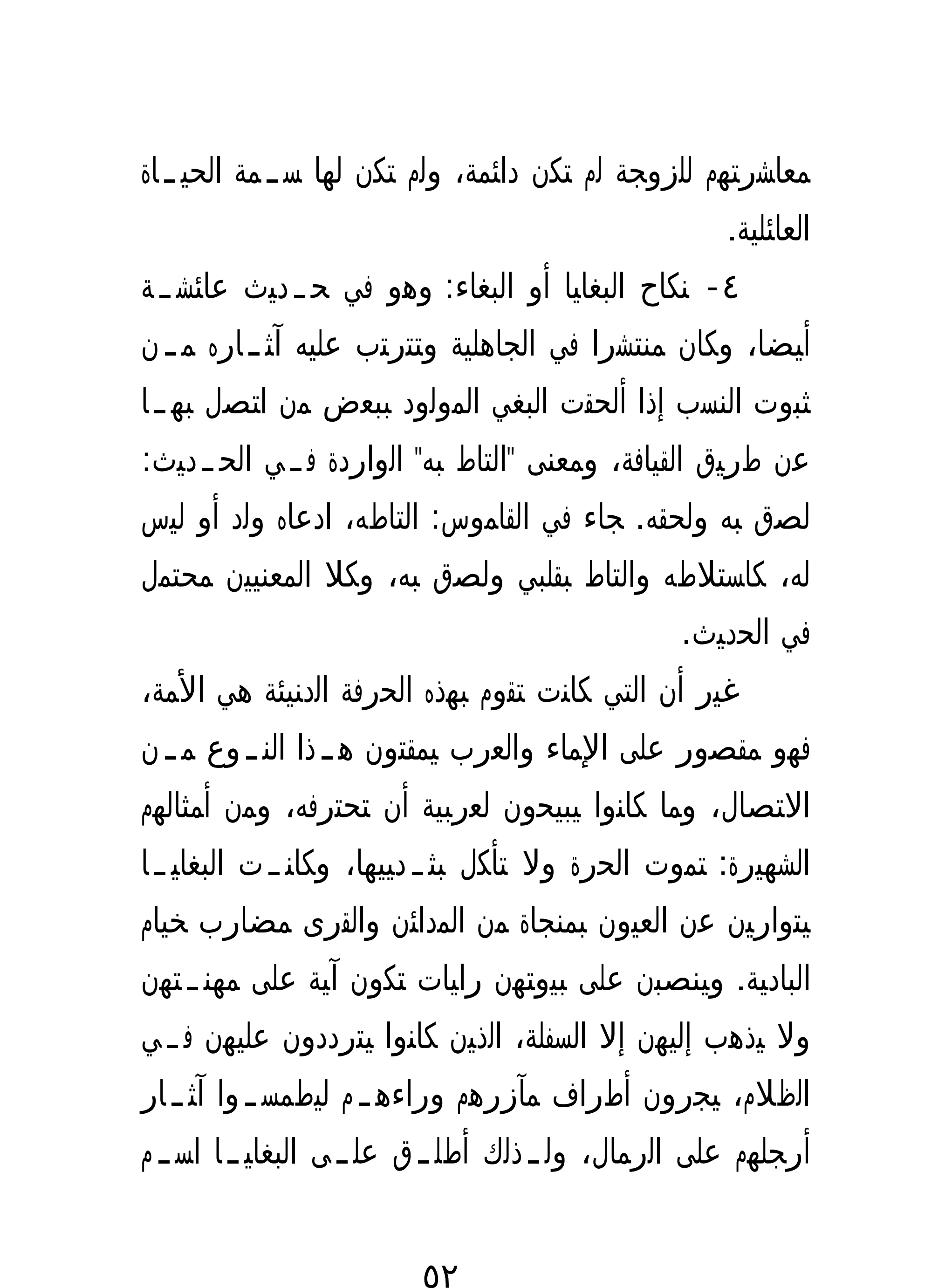
٢- الاستبضاع أو المباضعة: وهو ما ذكرته السـيدة عائشة في حديثها المتقدم، وكان الغرض منه نجابـة الولـد، على نحو ما يفعل بالخيول واختيار ذكـور أصـيلة لهـا أو بالحيوانات الأخرى لتحسين النسل، وهذا النوع كـان عنـد اليونان القدامى. فقد ذكـروا أن سـقراط أعطـى زوجتـه جزانتيب إلى صديقه اليسياب لتنجب له ولدا جميلاً، فقد كان سقراط دميما جاحظ العينين كبير الأنف واسع الفم، وقد أجاز مشروع إسبرطة المشهور "ليكودغ" هـذا النظـام، وحـث الشيوخ من الأزواج على أن يبحثوا لزوجاتهم عن شبان فيهم جمال وخلق لتستمع بهم نساؤهم، وعـد هـذا مـن أعمـال



الفضيلة والإيثار وبهذا يعرف أنه كان نظامـا قانونيـا فـي اليونان في المدينتين الكبيرتين "إسبرطة" كما شرعه ليكودغ، وأثينا كما أجازه سقراط ونفذه بنفسه.

وهذا النوع ظاهر في كونه زنى، تأنف منه الحرائـر، وربما كان دليله قول هند عند المبايعة: أو تزنـي الحـرة؟ عندما جاء قوله: "ولا يأتين ببهتـان يفترينـه بـين أيـديهن وأرجلهن". والولد من نكاح الاستبضاع ينسـب للزوجـة لا للرجل الذي استبضعت منه المرأة فالولد عندهم هو للفراش، عند التنازع فإذا كان بعلم صاحب الفراش ورضاه فهو له.

٣- نكاح ما دون العشرة لامرأة واحـدة: وهـو مـا ذكرته السيدة عائشة في حديثها المقدم، وهذا النوع صـورة من صور تعدد الأزواج لزوجة واحدة، ويقول الدكتور علي وافي: يظهر من نص حديث عائشة، وهو: أن يجتمع الرهط ما دون العشرة، إن عدد الرجال الذين كان يباح لهم الزواج بامرأة واحدة وفق هذا النظام ما كان يصح أن يزيـد علـى تسعة، فإن زادوا اعتبرت المرأة بغيا، وطبق عليهـا نظـام البغايا، الذي ذكرته السيدة عائشة في حديثها أيضا، علـى أن



معاشرتهم للزوجة لم تكن دائمة، ولم تكن لها سمة الحياة العائلية.

٤- نكاح البغايا أو البغاء: وهو في حديث عائشة أيضا، وكان منتشرا في الجاهلية وتترتب عليه آثاره من ثبوت النسب إذا ألحقت البغي المولود ببعض من اتصل بها عن طريق القيافة، ومعنى "التاط به" الواردة في الحديث: لصق به ولحقه. جاء في القاموس: التاطه، ادعاه ولد أو ليس له، كاستلاطه والتاط بقلبي ولصق به، وكلا المعنيين محتمل في الحديث.

غير أن التي كانت تقوم بهذه الحرفة الدنيئة هي الأمة، فهو مقصور على الإماء والعرب يمقتون هذا النوع من الاتصال، وما كانوا يبيحون لعربية أن تحترفه، ومن أمثالهم الشهيرة: تموت الحرة ولا تأكل بثدييها، وكانت البغايا يتوارين عن العيون بمنجاة من المدائن والقرى مضارب خيام البادية. وينصبن على بيوتهن رايات تكون آية على مهنتهن ولا يذهب إليهن إلا السفلة، الذين كانوا يترددون عليهن في الظلام، يجرون أطراف مآزرهم وراءهم ليطمسوا آثار أرجلهم على الرمال، ولذلك أطلق على البغايا اسم

"المظلمات" كما يطلق عليهن اسم "المهينات" وكان من جوامع كلمهم في المدح: فلان لا يرضى لمظلمة إزاره.

وظل هذا البغاء موجودا حتى بعد ظهـور الإسـلام، فكان لعبد ا ابن أبي سلول ست جوار مخصصات للبغـاء، وضرب عليهن الضرائب فشكت اثنتان منهن همـا "مسـيكة وأميمة" إلى النبي صلى ا عليه وسلم فأنزل ا قوله تعالى "ولا تكرهوا فتياتكم على البغـاء إن أردن تحصـنا لتبتغـوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن ا من بعد إكـراههن غفور رحيم" النور (٢٣). رواه مسلم عن جـابر. وإكـراه النساء على البغاء محرم مطلقا. سواء أردن التحصـن أم لا، والنص عليه في الآية لبيان الواقع وتسجيل الحادثـة التـي نزلت فيها الآية.

٥- نكاح الشغار: وهو أن يـزوج الرجـل ابنتـه أو موليته لرجل على أن يزوجه هو ابنته وليس بينهما صـداق، وسمي بذلك لخلوه من المهر وعدم معاوضة البضع، مأخوذ لغة من شغر البلد أي خلا من الناس، وليس في هذا النـوع عيب إلا خلوه من الصداق، فهو لا يمس الشرف والعرض، وقد أبطله النبي صلى ا عليه وسلم بقوله "لا شـغار فـي

الإسلام" رواه مسلم عن ابن عمر، والعلة في تحريمه كما قال العلماء أن البضع جعل مقابل البضع، فلم تستفد منه المـرأة شيئًا، وعليه الإمام الشافعي، أما أبو حنيفة فقد أجازه وألـزم كلا بمهر المثل، وحكي ذلك عن عطاء والزهيري والليـث وغيرهم.

وهذا النوع من النكاح موجود في قبائل التنجس شرقي سيبيريا كما ذكره بعض الكاتبين في الاجتماع.

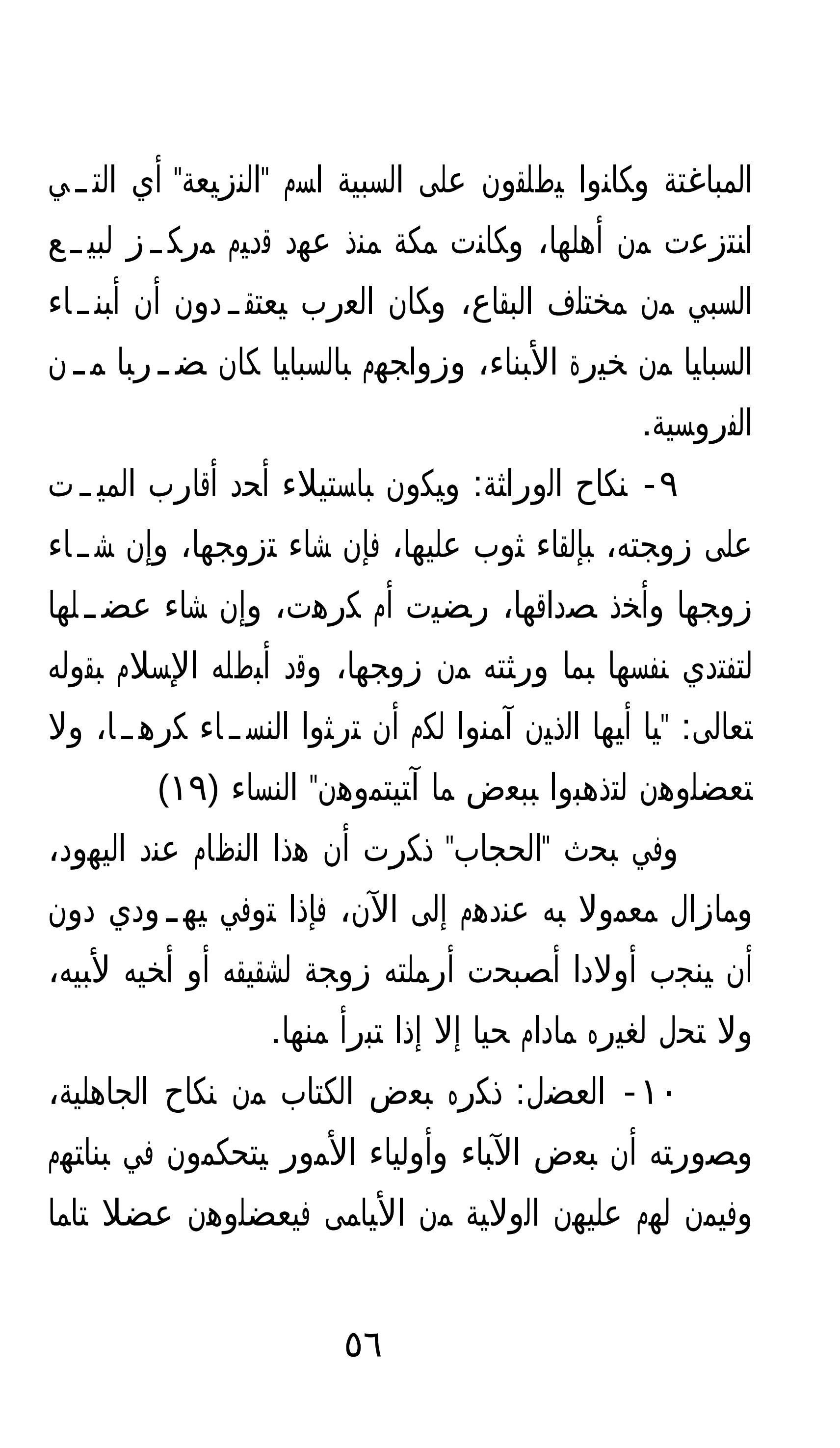
٦- نكاح البدل أو المبادلة: قال ابن زيد: هـذا شـيء كانت العرب تفعله، يقول أحدهم: خـذ زوجتـي وأعطنـي زوجتك، روى الدارقطني عن أبي هريرة قال: كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: انزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي، وأزيدك. فأنزل ا عز وجل "ولا أن تبـدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن". قال: فدخل عيينة بـن حصن الفزاري على رسول ا صلى ا عليه وسلم وعنـده عائشة، دخل بغير إذن، فقال له رسول ا صـلى ا عليـه وسلم: "يا عيينة فأين الاستئذان"؟ فقال: يـا رسـول ا مـا استأذنت على رجل من مضر منذ أدركـت – أي بلغـت – قال: من هذه الحميراء إلى جنبك؟ قال رسول ا صـلى ا

عليه وسلم" هذه عائشة أم المؤمنين" قال أفلا أنزل لك عـن أحسن الخلق؟ فقال: "يا عيينة إن ا قد حرم ذلك" قال: فلمـا خرج قالت عائشة: يا رسول ا من هذا؟ قال "أحمق مطاع، وإنه، على ما ترين، لسيد قومه".

وقد أنكر الطبري أن يكون زواج البدل حـدث عنـد العرب، وحديث عيينة ليس فيه تبديل ولا أراد، وإنما احتقـر عائشة لأنها كانت صبية، فقال هذا القول قال القرطبي: ومـا ذكرناه من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبـي هريرة من أن البدل كان في الجاهلية يدل على خـلاف مـا أنكر من ذلك.

٧- نكاح الخدن: وهو نكاح السر الذي يحـاول فيـه الطرفان ألا يعرفهما أحد، ولعل من عده من نكاح الجاهلية، أخذه من قوله تعالى: "ولا متخـذات أخـدان" النسـاء (٢٥) وقوله "ولا متخذي أخدان" المائدة (٥٠) والخدن هو الصديق، فكانت العلاقة بينهما صداقة لا تحتاج إلى عقد.

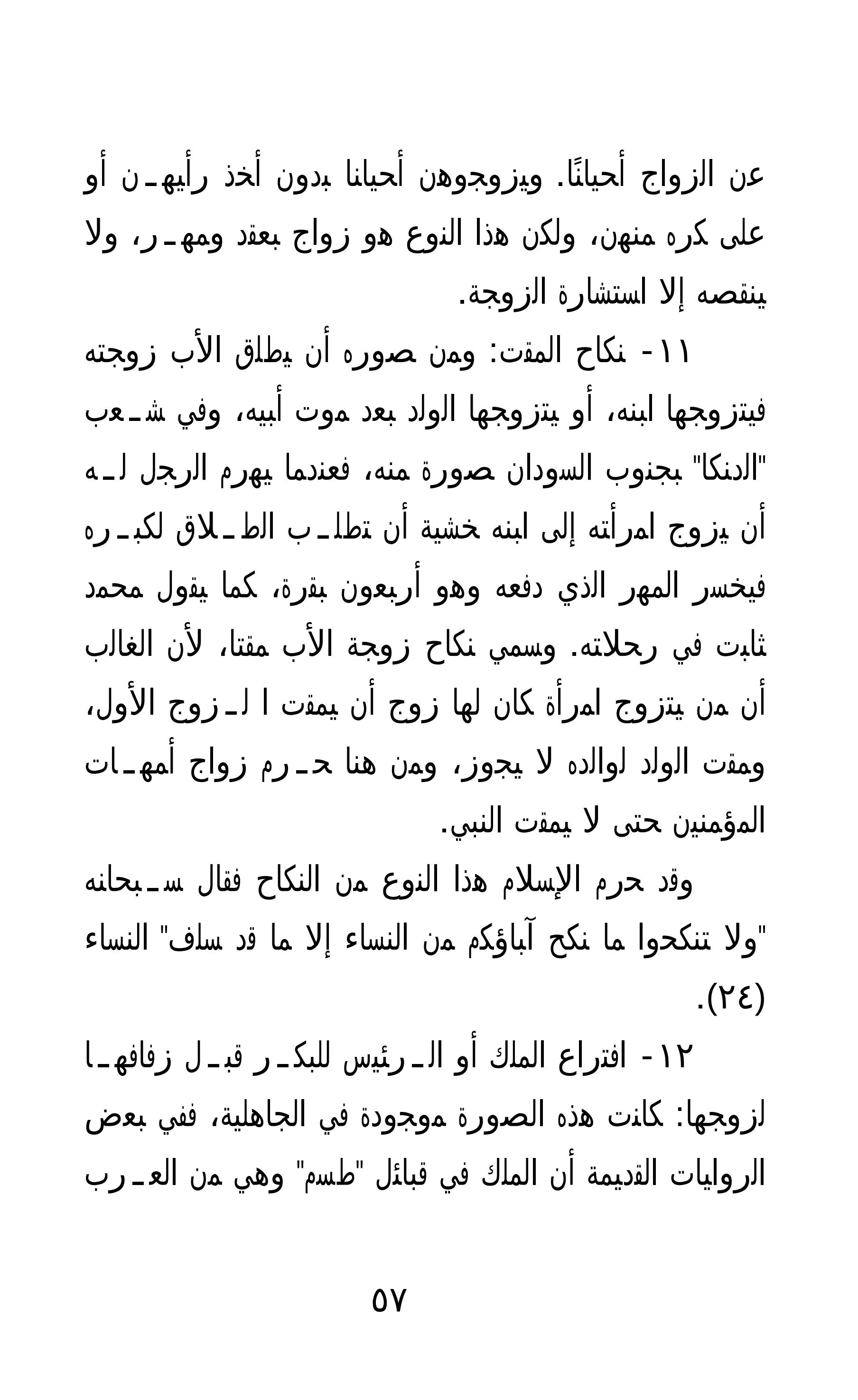
٨- نكاح السبي: ويكون بالاستيلاء على المرأة بالقوة إذا نجح في الانتصار على من يقاومونه، ويعتبر هذا بمنزلة عقد الزواج، سواء أكان في حرب نظامية أم عـن طريـق


المباغتة وكانوا يطلقون على السبية اسم "النزيعة" أي التـي انتزعت من أهلها، وكانت مكة منذ عهد قديم مركـز لبيـع السبي من مختلف البقاع، وكان العرب يعتقـدون أن أبنـاء السبايا من خيرة الأبناء، وزواجهم بالسبايا كان ضـربا مـن الفروسية.

٩- نكاح الوراثة: ويكون باستيلاء أحد أقارب الميـت على زوجته، بإلقاء ثوب عليها، فإن شاء تزوجها، وإن شـاء زوجها وأخذ صداقها، رضيت أم كرهت، وإن شاء عضـلها لتفتدي نفسها بما ورثته من زوجها، وقد أبطله الإسلام بقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لكم أن ترثوا النسـاء كرهـا، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن" النساء (١٩)

وفي بحث "الحجاب" ذكرت أن هذا النظام عند اليهود، ومازال معمولا به عندهم إلى الآن، فإذا توفي يهـودي دون أن ينجب أولادا أصبحت أرملته زوجة لشقيقه أو أخيه لأبيه، ولا تحل لغيره مادام حيا إلا إذا تبرأ منها.

١٠- العضل: ذكره بعض الكتاب من نكاح الجاهلية، وصورته أن بعض الآباء وأولياء الأمور يتحكمون في بناتهم وفيمن لهم عليهن الولاية من الأيامى فيعضلوهن عضلا تاما


عن الزواج أحيانًا. ويزوجوهن أحيانا بدون أخذ رأيهـن أو على كره منهن، ولكن هذا النوع هو زواج بعقد ومهـر، ولا ينقصه إلا استشارة الزوجة.

١١- نكاح المقت: ومن صوره أن يطلق الأب زوجته فيتزوجها ابنه، أو يتزوجها الولد بعد موت أبيه، وفي شـعب "الدنكا" بجنوب السودان صورة منه، فعندما يهرم الرجل لـه أن يزوج امرأته إلى ابنه خشية أن تطلـب الطـلاق لكبـره فيخسر المهر الذي دفعه وهو أربعون بقرة، كما يقول محمد ثابت في رحلاته. وسمي نكاح زوجة الأب مقتا، لأن الغالب أن من يتزوج امرأة كان لها زوج أن يمقت الـزوج الأول، ومقت الولد لوالده لا يجوز، ومن هنا حـرم زواج أمهـات المؤمنين حتى لا يمقت النبي.

وقد حرم الإسلام هذا النوع من النكاح فقال سـبحانه "ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف" النساء (٢٤).

١٢- افتراع الملك أو الـرئيس للبكـر قبـل زفافهـا لزوجها: كانت هذه الصورة موجودة في الجاهلية، ففي بعض الروايات القديمة أن الملك في قبائل "طسم" وهي من العـرب

البائدة كان يفعل ذلك. وتقول الروايـات: إن الفضـل فـي القضاء على هذا النظام هو لفتاة عربية تـدعى "عفيـرة" أو "عفيرة بنت غفار" عظيم قبيلة "جديس" ورئيسها، كما ذكـره الجاحظ في كتابه "المحاسن والأضداد" جـ٢ ص ٦٢، وفيـه تفصيل وشعر كثير، وذكر أن مثل هذا النوع موجـود فـي يهود المدينة، وأورد ذلك صاحب كتـاب "أعـلام النسـاء" وملخص ما ذكر، أنه كان لطسم وجـديس ملـك يقـال لـه "عمليق" ظلوم غشوم، وكانت لا تزف جارية إلى زوجها إلا بدءوه بها فافترعها، وردها إلى بعلها، ويقول الأصفهاني في الأغاني، وياقوت في معجمه عن سبب اتخاذه هذا القرار، أن هزيلة الجدسية الشاعرة طلقها زوجها "ماشق" فتخاصما إلـى عمليق في ولد لهما، فلم يعجبها حكمه، فأنشدت شعرا تذمه، فأمر ألا تتزوج بكر من جديس وتهدى إلى زوجهـا حتـى يفترعها هو، ثم إن رجلا من جديس تزوج عفيرة غفـار أو بنت عباد، ويقال لها: الشوس، وهي بنـت عظـيم جـديس ورئيسها، فلما أرادوا أن يهدوها إلى زوجهـا بـدءوا بهـا عمليق، فلما دخلت عليه افترعها، ثم خلى سبيلها فخرجـت

ووقفت على أخيها الأسود بن غفار، وهو قاعد فـي نـادي قومه، وقد رفعت ثوبها عن عورتها وأنشأت شعرا.

فلما سمعت جديس شعرها. أنفت أنفا شديدا، وأخـذتهم الحمية فتآمروا بينهم وعزموا على اغتيال الملـك وجنـوده، فدعوهم إلى طعام وباغتوهم بالسيوف، ومثل عمليق في عمله هذا "الفطيون" ملك تهامة والحجاز، فإنه أمر ألا تـزف مـن اليهود في مملكته امرأة إلا بدءوه بها، فلبث على ذلك عـدة أحوال، حتى زوجت امرأة من اليهود من ابن عمها، وكانت ذات جمال رائع، وكانت أخت مالك بن عجلان، فلمـا أرادوا أن يهدوها إلى الملك خرجت إلى نـادي الأوس والخـزرج، رافعة ثوبها إلى سرتها، فقام إليها مالك بن العجلان، فقـال: ويحك ما دهاك؟ فقالت: وما يكون من الداهية أعظم مـن أن ينطلق بي إلى غير بعلي بعد ساعة؟ فأنف مـن ذلـك أنفـا شديدا، فدعا ببزة – ثوب – امرأة، ولبسـها، فلمـا انطلقـوا بالمرأة إلى الفطيون صار كواحدة من نسائها اللاتي يـنطلقن بها، متشبها بامرأة، وقد أعد سكينا خلفه، واغتاله عندما أراد أن يختلي بها، واستحث اليهود عليه فقتلوه وجنده، وقيل: قتله "أبو بجيلة" من ملوك اليمن في "حرض" وهـو واد بالمدينـة

عند أحد، ومثل هذه العادة كان لبعض الملوك في أوروبا في العصور الوسطى.

١٣ – نكاح المتعة: وهو زواج مؤقت بـأجر معلـوم يختلف باختلاف المدة، كالصورة المذكورة عنـد الحبشـة، ويقال: إن المتعة لم تكن موجـودة فـي الجاهليـة، ولكـن المسلمين هم الذين طلبوها لظروف الغزو.

**...............

وقد شهدت الحياة الحديثة – ومع سرعة إيقاعها وكثرة أحداثها – ظهور أشكال وأنواع وأسماء من الزواج لم تكـن معروفة من قبل.

وهناك ما يسمى بزواج الشفايف، وهـو مصـطلح([1]) متداول على اعتبار أن الزواج يتم بالشفايف واللسان، وفيـه يقال الآتي: "زوجتك نفسي على سنة ا ورسـوله وعلـى الصداق المسمى بيننا.. وأنا قبلت".

وهذه الكلمات البسيطة، والتي لم تكن تقال إلا بحضور المأذون أصبحت هي الموضة الجديدة من الشباب والفتيـات مؤخرا. ولها عدة أسماء أخرى مثل: زواج الهبة، أو الزواج

---

[1]) مجلة صباح الخير، ٢٨ ديسمبر ١٩٩٨.

الروحاني، أما اللقب الذي يتبادله الشباب بيـنهم فهـو زواج الشفايف.

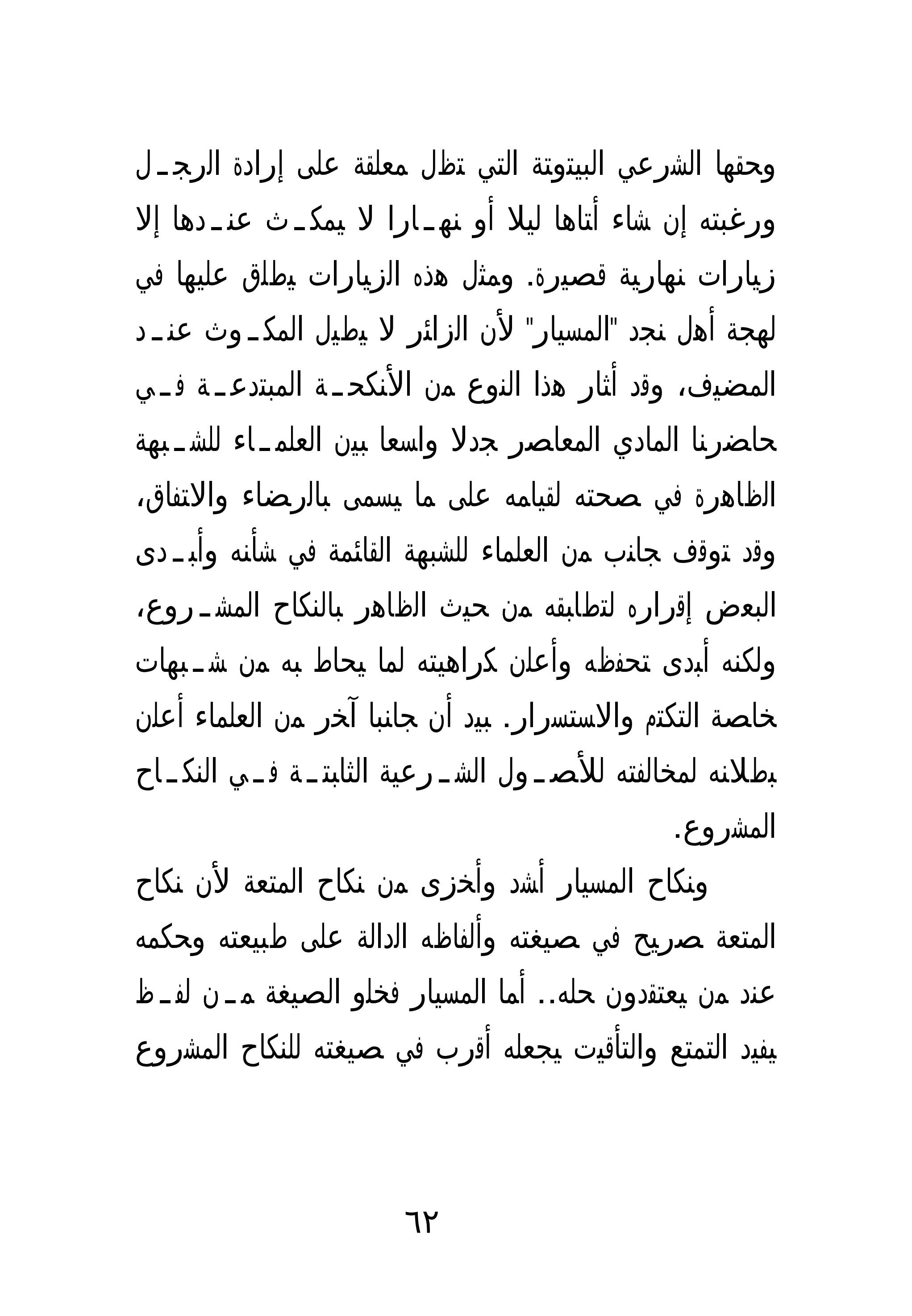
وهناك ما يسمى بزواج الدم. وفيه يقوم الشاب والفتـاة بوخز إصبع السبابة ليخرج منه الدم، ثم يضعان الإصـبعان على بعضهما البعض فيتم الزواج.

ولاشك أن الحكم على مثل هذا التصرف، أو غيره لا يحتاج لتعليق ولا يستحقه من الأصل!!

ويبقى بعد هذا وذاك نكاح أو زواج المسيار.

ومشكلة هذا الزواج([1]) تكمن في صـورته الظـاهرة، والتي تكاد تطابق صورة الزواج المشروع من حيث تـوافر الشروط التي يتطلبها الفقهاء في الصيغة من إيجاب وقبـول وتوافر الشهود. والمهر في هذا النوع من الأنكحة يتحدد تبعا لحال المرأة ثيبا أو بكرا.. صغيرة أم كبيرة.. جميلـة أم لا.. وهو قائم أساسا على الاتفاق بين أطراف هذه العلاقة مع النية المعلنة والمؤكدة بإسقاط ما أوجب ا للمـرأة علـى عـاتق زوجها بمجرد إبرام عقد الزواج – ميثاق النكـاح – النفقـة وإعداد المسكن الشرعي المستقل والذي تأمن فيه على نفسها

([1]) جريدة الحياة، ٥ يونيو ١٩٩٨، د. ملكة يوسف ذرار.



وحقها الشرعي البيتوتة التي تظل معلقة على إرادة الرجـل ورغبته إن شاء أتاها ليلا أو نهـارا لا يمكـث عنـدها إلا زيارات نهارية قصيرة. ومثل هذه الزيارات يطلق عليها في لهجة أهل نجد "المسيار" لأن الزائر لا يطيل المكـوث عنـد المضيف، وقد أثار هذا النوع من الأنكحـة المبتدعـة فـي حاضرنا المادي المعاصر جدلا واسعا بين العلمـاء للشـبهة الظاهرة في صحته لقيامه على ما يسمى بالرضاء والاتفاق، وقد توقف جانب من العلماء للشبهة القائمة في شأنه وأبـدى البعض إقراره لتطابقه من حيث الظاهر بالنكاح المشـروع، ولكنه أبدى تحفظه وأعلن كراهيته لما يحاط به من شـبهات خاصة التكتم والاستسرار. بيد أن جانبا آخر من العلماء أعلن بطلانه لمخالفته للأصـول الشـرعية الثابتـة فـي النكـاح المشروع.

ونكاح المسيار أشد وأخزى من نكاح المتعة لأن نكاح المتعة صريح في صيغته وألفاظه الدالة على طبيعته وحكمه عند من يعتقدون حله.. أما المسيار فخلو الصيغة مـن لفـظ يفيد التمتع والتأقيت يجعله أقرب في صيغته للنكاح المشروع

عند من يلتزمون بقياس عقد الزواج على البيـوع وشـبهها وهذا ما أوقع البعض بالتصريح بجوازه.

ولا نجد لهذا النوع من النكاح شبه دليل شرعي واحـد يصح القول به وإنما هو نمط من الأنكحة نجد أصـلها فـي أنكحة اليهود والتي اقتلع الإسلام جذورها.. فلا تلزم الديانـة اليهودية الرجل بإعداد مسكن الزوجية المستقل بل للرجل أن يأتيها في بيت أهلها (سفر القضاة الإصـحاح ١/١٥ وسـفر الخروج الإصحاح ١٨/٤- ٢٠ كذلك التكـوين الإصـحاح ٦٧/٢٤).

ونكاح المسيار مجرد مخادنة لا يصححها الاتفاق على إسقاط ما أوجب وأحل ا برضاء الولي والمـرأة ذلـك لا ينقض بطلانه فلو أن الرضاء يحل حراما لأحل الربا برضاء طرفيه، ولأحل الزنا بالاتفاق عليه وهذا ما لم تختلف الأمـة على تحريمه.

**....................

كان للزواج أسماء، وأنواع اختلفـت وتعـددت عبـر تطور حياة الإنسان.

ورغم اختلاف الأسماء وتعدد الأنواع.. إلا أنه بقي هناك دائما زواج واحد – فقط – هو الذي يتوافق مع تعاليم الأديان، وعادات الناس، وقيم المجتمع.

ومع الزواج الرسمي.. المشروع.. المعترف به. كانت هناك أنواع أخرى من الزواج، لكنها لا تحظى بالقبول والاعتراف.

الزواج الرسمي هو دائما الأكثر انتشارا، وهو وحده الذي لا تخجل الناس منه أو تداريه.

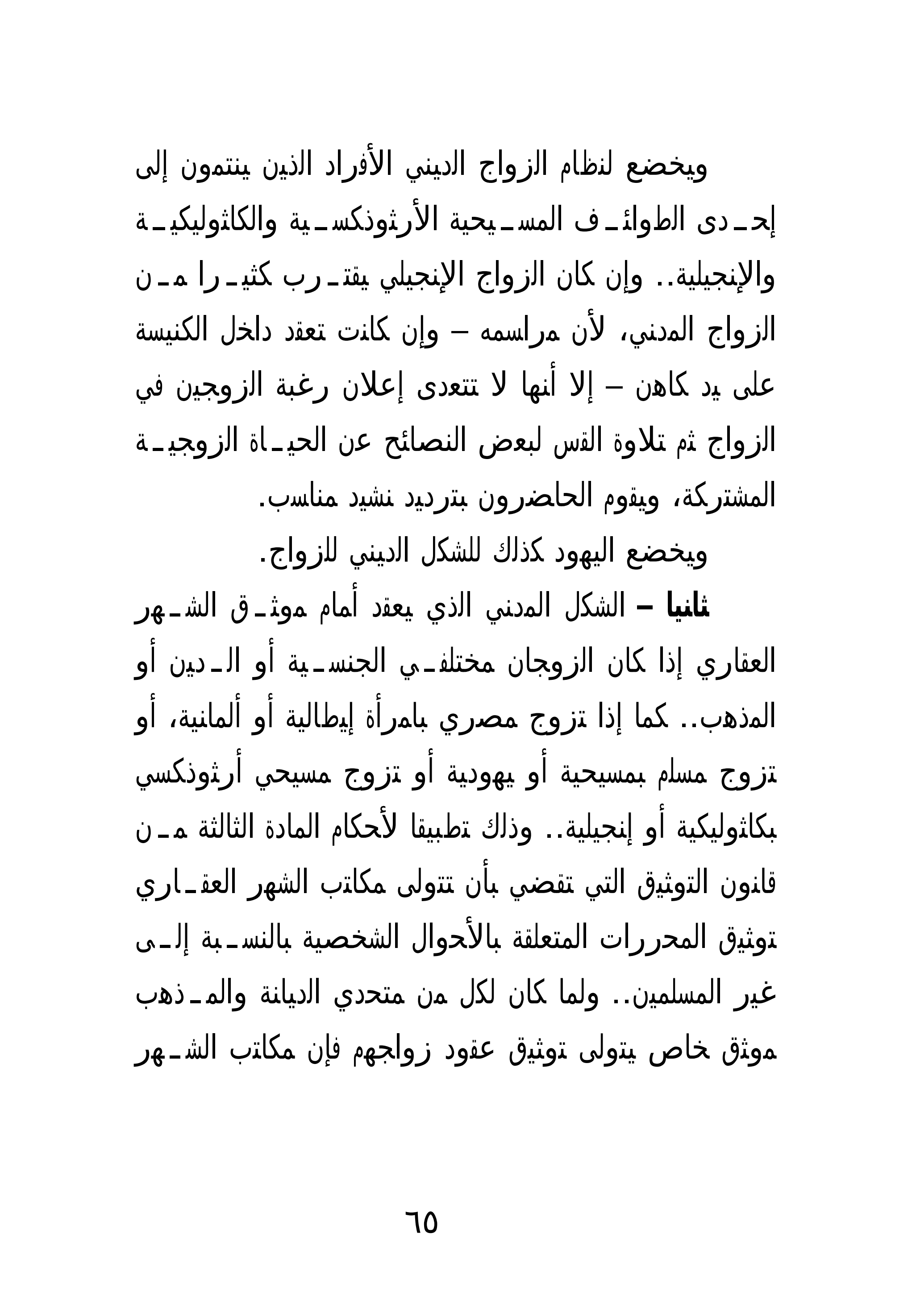
والزواج الرسمي قد يتخذ عدة أشكال وفقا لطبيعة الأشخاص واختلاف الديانة أو الجنسية.

وأشكال الزواج في المجتمع المصري الحديث هي([١]):

أولا - الشكل الديني وهو المتخلف عن احتفالات المعابد الفرعونية والإغريقية والرومانية التي ورثتها الكنيسة المسيحية عندما حاول روادها الأوائل التوفيق بين التعاليم الجديدة التي يبشرون بها وبين العقائد والعادات التي كان يمارسها المصريون والإغريق والرومان.

---

[١]) الزواج في المجتمع المصري الحديث، عادل أحمد سركيس، ص ٢٢٨ – ٢٣٠.



ويخضع لنظام الزواج الديني الأفراد الذين ينتمون إلى إحدى الطوائف المسيحية الأرثوذكسية والكاثوليكية والإنجيلية.. وإن كان الزواج الإنجيلي يقترب كثيرا من الزواج المدني، لأن مراسمه – وإن كانت تعقد داخل الكنيسة على يد كاهن – إلا أنها لا تتعدى إعلان رغبة الزوجين في الزواج ثم تلاوة القس لبعض النصائح عن الحياة الزوجية المشتركة، ويقوم الحاضرون بترديد نشيد مناسب.

ويخضع اليهود كذلك للشكل الديني للزواج.

ثانيا – الشكل المدني الذي يعقد أمام موثق الشهر العقاري إذا كان الزوجان مختلفي الجنسية أو الدين أو المذهب.. كما إذا تزوج مصري بامرأة إيطالية أو ألمانية، أو تزوج مسلم بمسيحية أو يهودية أو تزوج مسيحي أرثوذكسي بكاثوليكية أو إنجيلية.. وذلك تطبيقا لأحكام المادة الثالثة من قانون التوثيق التي تقضي بأن تتولى مكاتب الشهر العقاري توثيق المحررات المتعلقة بالأحوال الشخصية بالنسبة إلى غير المسلمين.. ولما كان لكل من متحدي الديانة والمذهب موثق خاص يتولى توثيق عقود زواجهم فإن مكاتب الشهر

العقاري لا تباشر اختصاصها هذا إلا في حالة اختلاف ديانة أو مذهب الزوجين.

ولما كانت قنصلية الدولة التي يتبعها الزوجان هي المختصة بعقد زواجهما فإن مكاتب الشهر العقاري لا توثق إلا عقود زواج مختلفي الجنسية.

ثالثا – الشكل المختلط المدني والديني.. وهو الزواج الذي يعقده المأذون الشرعي فعقد الزواج وإن كان مدنيا إلا أن موثقه له الصفة الدينية.. ويخضع لهذا النظام جميع المسلمين في المجتمع المصري والعربي، حتى عند اختلاف المذاهب.

رابعا - الزواج العرفي..

ودون الدخول في تفاصيله.. كان من الضروري أن أتوقف عند هذه النقطة.. لأن الزواج العرفي هذا هو محور القضية وأساسها، وقد آن الأوان للبدء في مناقشته واقتحام مملكته!

الفصل الثالث

الزواج العرفي..

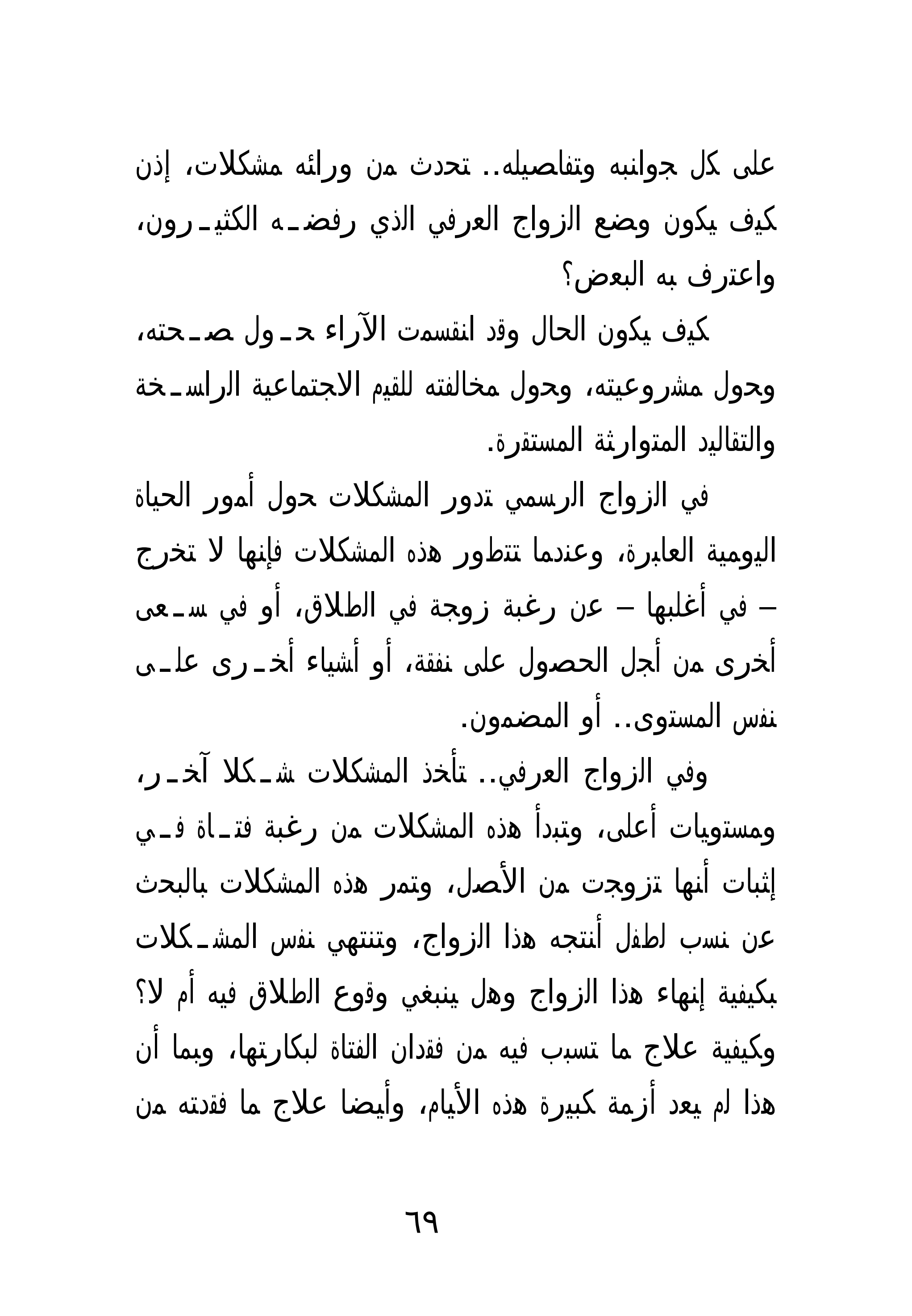
من الألف إلى الياء

سئلت مفيدة عبد الرحمن – وهي أقدم محامية في مصر وثاني سيدة تحترف مهنة المحاماة بعد نعيمة الأيوبي – كيف ترين ظاهرة الزواج العرفي التي انتشرت بين الفتيات والشباب هذه الأيام؟

فأجابت – وهي المهتمة في عملها بقضايا الأحوال الشخصية عبر أكثر من ٦٠ عاما – وقالت بالحرف الواحد: الزواج العادي مشكلاته لا حصر لها.. فما بالك بالزواج العرفي ومشكلاته من إثبات نسب وضياع حقوق وغيرها.

مفيدة عبد الرحمن، التي كانت – وقت أن قالت هذا الكلام – تبلغ الرابعة والثمانين من عمرها، عبرت عن رؤية تستحق كل الاحترام والتقدير، رؤية لا يمكن الاختلاف معها أبدا إلا إذا كان صاحب "الرأي" الآخر له "مصلحة" مع الزواج العرفي.

المحامية المخضرمة – التي اختارها الرئيس جمال عبد الناصر لتكون عضوا بمجلس الأمة عام ١٩٦٠ – لخصت مجمل تجربتها في تلك المقارنة المعبرة التي أوضحت الفارق الشاسع بين الزواج الرسمي والزواج العرفي!! فالزواج الرسمي الذي اتفقت عليه الدنيا، وأجمعت


على كل جوانبه وتفاصيله.. تحدث من ورائه مشكلات، إذن كيف يكون وضع الزواج العرفي الذي رفضـه الكثيـرون، واعترف به البعض؟

كيف يكون الحال وقد انقسمت الآراء حـول صـحته، وحول مشروعيته، وحول مخالفته للقيم الاجتماعية الراسـخة والتقاليد المتوارثة المستقرة.

في الزواج الرسمي تدور المشكلات حول أمور الحياة اليومية العابرة، وعندما تتطور هذه المشكلات فإنها لا تخرج – في أغلبها – عن رغبة زوجة في الطلاق، أو في سـعى أخرى من أجل الحصول على نفقة، أو أشياء أخـرى علـى نفس المستوى.. أو المضمون.

وفي الزواج العرفي.. تأخذ المشكلات شـكلا آخـر، ومستويات أعلى، وتبدأ هذه المشكلات من رغبة فتـاة فـي إثبات أنها تزوجت من الأصل، وتمر هذه المشكلات بالبحث عن نسب لطفل أنتجه هذا الزواج، وتنتهي نفس المشـكلات بكيفية إنهاء هذا الزواج وهل ينبغي وقوع الطلاق فيه أم لا؟ وكيفية علاج ما تسبب فيه من فقدان الفتاة لبكارتها، وبما أن هذا لم يعد أزمة كبيرة هذه الأيام، وأيضا علاج ما فقدته من

براءة وحياء.. وهذا ما لا يمكن تعويضه أو استرجاعه مهما كان الثمن ومهما كانت المحاولات...

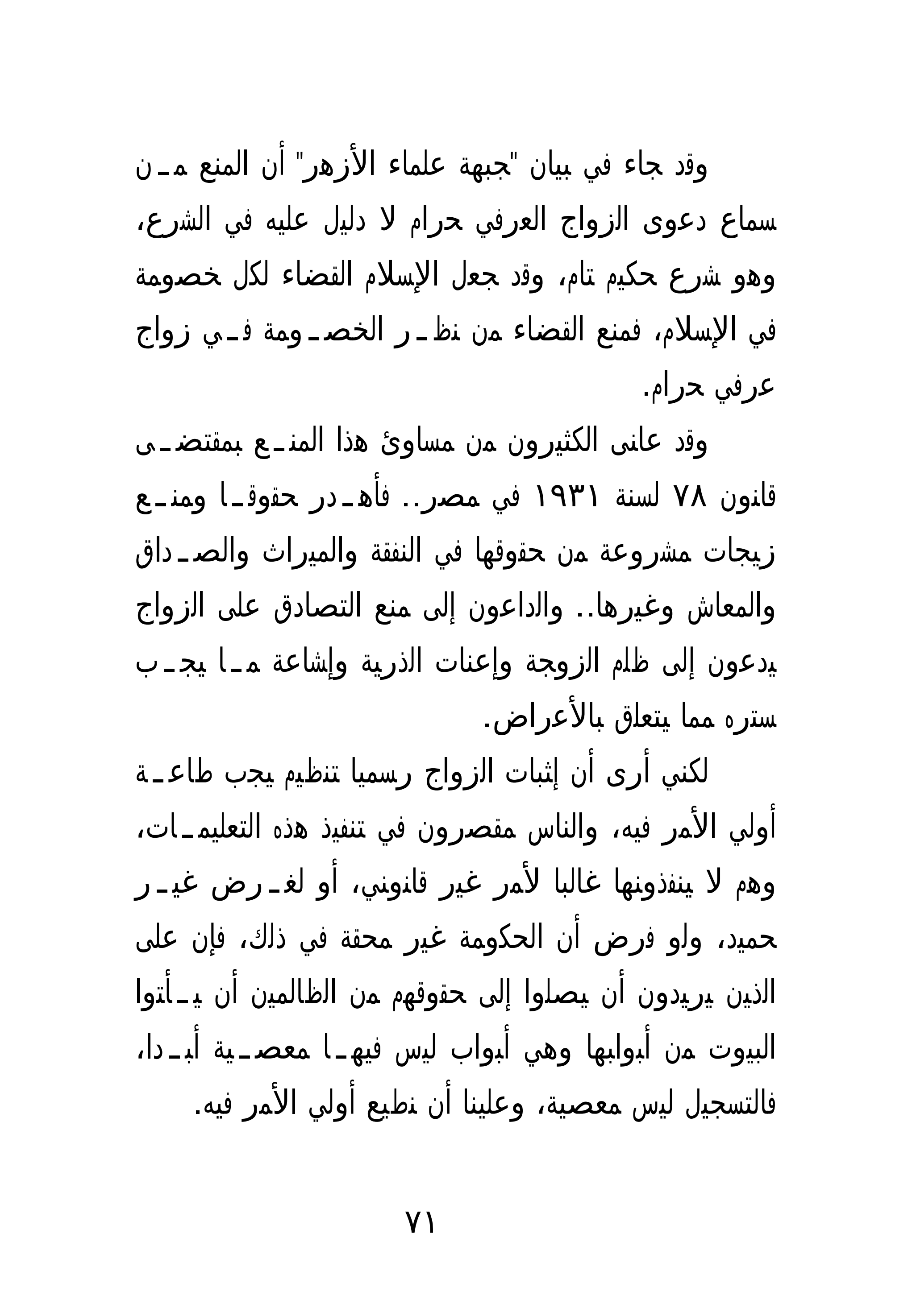
**.........................

وقبل أن أخوض في مثل هذه التفاصيل يهمني أولا أن أتوقف أمام تعريف الزواج العرفي، وهو أمـر أراه مهمـا وضروريا لأن تعريف هذا النوع من الزواج يثيـر اختلافًـا شديدا، وبناء على هذا الاختلاف تتباين الآراء والأحكام لنجد من يرى أنه مقبول اجتماعيا، وجائز شرعا، ويمكن الأخـذ به. في مقابل من يرى أنه مرفوض ومحرم وأن من يريـد الزواج حقًا فليتزوج كما يتزوج – أو كما تـزوج – النـاس كلهم.. أي الزواج عند المأذون.

يقول الشيخ عطية صقر([1]): هناك زواج يعرف لـدى الناس باسم الزواج العرفـي، وهـو زواج مسـتكمل لكـل شروطه، لكنه لم يسجل في سجلات الحكومـة لأمـر مـن الأمور، كالحفاظ على معاش الأرملة الـذي ينقطـع عنهـا بزواجها، وهذا الزواج صحيح شرعا، لكن الحكومة لا تسمع الدعوى به.

---

[1]) الأسرة تحت رعاية الإسلام، ص ٢٤٢ – ٢٤٣.

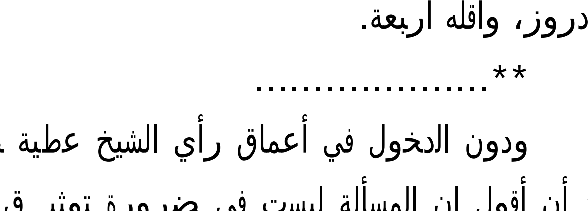


وقد جاء في بيان "جبهة علماء الأزهر" أن المنع من سماع دعوى الزواج العرفي حرام لا دليل عليه في الشرع، وهو شرع حكيم تام، وقد جعل الإسلام القضاء لكل خصومة في الإسلام، فمنع القضاء من نظر الخصومة في زواج عرفي حرام.

وقد عانى الكثيرون من مساوئ هذا المنع بمقتضى قانون ٧٨ لسنة ١٩٣١ في مصر.. فأهدر حقوقا ومنع زيجات مشروعة من حقوقها في النفقة والميراث والصداق والمعاش وغيرها.. والداعون إلى منع التصادق على الزواج يدعون إلى ظلم الزوجة وإعنات الذرية وإشاعة ما يجب ستره مما يتعلق بالأعراض.

لكني أرى أن إثبات الزواج رسميا تنظيم يجب طاعة أولي الأمر فيه، والناس مقصرون في تنفيذ هذه التعليمات، وهم لا ينفذونها غالبا لأمر غير قانوني، أو لغرض غير حميد، ولو فرض أن الحكومة غير محقة في ذلك، فإن على الذين يريدون أن يصلوا إلى حقوقهم من الظالمين أن يأتوا البيوت من أبوابها وهي أبواب ليس فيها معصية أبدا، فالتسجيل ليس معصية، وعلينا أن نطيع أولي الأمر فيه.

غير أنه إذا تبين للحكومة صحة ما يدعيه الزوجان بغير طريق التسجيل فالواجب قبول الدعوى وترتيب آثارها عليها. وبهذا يجب أن تستكمل القوانين لتشمل مثل هذه الوقائع، لا أن تحصر الرسميات في التوثيق الكتابي. بل يكون التوثيق توكيدا للأصل وهو الشهادة، وهو ما قاله العلماء في كتابة الدين لتقوى بها شهادة الشهود، بناء على أن الأمر بالكتابة للإرشاد، فإن كان للوجوب، فهل يثبت الدين بشهادة الشهود عند عدم الكتابة أو لا يثبت؟ فيه خلاف للعلماء، والإشهاد على الزواج سنة عند الشيعة، وواجب عند الدروز، وأقله أربعة.



**....................

ودون الدخول في أعماق رأي الشيخ عطية صقر لا بد أن أقول إن المسألة ليست في ضرورة توثيق الزواج باعتبار أن في هذا طاعة لأولي الأمر. بل لأن كل من يتزوجون عرفيا في السنوات الأخيرة يفعلون ذلك من أجل هدف محدد ووحيد، ولا شيء سواه. ولذلك فإن مسألة معرفة أحد به أو توثيقه.. لا تهم هؤلاء ولا تعنيهم. وربما لو ذكر

أحد سيرتها أمامهم لأصابتهم الحساسية، واجتاحهم الضـيق من مثل هذه المعاني.. وهذه الأفكار.

إن المقصود بالزواج العرفي – أو غيـر الموثـق إذا جاز لي التعبير – أن تتوافر كل أركانـه دونمـا اسـتثناء.. شهود.. وولى.. الكل يعرف بهذا الزواج.. والكل يباركـه. والكل على استعداد لتحمل تبعاته ونتائجه. الشـيء الوحيـد الذي ينقصه هو التوثيق في السجلات، ويكون التغاضي عن هذا الجانب راجعا مثلاً إلى رغبة السيدة في الاحتفاظ بمعاش تحصل عليه ولا تريد له أن ينقطع، وبهذا فهو زواج كامل لم تأخذ به الحكومة خبرا. ومثل هذا الزواج – هذه الأيام – لا يمثل إلا نسبة ضئيلة للغاية من حـالات الـزواج العرفـي، والباقي يقع بين الشباب – وأيضا الكبار – من أجل الجـنس فقط!

وهذا تعريف آخر.. وضع الـزواج العرفـي ضـمن أشكال الزواج العرفي في المجتمع المصري الحديث وهو ما سبق الإشارة إليه في نهاية الفصل السابق.

يقول التعريف: الزواج العرفي[1].. هو الـذي ينعقـد بتراضي الطرفين وقبولهما الزواج أمام شاهدين دون إفراغه في شكل رسمي أو إجراء مراسم معينة.. فالأصل في العقود أنها تنعقد بمجرد التراضي فلا تحتاج إلى أشكال خاصـة أو مراسم معينة تنعقد بها. أما عقد الزواج فلا يكفـي لانعقـاده مجرد التراضي ذلك أن عقد الزواج من العقود الشكلية فـي القانون المصري.. فقد تطلب القانون لانعقاد العقد إفراغه في الصورة الرسمية، وعلى ذلك فإن التراضي وحـده – طبقـا للنظرية الشكلية – لا يكفي ويكون الزواج غير منعقد أصلا.

ولكن القضاء المصري اعتـرف بـالزواج العرفـي واعتبره مانعا شرعيا يوجب المؤاخذة الجنائية في حالة زواج المرأة زواجا ثانيا.. تأسيسا على أن "الزواج فـي الشـريعة الإسلامية هو عقد يتم برضاء الطرفين وبإيجاب من أحدهما وقبول من الآخر وينعقد صحيحا إذا توافرت فيـه شـروط الصحة وكانت الزوجة محلا للعقد عليها بألا تكون محرمـة على الزوج تحريما مؤبدا أو مؤقتًا.. فإذا ما ثبت قيام هـذه الزوجية اعتبر الزواج قائما وصحيحا ولا يشترط لصحته من

---

[1]) الزواج في المجتمع المصري الحديث، عادل أحمد سركيس، ص ٢٢٩.

الوجهة الشرعية إثباته بطريق التوثيق.. لأن الإثبات بطريق التوثيق المعمول به في مصر إنما وضع فقط لقيد الزواج والاستدلال به عند قيام النزاع بين الزوجين ورفع الدعاوى المترتبة عليه من نفقة أو حضانة أو غيرها.

ويلجأ الأفراد إلى الزواج العرفي في عدة حالات أظهرها ثلاث:

الأولى – زواج الأرملة التي يصرف لها معاش.. وذلك تهربا من أحكام الفقرة الأولى من المادة التاسعة والعشرين من المرسوم بقانون رقم ٣٧ لسنة ١٩٢٩ التي تقضي بقطع المعاش عن الأرامل إذا تزوجن. (ملاحظة: أدخلت بعض التعديلات على هذه المادة. لكنها ظلت تدور في نفس المعنى).

الثانية – زواج المسلمة بغير المسلم تهربا من الأحكام الخاصة بشروط صحة الزواج الشرعي حيث تتطلب أن تكون الزوجة محلا للعقد غير محرمة على الزوج تحريما مؤبدا أو مؤقتًا، وقد حرمت الشريعة الإسلامية – طبقا للرأي المعمول به – زواج المسلمة بغير المسلم.

الثالثة – زواج ضرورة تمارسه فئة من النساء تعـيش على هامش الحياة الفنية في المجتمع المصري والعربي على أمل أن يشق هذا الزواج لهن الطريق إلى المجد والشهرة في السينما والمسرح والإذاعة والتليفزيون.. وكثيرا مـا يـؤدي بهن إلى كباريهات الدرجة الثالثة وبيوت الدعارة.

اختلفت الصورة كثيرا في الواقع العملي الآن ولم يعد الزواج العرفي يتم لهذه الأسباب. ولعله في حالة حدوثه فإنه لا يمثل إلا نسبة ضئيلة.

**....................

وإذا جاز لي أن أتوقف أمام هذا التعريف فـإنني لـن أقول سوى أن الواقع في العقد الأخير من القرن الماضـي – عقد التسعينيات – شهد انفجار بركان الزواج العرفي في غير كل تلك الحالات الثلاث السابقة. وأصبح الأغلب يحدث بـين طلبة وتلاميذ في المدارس والجامعات. ولم يكن وراء النزوع للزواج رغبة في الاستقرار أو بناء أسرة. إنما كانت هنـاك "رغبة جنسية" هي التي تحرك كل شيء وتتحكم فيه، وبعـد أن تنقضي الرغبة ويتم إشباعها – من فتاة بعينهـا – تبـدأ

المشكلات والأزمات في الظهور. ويصبح ما تم في السر.. مكشوفا – أحيانًا – أمام الناس في العلن.

وبذكر السر والعلن يبدو من الضروري أن نقرأ هذه الكلمات التي كتبها الأديب الكبير إحسان عبد القدوس وتحدث فيها عن الزواج العرفي والفارق بينه وبين الزواج الرسمي، موضحا رؤيته الخاصة في هذا الموضوع، وهي تحت عنوان: نصف الزواج[1]. وفيها يقول: ليس هناك نصف زواج أو ربع زواج.. هناك زواج أو لا زواج.. وحكمة الزواج الأولى: الإشهار.. إشهار علاقة رجل بامرأة.. أي مواجهة المجتمع بالعلاقة بين الاثنين.

ويتساوى في هذا الزواج الشرعي والزواج العرفي. فالزواج الشرعي الذي لا يتوافر فيه عنصر الإشهار.. أي الذي يتم في السر.. ويبقى سرا.. لا يعتبر زواجا حتى ولو اعترفت به الدولة..

والزواج العرفي الذي يعلن للناس، يعتبر زواجا كاملاً.. حتى لو لم تعترف به الدولة..

---

[1]) أيام شبابي، المكتب المصري الحديث، ص ٦٤ – ٦٦.

المهم هو الإشهار.. هو العلانيـة.. هـو أن يعـرف المجتمع أن هذه المرأة أصبحت لهذا الرجل، حتى يحـدد – أي المجتمع – نظرته لهما، وتصرفاته حيالهما، ويرتب لهما الحقوق الاجتماعية ويعترف بأولادهما.. فالزواج أساسا، هو تنظيم اجتماعي لعلاقة الرجل المرأة..

بل إن بعض المجتمعات اضـطرت تحـت ظـروف خاصة، أن تعترف بعلاقة الرجل بالمرأة، بلا زواج، مادامت هذه العلاقة قد أقيمت في العلن، وتوفر فيها عنصر الإشهار.

وقد قال لي صديق عاد أخيرا من الأرجنتين، إن الناس هناك متدينون أشد التدين.. والدين يحرم الطـلاق تحريمـا مطلقًا.. ويحدث أحيانا أن يستحيل على الزوجين الاسـتمرار في حياتهما الزوجية.. فينفصلان.. ينفصلون بلا طلاق.. ثم يبقى كل منهما في حاجة إلى نصف آخر.

وكل منهما لا يستطيع أن يتزوج مرة أخرى.. وتكون النتيجة أن تتخذ الزوجة المنفصلة عشيقا.. ويتخـذ الرجـل المنفصل عشيقة.. ومع الزمن تعددت هذه الحـالات حتـى شملت عددا كبيرا من الناس.. وأصبحت تتم في العلن.. في مواجهة الناس.. أصبحت المرأة المتزوجة المنفصلة تعـيش

مع عشيقها حياة كاملة.. وأصبح الزوج المنفصل يعيش مـع عشيقته حياة كاملة.. وتطورت التقاليد – تحت إلحاح الحاجة – فبدأ المجتمع يعترف بهذه الأوضـاع.. وأصـبح يعامـل الرجل وعشيقته، أو المرأة وعشيقها كأنهما زوجـان.. بـل اعتبرهما زوجين.. أصبح المجتمع يدعوهما إلـى الحفـلات الرسمية والخاصة.. ويعترف بأولادهما كأولاد شـرعيين.. و.. و.. إلى آخر الحقوق التي يمنحها المجتمع لكل زوجين.

فحتى هذه العلاقة التي لا تقوم على أساس من الدين أو الشرع قد أقرها المجتمع، لأنها نتيجة حاجة اجتماعية، ولأنها تقوم على أساس الإشهار.. العلانية! ومجتمعنا لا يمكـن أن تقوم فيه مثل هذه العلاقة لأن ديننا يبيح الطلاق..

ولكن.. مجتمعنا أصيب في السنوات الأخيـرة بوبـاء الزواج في السر سواء كـان زواجـا شـرعيا أو عرفيـا.. والأسباب التي تدفع الزوجين إلى الاحتفاظ بزاوجهما سرا.. كثيرة.. قد يكون الزوج متزوجا من أخرى، ويخاف منهـا.. أو قد تكون الزوجة لها معاش حكومي، تركه لها زوج آخر، ولا تريد أن تحرم منه.. أو.. أو.. ومثل هـذا الـزواج، لا يعتبر زواجا.. لا أمام ا ، ولا أمام الناس..

الزواج هو الإشهار..

وكل علاقة لا يتوافر فيها الإشهار.. أو العلانيـة. لا تعتبر زواجا.. ولا يترتب عليها حقوق اجتماعية.. حتى لـو ترتبت عليها كل الحقوق المدنية..

**.......................

لقد كتب الراحل الكبير إحسان عبـد القـدوس هـذه الكلمات قبل ما يقرب من خمسين عاما. ومـع ذلـك كـان الزواج العرفي ينتشر – على حد رؤيته – كالوباء. فما بالنا بالحال الآن وقد تعددت أسبابه ودوافعه. ولم يعـد المعـاش الحكومي. أو الخوف من الزوجة الأولى هي أهم الأسـباب كما كان الأمر من قبل.

الكلمات مضى عليها كثير من الوقت.. لكن هـذا لـم يمنع من تركيز الكاتب على جانب "الإشهار" الـذي يعتبـره أساس الزواج، ولا زواج بدونه. وعلى ذلك لـم يتـزوج أي ممن أقدموا على تجربة الزواج العرفي لأن الجميـع دونمـا استثناء يريدون إتمام كل شيء.. في السر، وفـي الظـلام، وبعيدا عن أعين الناس ويريدون أن يقنعـوا أنفسـهم بأنـه "زواج"!!

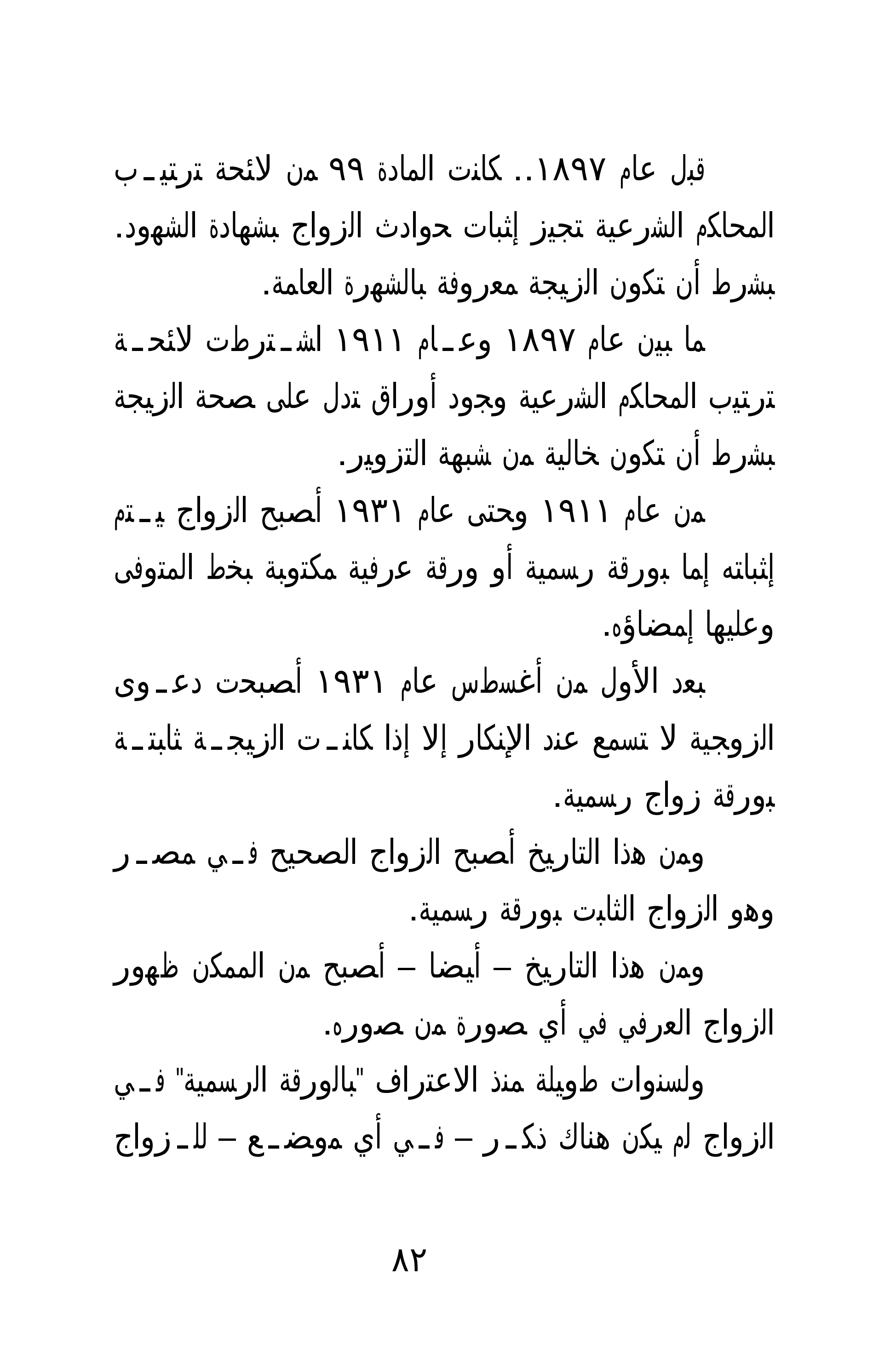
والآن.. وبعد أن وصلنا إلى هذا الواقع بكل ما يحمله من تفاصيل.. لا بد أن يقفز السؤال المهم عن تطور "الظاهرة" وكيف بدأ الزواج العرفي؟! ومتى؟! وأيضا.. لماذا؟

إجابة السؤال بالقطع ليست سهلة ولا بسيطة لأن الظواهر الاجتماعية لا تعرف التواريخ المحددة، أو المواعيد القاطعة، وهي تظل لوقت طويل تتفاعل وتنمو دون صخب أو إعلان ثم تظهر أمام الناس في النهاية بهيئتها الأخيرة المفزعة.

ولهذا السبب لم يتمكن أحد – رغم محاولات دراسة الظاهرة ومعالجتها كثيرا – من رصد بداية الزواج العرفي وشرارته الأولى.

ولكن.. تظل مجموعة من الحوادث والملامح والأحداث والتواريخ والوقائع التي يمكن أن ترسم لنا صورة تمثل ملامح الحقيقة التي نبحث عنها..

وأتوقف أولا أمام هذه التواريخ..


قبل عام ١٨٩٧.. كانت المادة ٩٩ من لائحة ترتيـب المحاكم الشرعية تجيز إثبات حوادث الزواج بشهادة الشهود. بشرط أن تكون الزيجة معروفة بالشهرة العامة.

ما بين عام ١٨٩٧ وعـام ١٩١١ اشـترطت لائحـة ترتيب المحاكم الشرعية وجود أوراق تدل على صحة الزيجة بشرط أن تكون خالية من شبهة التزوير.

من عام ١٩١١ وحتى عام ١٩٣١ أصبح الزواج يـتم إثباته إما بورقة رسمية أو ورقة عرفية مكتوبة بخط المتوفى وعليها إمضاؤه.

بعد الأول من أغسطس عام ١٩٣١ أصبحت دعـوى الزوجية لا تسمع عند الإنكار إلا إذا كانـت الزيجـة ثابتـة بورقة زواج رسمية.

ومن هذا التاريخ أصبح الزواج الصحيح فـي مصـر وهو الزواج الثابت بورقة رسمية.

ومن هذا التاريخ – أيضا – أصبح من الممكن ظهور الزواج العرفي في أي صورة من صوره.

ولسنوات طويلة منذ الاعتراف "بالورقة الرسمية" فـي الزواج لم يكن هناك ذكـر – فـي أي موضـع – للـزواج

العرفي، وربما أنه كان موجودا، لكن وجوده لم يكن بالحجم أو العدد الذي يجعل منه ظاهرة يتحدث عنها الناس فيسجلها التاريخ بشكل أو آخر.

التاريخ سجل حالة زواج عرفي في الأربعينيات من القرن الماضي.. وربما أن تسجيل التاريخ لها كان له ما يبرره. فقد كانت الزوجة فيه هي الملكة نازلي – زوجة الملك فؤاد وأم الملك فاروق – والزوج هو أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي.

الزواج استمر عدة سنوات. وانتهى رسميا في ١٩ فبراير عام ١٩٤٦. يوم أن توفي أحمد حسنين باشا في حادث سيارة مروع فوق كوبري قصر النيل.

وهذه هي حكاية فيها الكثير من التفاصيل الدقيقة التي تبدو ظاهريا بلا أهمية لكنها هامة وضرورية لإثبات وتوضيح موضوع الزواج العرفي. الملكي جدا.

الحكاية جاءت ضمن مذكرات[1] كريم ثابت المستشار الصحفي للملك فاروق. وقال فيها بالحرف الواحد:

---

[1]) الملك فاروق كما عرفته – مذكرات كريم ثابت – آخر ساعة ١ ديسمبر ١٩٩٩.

أقلقني جرس التليفون الرابض بجوار سريري.. وإذا فاروق نفسه ينبئني بعبارات مقتضبة سريعة، أن سيارة حسنين – أحمد حسنين رئيس الديوان الملكي – اصطدمت بسيارة على كوبري قصر النيل، وأن حسنين أقرب إلى الموت منه إلى الحياة!..

ثم طلب مني أن ألتقي به في مستشفى "الأنجلو أميركان" بالجزيرة، وكانوا قد حملوا إليها رئيس الديوان لقربه من مكان الحادث..

ولما بلغت المستشفى قيل لي إن حسنين أسلم الروح، وإنهم نقلوا جثمانه إلى داره بالدقي، وإن الملك ذهب إليها ليودعه الوداع الأخير ويواسي أهله..

وفي الدار قيل لي إن الملك حضر، وانصرف.. فجلست مع بعض مساعدي حسنين، وكانوا قد هرعوا إلى بيته عند سماعهم بالحادث فقصوا علي تفاصيله..

وكان حسنين مدعوا إلى الغداء عند الأستاذ الظاهر حسن المحامي، ولكنه اتصل به تليفونيا في موعد الدعوة، ورغب إليه في تأجيلها إلى المساء فتكون عشاء بدلا من

غداء، لأنه يشعر بشيء من التعب ويريد أن ينام قليلا في فترة الغداء!..

وهكذا عدل حسنين خط سيره في اللحظة الأخيرة.. كأنما كان على موعد مع الموت في الطريق الذي يؤدي إلى بيته!..

**..................

وبينما كنت أستمع إلى بقية التفاصيل دخل علينا فاروق، وكان بادي الانزعاج، فأخلوا الحجرة وتركونا وحدنا، فعزيته، فقاطعني بقوله: لقد جمعت بنفسي كل أوراقه الخصوصية هنا وفي عابدين قبل أن تمتد إليها يد! واسترعى انتباهي اهتمامه بجمع كل أوراقه الخصوصية بنفسه عقب الوفاة مباشرة، وحرصه على أن يكون ذلك أول ما يكلمني عنه في تلك الدقيقة.

ثم لاحظت أنه يتحسر على رائده ولا يذكر رئيس ديوانه بعبارة واحدة تنم عن حزنه، وبينما كنت أتوقع أن أسمع منه كلمة في رثائه، قال: تركنا وإحنا في عز الشغل!.

ولم يقل: ونحن في حاجة شديدة إليه.. أو على الأقل: ونحن في حاجة إليه.. بل قال: تركنا وإحنا في عز الشغل!..

كأنه كان يلوم حسنين على الوقت الذي اختاره لأجازته.. أو رحلته!.

وبعد قليل أنعم على اسمه بالوشاح الأكبر من نيشـان محمد علي!.

وفسر الناس هذا التكريم لرئيس ديوانه بعد وفاته بأنـه تحية لإخلاصه وتقدير لخدماته.. أما هو فقال لكي يتمكنـوا من تشييع جنازته عسكريا!.

خيل إلي ساعتئذ أن "الملك" يكرم ذكرى رائده ورئيس ديوانه لكي يثني للناس على وفاته!.

أما "فاروق" الرجل فلم يذرف عليه دمعة واحدة!..

**......................

بدا لي من بعض الدلائل أن فاروق الرجل ارتاح إلـى رحيله!!.

فإنه بعدما أنعم على اسمه بالنيشان الذي يمكـن مـن تشييع جنازته عسكريا، بعدما اطلـع علـى بعـض الأوراق المرفوعة إليه من الديوان الملكي، غادر القصـر بسـيارته الخاصة، واصطحبني معه.

ولما رأيته متجها إلى كوبري قصر النيل تبـادر إلـى ذهني أنه عائد إلى دار الفقيد ليكرر عزاءه لأهله ومواسـاته لهم في مصابهم، فإذا هو عند وصولنا إلـى بدايـة شـارع الجيزة يمضي فيه ولا يعرج على "الدقي" ولما بلـغ نهايتـه سلك طريق الهرم، وأطلق العنان، فظننت أنه يلتمس الترويح عن نفسه بنزهة في الهواء الطلق.. كنت في ذلك الحين اعتقد أنني "عرفت" فاروق، وأحطت بأحواله وأطواره..

ولكن ما حدث بعد توغلنا في طريق الهرم أظهر لـي أنني لازلت بعيدا عن معرفته وفهمه وأننـي قـد لا أفهمـه أبدا!.. إذ ما كاد يقترب من "أوبرج الأهرام" حتى خفف مـن سرعة السيارة فجأة، وقبل أن أسأله عما ينوي عمله، عـرج عليه، وأوقف السيارة أمام بابه!.

ودخلت المكان في أثره وأنا أقول في نفسي: إذا كـان قد جاء إلى "الأوبرج" ليلة وفاة حسنين فما عساه فاعلا ليلـة وفاتي!.

وكان نبأ مصرع حسنين قد ذاع في العاصـمة، فلمـا رآنا الذين كانوا يتعشون في "الأوبرج" في تلـك الليلـة لـم

يصدقوا أعينهم، وقرأت فـي نظـراتهم سـؤالا كنـت أول الحائرين في الإجابة عنه..

وماذا كان في وسعي أن أقول في تبرير، أو تفسـير، ذهاب الملك إلى مكان عام تعزف فيـه الموسـيقى ويـدور الرقص.. بينما رائده ورئيس ديوانه مسـجى علـى فـراش الموت!

ولعل الشعور الذي استولى علي في تلك الساعة كـان في ضحى العوامل التي زادتني عزوفا عن المنصب الـذي كان يريد تقليدي إياه في القصر!

وعلى أنغام الموسيقى جلس فاروق الرجل يحدثني عن مأساة أخرى من مآسي القصر.. واستهل حديثه بقوله: لا بد أن هناك "مأتما" آخر الليلة في "الدقي"!..

وكانت الملكة السابقة نازلي منذ خلافها تقيم في الـدار التي كانت لوالدها في "الدقي"..

ولم أعقب على عبارته..

وكأنما خشي ألا أكون قد أدركت معنى إشارته فقـال إنني أتكلم عن الوالدة "الملكة نازلي والدة فاروق" ثم قال: من حسن الحظ أن كل شيء قد انتهى الآن!.

وللمرة الأولى منذ نشوء معرفتنا لم أجد كلمة واحـدة أقولها.. ماذا كان يمكنني أن أقول في هذه الموقف؟..

وتركته يتكلم.. فتكلم، وتكلم طويلا!..

وكان مما قاله أن أمه دخلت عليه يوما ومعها حسنين، وقالت له باسمه إنهما يستأذنانه في عقـد زواجهمـا "فطـار عقلي وهجمت على حسنين وصفعته على وجهه بكل قوتي، ثم طردتهما من حجرتي وأنا ألعنهما شر لعنة"! وفـي مـرة أخرى لم أستطع تحمل ما يجري تحت سقف القصـر الـذي مات فيه والدي فأصدرت أمري إلى الخدم بأن يلقوا بفـرش حجرة حسنين في حديقة القصر"!..

وبعدما ذكرني بظروف طلاق حسنين مـن زوجتـه الشرعية بعد ما ذاقت المر من علاقته بأمي" قـال: "ولـذلك كان أول ما عملته اليوم بعـد وفاتـه أن جمعـت أوراقـه الخصوصية بنفسي خوفًا من أن يكون فيها شيء يتصل بهذه الفضيحة فيقع في يد غريبة"!..

وقيل إنه عثر بين تلك الأوراق على عقد زواج عرفي "بين حسنين ونازلي" ولكنه لم يطلعني عليه على كل حال".

وأردت أن أسأله: وكيف احتفظت به في قصرك ولماذا أبقيت عليه؟

بل أردت أن أسأله أكثر من سؤال واحد!. ولكن كيف أسأله؟ لم يكن يكفيني الحرج الذي كنت به وأنا أصغي إلى ما كان يقصه علي؟

ثم إذا هو يطرق من تلقاء نفسه موضوع السؤال الأول من غير أن أسأله إياه فيقول: ولكني كنـت مضـطرا إلـى الاحتفاظ بحسنين.. كان يعرف طبيعتي وأخلاقـي.. وكـان يعرف سياستي وأسراري.. وكان يعرف دخـائلي وشـئوني الخاصة. وكنت في البداية محتاجا إليه في عملي، ثم لم أعـد في حاجة إليه، ولكني كنت قد اعتدت العمـل معـه، وكـان يريحني، فظل في خدمتي بقوة الاستمرار ولاسيما أنه كـان في عمله مطيعا ومؤدبا!.

وعاد فكرر معاني هذا الجزء مـن حديثـه بعبـارات أخرى، وألفاظ أخرى، وختمه هذه المرة بقوله: وقد كنت أنا في الواقع الرئيس الفعلي للديوان.. ولذلك لن أستعجل وأعين رئيسا جديدا للديوان الآن!..

ولما أنهى حديثه انصرفنا مـن "الأوبـرج" حتـى إذا أشرفنا على كوبري الجلاء اتجه إلى اليسـار وبعـد دقيقـة واحدة كنا أمام دار حسنين.. فقـد أراد فـاروق "الملـك" أن يراجع بنفسه نظام جنازة رائده ورئيس ديوانـه!.. وعرفـت الصحف ما جرى في دار الفقيد.. ولم تعرف ما جرى فـي "أوبرج الأهرام"!.

ونام فاروق في تلك الليلة وهو يعتقد أن انتهاء علاقـة أمه بحسنين تعوضه عما خسر بوفاة رائده ورئيس ديوانه!..

فإذا نازلي بعد وفاة حسنين تسافر إلى أوربا وتسـافر إلى أمريكا!!!..

وإذا فاروق يقول يوما لنجيب سالم (نـاظر الخاصـة الملكية) وحسن يوسف (رئيس الديوان الملكي بالنيابة) وكاتب هذه السطور: "لو رأيت أمي الآن لضربتها بالرصاص!"..

وبعد وفاة حسنين بأكثر من سنتين كنـت والـدكتور يوسف رشاد بصحبة فاروق في سيارته الخاصة، ولما بلغنـا ميدان كوبري الجلاء "شاهدنا تمثال المرحوم أحمـد مـاهر (باشا) وكان قد نصب في ذلك المكان من يومين ولم يـزح عنه الستار بعد"..

وسألنا فاروق قائلاً: تمثال من هذا؟

فقال يوسف رشاد: إما أحمد ماهر يا أفنـدم أو أحمـد حسنين..

وكان بعضهم قد اقترح يومئذ في الصحف إقامة تمثال لأحمد حسنين..

فقال فاروق موجها إلي الكلام: إذا كان هـذا التمثـال لأحمد حسنين فاعمل ترتيبك لإزالته في الحال!.

ولما قلت له إنه تمثال أحمد ماهر قال: في هذه الحالة سيبقى!.

**....................

بقي سؤال واحد، وهو كيف سكت فاروق على علاقة أمه بحسنين؟.

وللرد على ذلك أنه سكت عليها فـي بـادئ الأمـر مكرها.. سكت عليها مكرها لأنها أمه، ولأنه كان يعرف حدة طبعها وتطرف نزواتها، فخاف أن يستفزها خشية أن تثيـر فضيحة علنية يستغلها الوفد، ويسـتغلها كيلـرن، ويسـتغلها خصومه جميعا، فسكت عليها صاغرا!..

هذه هي البداية..

أما فيما بعد فقط لاحظ فاروق أن أمه ورائده يقلـلان من ملاحظاتهما على بعض أعماله وتصرفاته وأنهما لأجـل ضمان رضائه وعدم إغضابه يغضان الطرف عن نزواتـه ومغامراته، فأخذ يتغاضى عن غرامهما من جهتـه وكانـت أخبار هذا الغرام تبلغه تباعا من بعض خدمـه وصـديقاته.. وساد بينهما مبدأ المثل العامي القائل "شيلني وأشيلك"!..

ولم يعد فاروق يحفل بمواعظ رائده ورئـيس ديوانـه واستخف بأمه فلم يعد يحسب لها حسابا فكانت علاقته بالنبيلة التي أشعلت نار خلافه مع زوجته فريدة اسـتهلالا لعشـرة المحظيات والخليلات، وقضاء الليل في الأماكن العامـة، أو حول المائدة الخضراء في الأندية والمجتمعات.

وعرف رائده ورئيس ديوانه أخبار مغامراته النسـائية وحياته الليلية العلنية وهي في بدايتها، وكان الوحيـد الـذي يستطيع لاعتبارات شتى أن يكبح جماح استهتاره وانزلاقـه، وخصوصا لو استعان بما كان لأمه من سلطات عليه، ولكنه أغفل واجباته وتهاون في تبعاته، لا عن جهل بل عن عجز، وكيف لا يعجز وقد أضحى عشيق أمه!!

وكيف يستعين بالأم على ابنها، والابـن يعلـم أنهـا أضحت خليلة لرائده ورئيس ديوانه!..

وهكذا اشترى فاروق سكوتها على مسلكه بسكوته على علاقتهما!! واشترى الرائد والأم سـكوته علـى غرامهمـا بسكوتهما على حياته الخاصة!.

فأي فساد كان فاروق بعد ذلك في حاجة إلى تعلمـه، وقد ترعرع في محيط لا يرى فيه سوى النميمـة والوشـاية والتآمر والتجسس والرياء والكذب والنفاق فإذا ارتقى العرش وأطل على حياته الجديدة كان منظر امـرأة مرتميـة فـي أحضان رجل أول ما أبصر!..

وكان اسم المرأة نازلي، وكانت أمه..

وكان اسم الرجل حسنين، وكان رائده ومستشاره.

**......................

وفي وسط هذا الجو، كان الزواج العرفي موجودا.

وهو ليس زواجا عاديا بين رجل وامرأة من العامـة. بل هو زواج على أعلى مستوى. أو عند المستوى الأعلـى باعتبار أن الدماء الملكية تجري في أوصال أحد أطرافه.

ومادام هذا الزواج كان موجودا فوق "القمة". فلابد أنه كان موجودا عند كل ما دون هذه القمة من درجات وشرائح اجتماعية وصولاً إلى القاع.

كل وثائق هذه الفترة لا تشير إلى أحـداث أو وقـائع ترتبط بعلاقة ما بالزواج العرفي، وربما أن عدم تداول الكلام حول هذا الموضوع يرجع في المقـام الأول إلـى طبيعـة المجتمع المصري في تلك الفترة، والذي كـان يتسـم بأنـه مجتمع محافظ شديد التمسك بالعادات والتقاليد والقيم.

وبقيام ثورة يوليو ١٩٥٢.. أخذت كثير مـن الأمـور المستقرة في حياة المصريين في التغير، ولم يعد هناك شـيء فوق التناول، أو المناقشة، أو حتى العرض على المـلأ دون مواربة أو خجل.

وعلى ذلك.. لم يكن غريبا أبدا أن تقفز أخبار "الزواج العرفي" إلى صفحات الجرائد، وتتداول القضـية فـي عـدة صور – وبالأخص في النصف الثاني مـن الخمسـينات – ويصفه البعض بأنه بدعة! ويكتم الـبعض عنـه موضـحا وشارحا، ويكتب البعض عنه مهاجما وناقدا، ثم يأتي وقـت تصدر فيه أحكام وقرارات تثير الجدل. مثل قـرار مجلـس

الدولة[1]) الذي اعتبر الزواج العرفي كالزواج الرسمي تماما!.

وكانت إدارة المعاشات قد بعثت إلى المجلس تستفتيه.. هل من حق الزوجة أن ترث في مكافأة زوجها الموظف إذا كان زواجه منها عرفيا. وهل من حق أولادها الذين أنجبتهم منه نتيجة لهذا الزواج العرفي أن يرثوا أيضا؟! وكان هذا الاستفتاء بمناسبة وفاة أحد الموظفين بعد أن ترك زوجتين أحداهما تزوجها بورقة عرفية.. والثانية بعقد رسمي.. وكانت المشكلة التي تواجه إدارة المعاشات هي.. أي الزوجتين أحق بمكافأة الزوج؟

وقد أصدر مجلس الدولة فتوى تقول: "إن المقصود بأرملة الموظف هي زوجته المتوفى عنها والتي كان قرانه عليها بعقد صحيح نافذ. وحيث إنه من المقرر أن الزواج يتم بالتراضي وأن الكتابة ليست شرطا من شروط الصحة والنفاذ فإن عقد الزواج يظل صحيحا نافذا مادامت قد توافرت أركانه ولو لم يحرر في وثيقة رسمية.. ومن ثم فإن الزوجة تستحق نصيبها الشرعي في ميراث زوجها. كان مثل هذا

---

[1]) جريدة الأهرام، ٢٣ سبتمبر ١٩٥٩.

القرار سببا في إثارة زوبعة بين الناس.. وخاف الرجال على أنفسهم وخافت السيدات أيضا.. وكان لكل طرف حجته.([1])

قال الرجال: إن أي رجل لن يأمن على نفسه بعد اليوم وخصوصا إذا كان غنيا، إذ من الممكن أن تطمع أية امـرأة في ثروته فتزور عليه ورقة زواج عرفية وقالت السـيدات: إنهن لن يأمن على أزواجهن بعد هذه الفتوى.. إذ سيصـبح الأمر سهلا على كل زوج أن يبحث عن سيدة لها إيراد ثابت وبخاصة إذا كان معاشا عن زوج سابق.. لكـي يتزوجهـا عرفيا.. ولن تتحرج أو تمتنع أية سيدة عن هذا النـوع مـن الزواج مادام قد أصبح في نظر المحاكم كالرسمي تمامـا.. وتظل تتقاضى معاشا وهي متزوجة.. وليس ببعيد أن تطالب بمعاش من الزوج الثـاني إذا تـوفي هـو الآخـر! وقـال المسئولون في مجلس الدولة كلمتهم في الفتوى لكي يطمـئن الرجال والسيدات.. قالوا إنها فتوى غير ملزمة لا للمجلـس ولا للجهة التي طلبتها.. ولن تصبح سابقة يعول عليها.

**...................

---

[1]) جريدة الأهرام، ٢٦ سبتمبر ١٩٥٩.

وفي كل الأحوال.. لم تكن فتوى مجلس الدولة سـببا في تشجيع البعض على الزواج العرفي، لأنه على ما يبـدو كان هناك كثيرون قد خاضوا التجربة للدرجة التـي جعلـت مجلة الجيل تكتب في ديسمبر من عام ١٩٥٧ عن قصـص المآسي التي حدثت.. والسبب عقد عرفي!

وقالت في تحقيق مطول إن الزواج العرفـي صـفقة عاطفية.. الزوجة فيها هي الخاسرة دائما. بينما هـو عنـد الرجل عقدة مفكوكة يسهل الخلاص منها!

وقالت: "لا".. كلمة واحدة من حرفين ليس في اللغـة أسهل منها نطقا.. يقولها الرجل أمام زوجته العرفيـة فـإذا بالحلم الوردي ينقلب إلى كابوس.. قالها مئات الرجال لمئات النساء بعد زيجات عرفية حصـلوا خلالهـا علـى المتعـة المسروقة في ظلام السرية والكتمان!

وقالت: مئات الصور من هذه الزيجات العرفية الفاشلة تضمنتها ملفات ودوسيهات المحـاكم، ومحاضـر البـوليس والنيابة.. وآلاف غيرها رأت صاحباتها أن يتجنبن الفضائح في ساحة القضاء! وهي زيجات طابعها الاحتيال على القانون

الوضعي، للتهرب من أحكامه بالتمسح في أحكـام الشـريعة وقواعد الدين..

**.......................

ويستمر الحديث عن قضـية الـزواج العرفـي فـي الستينيات وتصدر محكمة القاهرة للأحوال الشخصية([1]) مبدأ قانونيا قالت فيه: إن العقد العرفي لا قيمة له أمام المحكمة.. وهو ليس مصدرا لإثبات النسب.

وكانت سيدة قد رفعت دعوى أمام المحكمة تطالب فيها بإلزام زوجها بنفقة لها ولمولودهـا منـه.. وقالـت السـيدة للمحكمة إنها تعرفت بالموظف الكبير صـدفة.. وتطـورت علاقتهما.. فتزوجها بعقد عرفي. وبعد عـام مـن الـزواج وضعت مولودا منه.. وقـدمت العقـد العرفـي للمحكمـة واستشهدت بجيرانها فأيدوها على أنها وضعت مولودها وهي تعيش مع زوجها..

وقضت المحكمة برفض الدعوى.. وقالت: إن العقـد العرفي. لا قيمة له إلا بين الزوجين.. لأنه يحـدد العلاقـة بينهما. أما أمام المحكمة.. فلا قيمة له.. ولا يصح الاحتجاج

([1]) جريدة الأخبار، ٢٤ يونيو ١٩٦٢.

به على ثبوت النسب.. ومادام هذا العقد.. يعتبر مـن حيـث الإثبات كأن لم يكن.. فإن نسب المولود لا يصح إثباتـه إلا بإقرار الأب نفسه.. هذا الإقرار بمثابة اعتراف قاطع.

**..................

وهكذا ظلت قضية الزواج العرفي تطل برأسها علـى المجتمع في كل وقت!.

أحيانا تحدث وقائع يتكلم عنها الناس ويروون تفاصيلها فيما بينهم..

وأحيانا تصدر قرارات أو أحكام تخص حالة بعينها. أو مشكلة بذاتها..

وكان من بين تلك القرارات والأحكام فتـوى مجلـس الدولة عام ١٩٦٦ بقطع المعاش نهائيا عمـن يثبـت أنهـا تزوجت عرفيا.. حتى إذا تم طلاقها بعد ذلك.

ويستمر مسلسل الحديث عن الـزواج العرفـي فـي السبعينيات.. وفي النصف الأول من عقد الثمانينيات، ولكـن بشكل أقل كثافة ووضوحا عما كان عليه من قبـل، وكـذلك عما أصبح عليه فيما بعد.

ففي النصف الثاني من الثمانينات أخذ الزواج العرفـي يزداد في معدلاته، ويعود من جديد للظهـور فـي أروقـة المحاكم. وكانت أبرز الأحكام في تلك الفترة مـا أصـدرته محكمة القاهرة للأحوال الشخصية التي رفضت إثبات الزواج وإعطائه الحماية القانونية إذا أنكره أحد من الزوجين.

وقبل أن يسدل الستار على الثمانينيات أخـذ الـزواج العرفي بعدا جديدا عندما تحول إلى نشاط مـنظم لممارسـة الدعارة بعد أن تم ضبط شبكة للزواج العرفي الوهمي تديرها "قوادة" من الجمالية، وعاطل، وسائق، وبعض العاملين فـي شركات للسياحة.

وفي التسعينيات.. دوت أصداء الزواج العرفي في كل مكان!!

وانعقدت الندوات لمناقشة الموضوع الظاهرة!

وتكلم رجال الدين وقال كل واحد منهم كلمته.

وأجريت الدراسات لتحديد المسببات، ورصـد الأمـر على حقيقته، واقتراح العلاج.

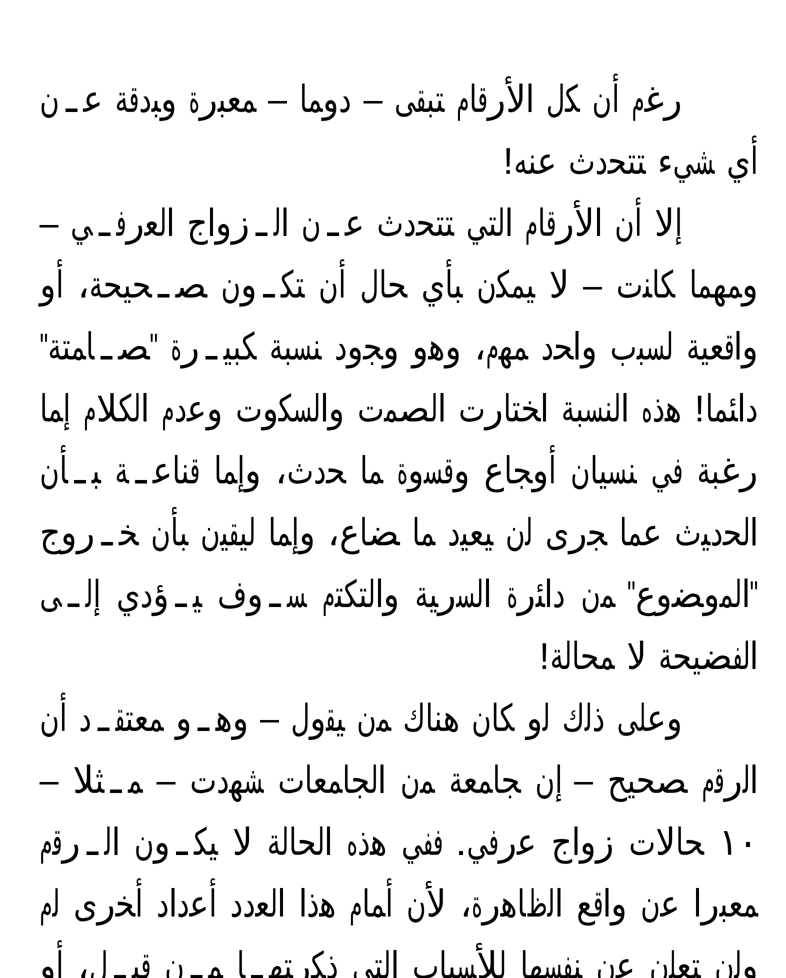
وأبدى القائمون على القانون والمتخصصون فيه آرائهم وفقا للبنود والنصوص الرسمية.

وصدرت أحكام وقرارات للفصل في نزاع أو مشـكلة على إثبات نسب طفل، أو توثيق زواج.

لقد كان الكل يعبر عن مشكلة قائمة بالفعل تورط فيها شباب وفتيات من تلاميذ المدارس وطلبة الجامعات.. وأيضا رجال وسيدات سبق لهن الزواج وقـرروا خـوض تجربـة جديدة.. ولكن في السر والخفاء!

الفصل الرابع

عندما تتكلم الأرقام



رغم أن كل الأرقام تبقى – دوما – معبرة وبدقة عن أي شيء تتحدث عنه!

إلا أن الأرقام التي تتحدث عن الزواج العرفي – ومهما كانت – لا يمكن بأي حال أن تكون صحيحة، أو واقعية لسبب واحد مهم، وهو وجود نسبة كبيرة "صامتة" دائما! هذه النسبة اختارت الصمت والسكوت وعدم الكلام إما رغبة في نسيان أوجاع وقسوة ما حدث، وإما قناعة بأن الحديث عما جرى لن يعيد ما ضاع، وإما ليقين بأن خروج "الموضوع" من دائرة السرية والتكتم سوف يؤدي إلى الفضيحة لا محالة!

وعلى ذلك لو كان هناك من يقول – وهو معتقد أن الرقم صحيح – إن جامعة من الجامعات شهدت – مثلا – ١٠ حالات زواج عرفي. ففي هذه الحالة لا يكون الرقم معبرا عن واقع الظاهرة، لأن أمام هذا العدد أعداد أخرى لم ولن تعلن عن نفسها للأسباب التي ذكرتها من قبل، أو لأسباب أخرى خاصة جدا قد تتعلق بكل حالة على حدة.

وفي كل الأحوال تبقى الأرقام المتاحة – بهذه الوسيلة أو تلك – كافية للحديث عن الظاهرة واليقين على وجودها وانتشارها الواضح.

تقول الأرقام المتداولة وسط الشباب[1] إن جامعة القاهرة بها ٣ آلاف حالة زواج عرفي، وإن جامعة الإسكندرية تمثل القمة ويزيد العدد فيها عن ٤ آلاف حالة، إلى جانب جامعة عين شمس التي يصل فيها العدد هي الأخرى إلى ٣ آلاف حالة تقريبا.

كانت ملامح ازدياد معدلات الزواج العرفي قد بدأت في الظهور مع بداية التسعينيات من القرن الماضي، وأشار البعض إلى أن ملامح الزيادة راحت تتجسد في جوانب عديدة منها انخفاض[2] عقود الزواج الرسمية من ١٥١٠٦ عام ١٩٩١ إلى ١٢٢٠٣ عام ١٩٩٢. وهذا الانخفاض كان راجعا إلى الزواج العرفي ولجوء الكثيرين إليه وترك الزواج الرسمي.

---

[1]) جريدة الجمهورية، ١٠ ديسمبر ١٩٩٨.

[2]) جريدة السياسي المصري، ٣١ يناير ١٩٩٣.

ومن الأرقام المهمة في هذا الشأن ما توصـلت إليـه الباحثة الاجتماعية ليلى وفيق في البحث الذي أجرته[1] على ٥١٠ طلاب وطالبات من مختلف قطاعات التعليم الجـامعي في مصر، حيث سجلت حدوث ٣١ حالة زواج عرفـي أي بنسبة (٦,٠٧) من إجمالي العينة. كما سجلت ظهـور هـذا الزواج بوضوح بين طلبة المدن الحضرية بنسبة تصل إلـى (٨٦,٩) أي ٢٦ حالة، والباقون وهم نسبة (١٣,١%) يمثلون طلبة الريف وهم في الأساس طلبة مغتربـون عـن أمـاكن إقامتهم الأصلية.

كان من نتائج بحث ليلى وفيق أيضا وصـولها إلـى حقيقة أن الظاهرة تزداد في القاهرة، ثم الإسكندرية، ومـدن القناة، والدلتا، وأخيرا الصعيد.

الباحثة عند تعليقها على هذه النتائج قالت إن مثل هـذا النوع من الزواج يعد من العلاقات الخفيـة التـي يصـعب الوصول إليها، كما أن هذا النوع لا يكون في الغالب سـهلا في الكشف عنه.

---

[1]) مجلة آخر ساعة، ١٦ أبريل ١٩٩٧.

وهناك دراسة أخرى([1]) قامت بها الباحثة أميرة عبـد الرحمن محمد بكلية الاقتصاد والعلـوم السياسـية. جامعـة القاهرة وشملت مائتين من الشباب والشابات وتوصلت فيهـا إلى أن ٥٩% من بنات مصر لا يعرفن مـا هـو الـزواج العرفي؟ وهل هو حلال أم حرام. وأن رفض الأهل أحد أهم أسباب انتشار هذه الظاهرة، وأن ٧٢% من الشباب يرفضون الزواج العرفي، وأن ٥٩% من الذكور يعتقدون أن الـزواج العرفي حلال، و٥٩% من الإناث يعتبرنه حرام.

عينة البحث – التي تتراوح أعمارها ما بـين الثامنـة عشر والثلاثين – أبدت رأيها في مسـألة انتشـار الـزواج العرفي من عدمه. وقال ٥٤% من الذكور إنه منتشر، وقالت ٢٧% من الإناث بأنه منتشر، بينما رأت ١٨% مـنهن أنـه غير منتشر، أما النسبة الباقية وهي ٥٥% فلا يعرفن. وهذه النسبة تعد كبيرة.

كانت هناك نتيجة في غاية الأهمية وهي أن متوسـط الحالات التي كان يعرفها كل مبحوث فـي العينـة هـي ٣ حالات وهذه النسبة في رأي الباحثة تعد نسبة كبيرة.

---

[1]) مجلة نصف الدنيا، ١١ أبريل ١٩٩٩.

وإلى جانب تلك الأرقام كانت هناك إحصاءات تقـول أن ٣٠% من البلاغات[١] المقدمة للنيابة العامة بشان الزواج العرفي كانت من طلبة الجامعات والمعاهد العليا، وكان سبب البلاغات يدور حول حدوث حـالات حمـل، أو محـاولات إجراء عمليات إجهاض.

ومن الأرقام الأخرى في هذا الشأن ما يقول إن عـدد الحالات[٢] التي تم الإبلاغ عنها عام ١٩٩٦ كانت ١٦ حالة وفقا لما قاله رجال الحرس الجامعي حيث يـتم الاكتشـاف بالصدفة البحتة وذلك حينما يقوم رجال الأمن بتفقد الأمـاكن النائية والمتطرفة داخل الحرم الجامعي، وعندما يتم ضـبط الشاب الفتاة في وضع مخل يفاجأ رجال الأمن بـأن الطلبـة يشهرون في وجوههم ورقة الزواج العرفي!!

من المؤكد أن هذه الأرقام تعبر عن وجـود مشـكلة. رغم أنها – أي الأرقـام – ليسـت الأرقـام الصـحيحة أو النهائية!

---

[١]) مجلة آخر ساعة، ١٦ أبريل ١٩٧٧.

[٢]) المصدر السابق.

ومع دلالة الأرقام هناك أيضا ما وراء الأرقـام مـن اختلاط للمفاهيم وعدم إدراك لبعض الحقائق المهمة مثل: هل الزواج العرفي.. حلال أم حرام؟ - كما وضح من دراسـة الباحثة أميرة عبد الرحمن وكذلك لجوء المتـزوجين بهـذه الطريقة إلى الشرطة والنيابة مع أن الزواج يفترض فيـه أن يكون بداية حياة جديدة جميلة بين اثنين متحابين ومتفاهمين. بينما هو في واقع الأمر – مع الزواج العرفي طبعا – يتحول إلى خناقة أو مشاجرة لا توجد وسيلة أفضل لعلاجها من قسم الشرطة، أو سراي النيابة.

إن الزواج الرسمي الذي لا يفتقد أي ركن من أركانـه أو شروطه، لا يؤدي أبدا إلى الملل أو الزهد في الحياة مـع الطرف الآخر.

في الزواج الرسمي ليس هناك هروب بعد وقت طـال أم قصر!

في الزواج الرسمي ليس هناك تنصل من طفل يعلـن عن مقدمه في أحشاء أمه!

في الزواج الرسمي الكل ينشد الاستمرار والاسـتقرار والمودة.

أما في الزواج العرفي – المبني على الرغبة الجنسـية وحدها – فالحياة دائما لحظات مسروقة. كل مكـان مظلـم يصلح للقاء. لا يهم إذا كان في شارع.. أو حديقة.. أو تحت السلم. المهم فقط أن يتحقق الهدف وتنطفئ الرغبة المحمومة.

ومرة بعد مرة.. يتحقق الإشباع مـن هـذا الطـرف بالتحديد.. فيأتي وقت الانفصال للبحث عن صيد جديد!

**..................

وأعود مرة أخرى.. وأتوقف أمـام دراسـة شـديدة الأهمية لأكثر من سبب.

الأول: أنها أجريت فـي إحـدى الجامعـات خـارج القاهرة.

الثاني: أنها كشفت عن وجـود أعـداد غيـر قليلـة متزوجين عرفيا.

الثالث: أنها أثبتت معرفة الغالبيـة بماهيـة الـزواج العرفي. وهؤلاء أنفسهم قد يقدمون عليه في يوم من الأيام.

أجريت([1]) الدراسة في كلية طـب المنوفيـة بمعرفـة الدكتورة ليلى شحاتة درغام وكيلة الكلية.

---

[1]) مجلة المصور، ٢٩ مايو ١٩٩٩.

شملت الدراسة ٥٠٠ طالب وطالبة من طلاب الكليـة الذين يدرسون في السنوات الثلاث الأولى.

يرجع السبب في إجراء هذه الدراسة إلـى اكتشـاف وجود حالتين زواج عرفي في السنة الأولى، وإلـى كثـرة أسئلة الطلاب أنفسهم خلال الندوات والحوار معهم حول هذا الزواج المر الذي أكد انتشار الظاهرة.

وبعد ثلاثة أشهر من العمل المتواصل أظهرت النتائج النهائية للبحث أن ٢% مـن طـلاب وطالبـات الجامعـة متزوجون عرفيا – أي ما يقـرب مـن ٣٠٠ حالـة – وأن ١٢% من الطالبات أكدن أنه زنا وحرام، وأن نسـبة ٣٧% من الجنسين لا تعتبره حراما، وأن ٩٤% يعرفون مـا هـو الزواج العرفي وأن عقوده المطبوعة تباع في المكتبات.

وأوضحت النتائج أيضا أن ٧٢% من الطلاب و٨٢% من الطالبات يرون أن الزواج العرفـي لا يحفـظ حقـوق الزوجة، ولا يحفظ نسب الأطفال. وأن ٣٨% من الطالبـات و٣٦% من الطلاب يقولون إنه ليس مخالفا للشـريعة. أمـا الباقون فلا يعلمون ما هو حكم الشرع في الزواج العرفي.

النتائج قالـت إن ٩٨% مـن الطـلاب و٩٦% مـن الطالبات يؤكدون أن الزواج العرفي يؤدي إلى الفشل والتوتر والقلق.

وقالت ٢٦% من الطالبات إنه يؤدي إلى ظهور أطفال غير شرعيين، وأكدت بعض كتابات الطـلاب أن الـزواج العرفي هو وسيلة لكي يفرغ شخص عقده النفسية في متعـة جنسية مدتها دقائق.

عينة كبيرة من الطلاب قالت إن أحد أسـباب انتشـار الزواج العرفي هو وسائل المواصلات وتحديدا الزحام الشديد في خط (أشمون – شبين) وكانت أعجب النتائج هـي تأكيـد ٧٠% من العينة أن الاختلاط بين الطلاب والطالبـات هـو السبب في انتشار هذا الزواج.

وفي أحد الأرقام المهمة ظهر أن نسبة الزواج العرفي بين طلاب الجامعة بلغت ١٧,٢% أي ما يقـرب مـن ٣٠٠ ألف حالة باعتبار أن طلبة الجامعات يقتربون مـن مليـوني طالب وطالبة.

الرقم عندما نشر في الصحف([1]) جاء منسوبا للدكتورة أمينة الجندي وزيرة التأمينات والشئون الاجتماعية، ولكن بعد أن أثار الرقم ضجة كبيرة قالت الوزيرة موضحة([2]): الحقيقة أنني لم أقل هذه النسبة، ولم أشر إليها أبدا ولكـن الصـحافة نقلتها عني لأن أحد المنظمين للندوة التـي نظمتهـا وزارة الشئون الاجتماعية هو الذي ذكرها ولأنه من العـاملين فـي الوزارة فبالتالي أفردتها الصحف على لساني.. وهذا ما حدث بالضبط.

وقالت: مسألة الزواج العرفي يصعب تقديرها إحصائيا لأنه غير موثق ولكن هذا لا ينفي وجود بعـض الدراسـات الجامعية "بالعينة".. في عدة جامعات تـم إجراؤهـا تحـت إشراف مكاتب رعاية الشباب بالجامعات.

والحقيقة أن المؤشرات تدل على الاقتراب بالفعل مـن هذه النسبة سواء كانت أكثر أو أقل قلـيلا وأعتقـد أن أحـد أسباب انتشار هذا الزواج أن الاتجاه الديني قنن هذا الـزواج وفي إطار المد الديني في الجامعات كان الاتفاق على أن هذا

---

[1]) جريدة الوفد، ٣٠ أبريل ٢٠٠٠.

[2]) مجلة نصف الدنيا، ٢١ مايو ٢٠٠٠.

شرعي ولا يترتب عليه مخالفة دينية فأقبل عليـه الشـباب، والذي لم يعرفه الأبناء أن هناك فرقا بين ما كان مقننا فـي صدر الإسلام وما هو موجود الآن.. فمثلا في بداية الإسلام لم يكن هناك وثائق للزواج ولكن اليوم الحاجات المجتمعيـة أوضحت أن هناك حاجة اجتماعية لوجود وثيقة زواج لحفظ كيان الأسرة.

انتهى كلام الوزيرة.

**...................

ويبقى بعد كل هذا رقم مخيف كان وحده كافيا لإظهار قدر انتشار الزواج العرفي في مصر، وكافيـا – كـذلك – لإبراز أحد أهم الآثار السيئة لهذا الزواج. الرقم الذي أتحدث عنه هو رقم قضايا إثبات نسب ١٢ ألـف طفـل. والـرقم المعلن[1] جاء من إحصائيات وزارة العدل.. وعلى حد قول المستشار علي صحابة بمحكمة استئناف القـاهرة للأحـوال الشخصية فإن كثيرا من قضايا إثبات ونفي النسـب تنتشـر حاليا بين كل طبقات المجتمع على عكس ما كان سائدا فـي الماضي حيث اقتصرت على فئة بعينها وكان مثل هذا النوع

---

[1]) جريدة الأهرام، ١٨ سبتمبر ١٩٩٨.

من القضايا ينشأ بسبب الاختلاف حول الميـراث أمـا الآن فالأمر مختلف تماما.. فللأسف الشديد أصبح الزواج العرفي هو المسئول الأول عن أكثر من ٩٠% من قضـايا إثبـات النسب.. والمحكمة لا تعترف بالزواج العرفـي.. والحالـة الوحيدة التي تحاول فيها إثباته تكون عندما ينشأ عـن هـذا الزواج أطفال.

ويقول: يقع علينا نحن كمختصين العبء الأكبر فـي إثبات البنوة.. فأي طفل مولود يهمه إثبات أهله سواء أب أو أم لأنها مسألة متعلقة بكيانه وشرعية وجوده.. وقد حـرص الإسلام على ألا ينسب الطفل إلا إذا كانت هناك صلة بينـه وبين أصله.. كما أقرت كل الأديان السماوية الأخـرى هـذا الحق..

**......................

من المؤكد أن صورة اشتباك رجـل وامـرأة داخـل قاعات المحاكم حول طفل يرفضه الأب ولا يريد أن ينسـبه إليه. لا يمكن أن تحدث بين زوجين اختارا الزواج بالصورة الرسمية الصحيحة.

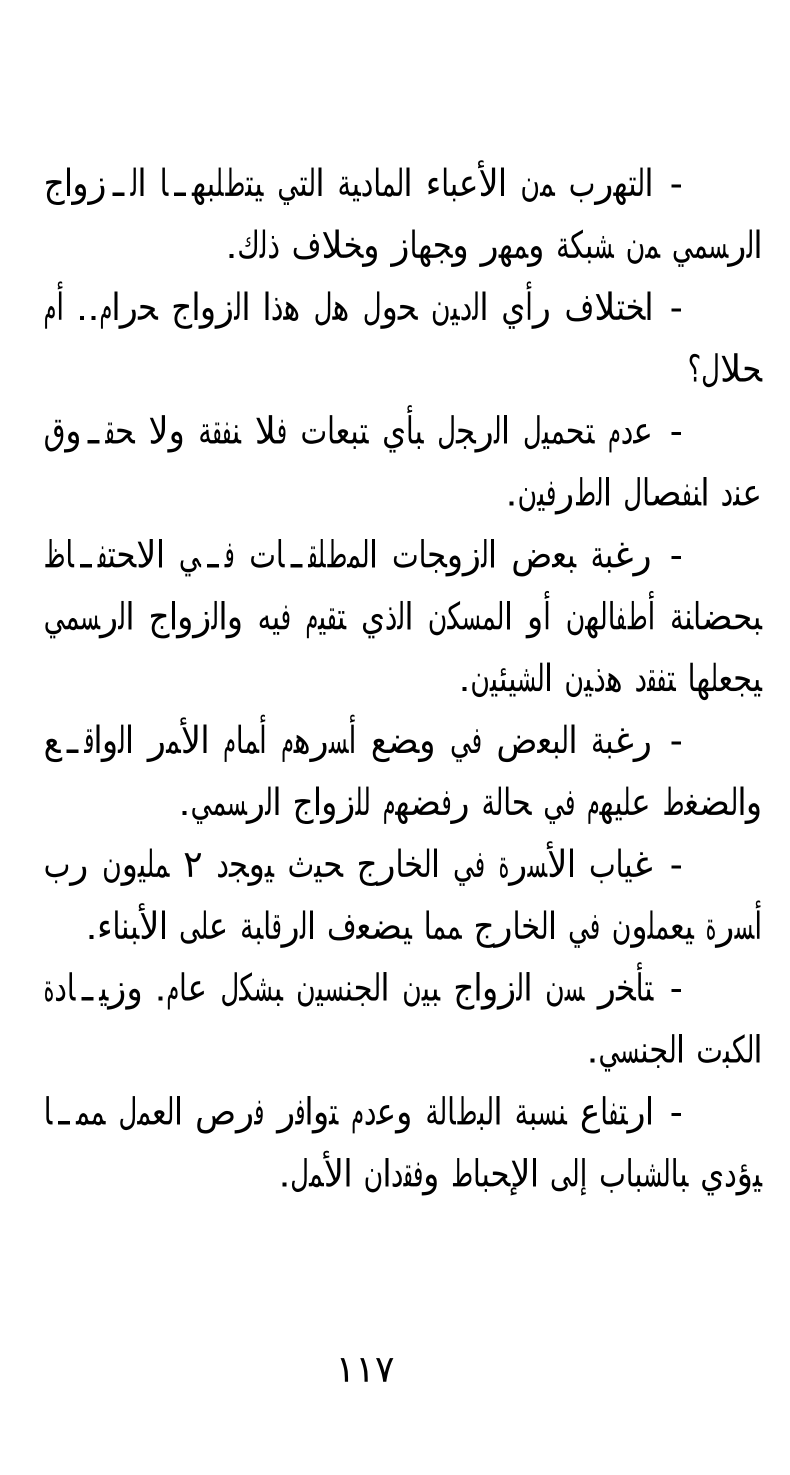
إن العراك والخناق وضياع الحق والحقيقة لا يحـدث إلا في الزواج العرفي.. الزواج الذي لا يترك مـن ورائـه سوى متعة "خامدة" وكوارث "مشتعلة"!!

والآن.. من الضروري أن أسأل: لماذا يلجأ الناس إلى الزواج العرفي؟ ولماذا يورطون أنفسهم فيه مع أنه مخاطرة غير محسوبة ونتائجها مؤلمة؟

لقد اختلفت أسباب ودوافع الزواج العرفي، ولكن هناك أسباب ودوافع مشتركة اتفق فيها عدد كبير من أصحاب هذه التجربة.. وقد كانت كل منها – الأسباب والدوافع – كافيـة للوقوع في الخطأ من خلال إغفال ركن أو شرط من شروط الزواج.

والأسباب والمبررات لا تخرج عن الآتي:

- الزوج يخشى إخطار زوجته الأولى بزواجه مـرة ثانية.
- الحفاظ على معاش تحصل عليه المـرأة مـن زوج متوفى.
- صغر سن الزوج أو الزوجة عن السن القانوني.
- الفشل في إقامة حياة زوجية رسمية ومعلنة.



- التهرب من الأعباء المادية التي يتطلبهـا الـزواج الرسمي من شبكة ومهر وجهاز وخلاف ذلك.

- اختلاف رأي الدين حول هل هذا الزواج حرام.. أم حلال؟

- عدم تحميل الرجل بأي تبعات فلا نفقة ولا حقـوق عند انفصال الطرفين.

- رغبة بعض الزوجات المطلقـات فـي الاحتفـاظ بحضانة أطفالهن أو المسكن الذي تقيم فيه والزواج الرسمي يجعلها تفقد هذين الشيئين.

- رغبة البعض في وضع أسرهم أمام الأمر الواقـع والضغط عليهم في حالة رفضهم للزواج الرسمي.

- غياب الأسرة في الخارج حيث يوجد ٢ مليون رب أسرة يعملون في الخارج مما يضعف الرقابة على الأبناء.

- تأخر سن الزواج بين الجنسين بشكل عام. وزيـادة الكبت الجنسي.

- ارتفاع نسبة البطالة وعدم توافر فرص العمل ممـا يؤدي بالشباب إلى الإحباط وفقدان الأمل.

ولنسمع هذا الرأي من الدكتور أحمد خيري أستاذ علم النفس بآداب عين شمس[1] الذي يقـول: القضـية شـائكة ومتشعبة فالقضية الجنسية لدى الشباب المصـري الآن لغـم يوشك على الانفجار لأنهم يعانون في حيـاتهم مـن ثلاثـة ضغوط رئيسية. الضغط الـديني الموظـف توظيفـا غيـر موضوعي، مما يجعل الشباب يشعر بأنه آثم وبأنه في حاجة إلى التطهر باستمرار، فيتجه إلى التطرف الـديني الـذي لا يحل مشكلته الجنسية بل يزيدها تعقيدا، ثم البطالة مما يجعل الشباب يركز تفكيره في قضية الجنس باعتبارها حاجة ملحة يومية تتطلب الإشباع، وبالتالي فالاحتياجـات مـع غيـاب الإشباع للحاجات الأخرى يجعل الجهد كله، والتفكيـر كلـه منصبا على الجنس باعتباره طريق الخـلاص مـن أزمـة الشعور بالبطالة وغياب الأمل في المستقبل، بالإضافة إلـى التناقضات الموجودة داخل الأسر التي استطاعت أن تحسـن أحوالها الاقتصادية إما بالهجرة أو بالسفر أو بالتجارة وتقوم برشوة أبنائها اقتصاديا حتى يغمضوا أعينهم عن المشـكلات الأسرية التي يعيشونها فيصبح الشـاب نتيجـة للإشـباع أو

---

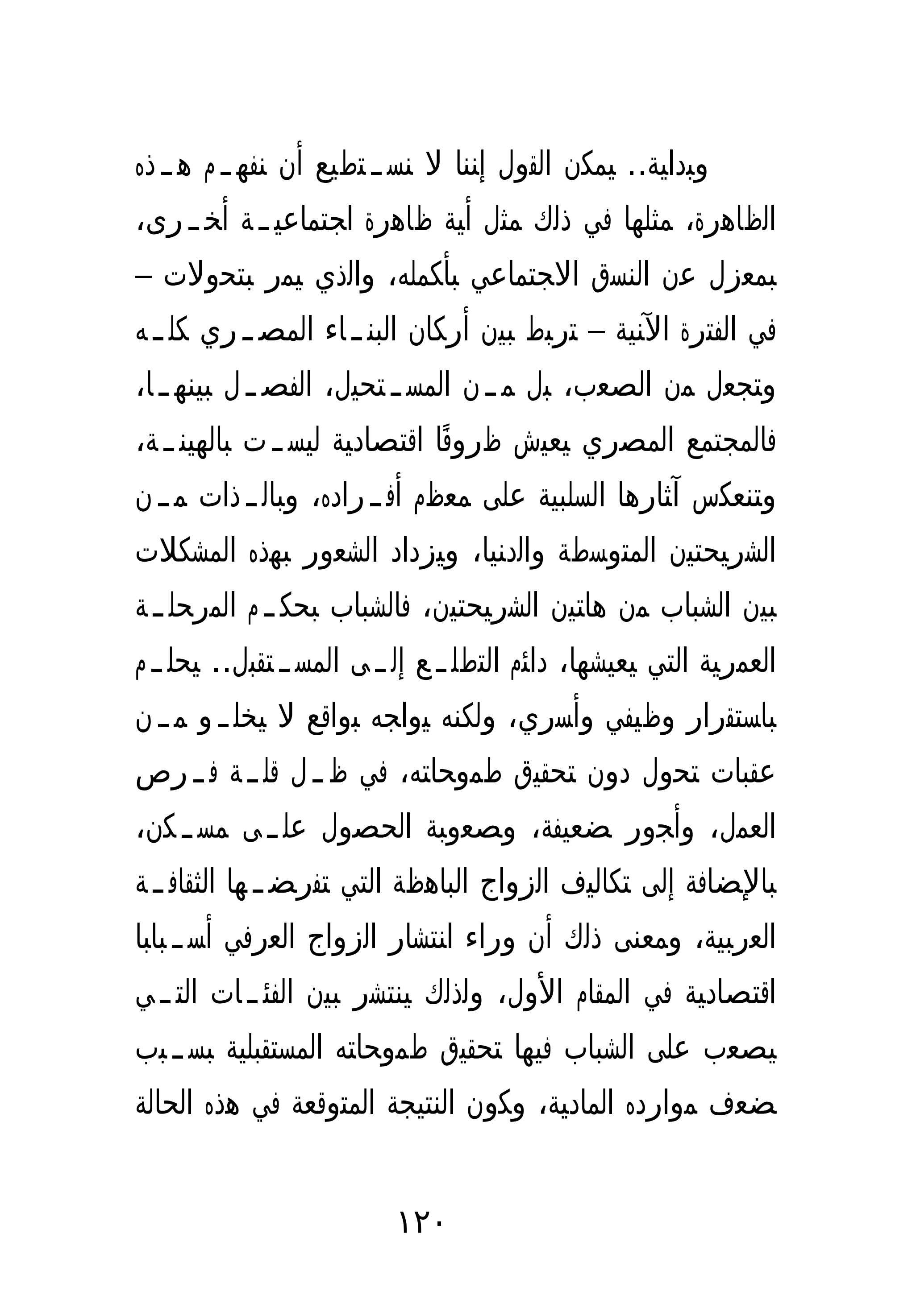
[1] جريدة النور، ٢٣ يوليو ١٩٩٧.

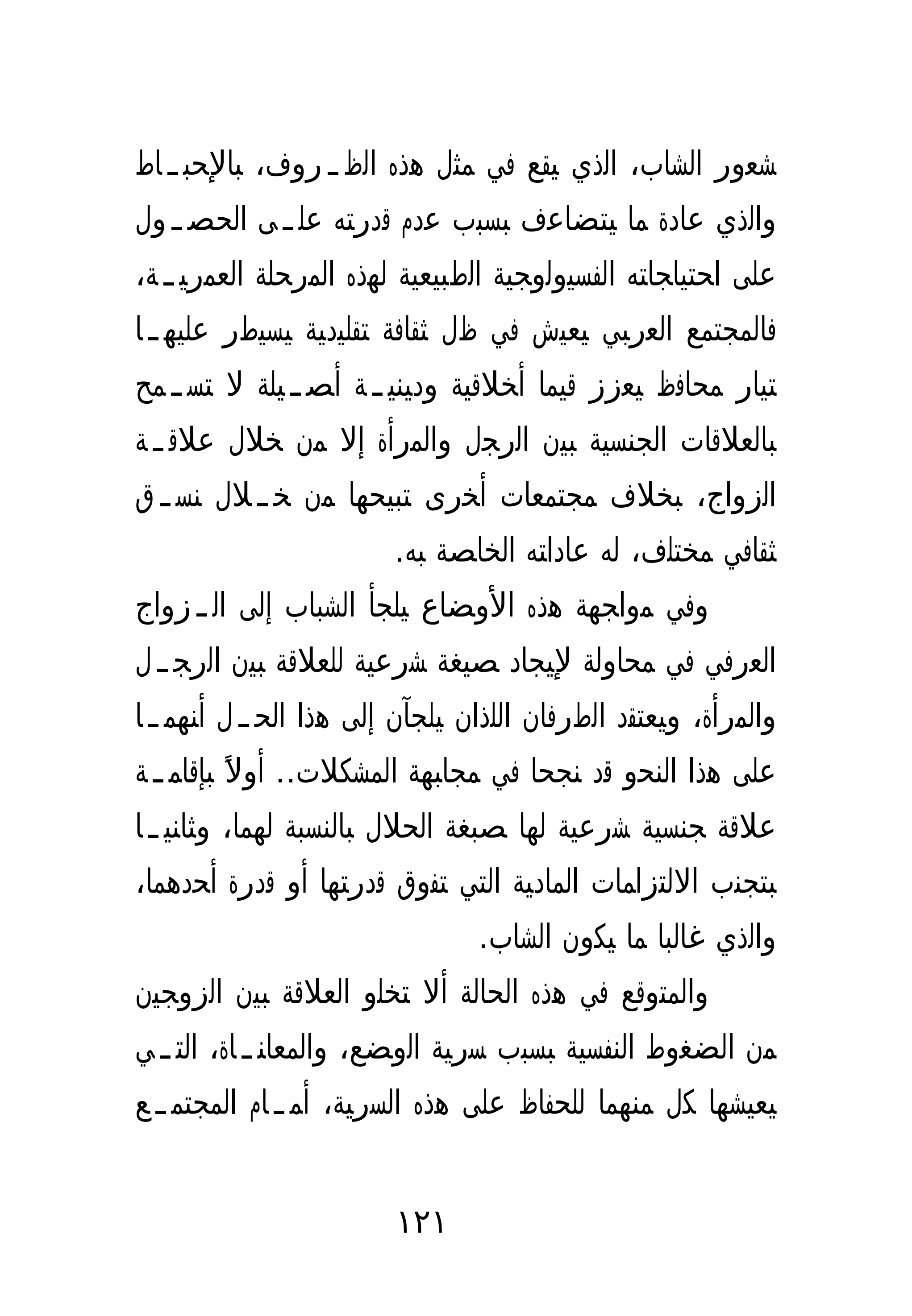
الرخاء الاقتصادي يحاول أن يحقق ذاته في مغامرات جنسية أو عاطفية تعفيه من التفكير في مسئوليات حياته من ناحيـة. كما تحقق له مثيرات تملأ هذه الحياة الفارغة وتغيـر مـن رتابة يومه من ناحية أخرى. وبالتالي فهو يقدم على الزواج العرفي ليجد مبررا شرعيا لتحقيق نزواته.

**.........................

ويبقى هذا الرأي الشامل عن قضية الزواج العرفي من كل جوانبها. وفيه تقول الأستاذة الـدكتورة مديحـة محمـد السفطي أستاذ علم الاجتماع بالجامعة الأمريكية بالقاهرة([1]): شهدت السنوات العشر الأخيرة تناميا ملحوظًا في عدد حالات الزواج العرفي مما جعل منها ظاهرة تستحق الدراسة لما لها من مردود اجتماعي، قد لا يخلو من الخطورة أحيانًا. ومـع ذلك، نجد أن البيانات عنها غير متوفرة بالقدر الكافي وأيضا تنقصها الدقة، بسبب السرية التي غالبـا مـا تحـيط بهـذه الزيجات، بل وتعتبر الدافع الرئيسي وراء علاقـة الـزواج العرفي في معظم الأحوال.

([1]) حوار خاص بتاريخ ٧ يناير ٢٠٠١.


وبداية.. يمكن القول إننا لا نستطيع أن نفهم هذه الظاهرة، مثلها في ذلك مثل أية ظاهرة اجتماعية أخرى، بمعزل عن النسق الاجتماعي بأكمله، والذي يمر بتحولات – في الفترة الآنية – تربط بين أركان البناء المصري كله وتجعل من الصعب، بل من المستحيل، الفصل بينها، فالمجتمع المصري يعيش ظروفًا اقتصادية ليست بالهينة، وتنعكس آثارها السلبية على معظم أفراده، وبالذات من الشريحتين المتوسطة والدنيا، ويزداد الشعور بهذه المشكلات بين الشباب من هاتين الشريحتين، فالشباب بحكم المرحلة العمرية التي يعيشها، دائم التطلع إلى المستقبل.. يحلم باستقرار وظيفي وأسري، ولكنه يواجه بواقع لا يخلو من عقبات تحول دون تحقيق طموحاته، في ظل قلة فرص العمل، وأجور ضعيفة، وصعوبة الحصول على مسكن، بالإضافة إلى تكاليف الزواج الباهظة التي تفرضها الثقافة العربية، ومعنى ذلك أن وراء انتشار الزواج العرفي أسبابا اقتصادية في المقام الأول، ولذلك ينتشر بين الفئات التي يصعب على الشباب فيها تحقيق طموحاته المستقبلية بسبب ضعف موارده المادية، وكون النتيجة المتوقعة في هذه الحالة



شعور الشاب، الذي يقع في مثل هذه الظـروف، بالإحبـاط والذي عادة ما يتضاعف بسبب عدم قدرته علـى الحصـول على احتياجاته الفسيولوجية الطبيعية لهذه المرحلة العمريـة، فالمجتمع العربي يعيش في ظل ثقافة تقليدية يسيطر عليهـا تيار محافظ يعزز قيما أخلاقية ودينيـة أصـيلة لا تسـمح بالعلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة إلا من خلال علاقـة الزواج، بخلاف مجتمعات أخرى تبيحها من خـلال نسـق ثقافي مختلف، له عاداته الخاصة به.

وفي مواجهة هذه الأوضاع يلجأ الشباب إلى الـزواج العرفي في محاولة لإيجاد صيغة شرعية للعلاقة بين الرجـل والمرأة، ويعتقد الطرفان اللذان يلجآن إلى هذا الحـل أنهمـا على هذا النحو قد نجحا في مجابهة المشكلات.. أولاً بإقامـة علاقة جنسية شرعية لها صبغة الحلال بالنسبة لهما، وثانيـا بتجنب الالتزامات المادية التي تفوق قدرتها أو قدرة أحدهما، والذي غالبا ما يكون الشاب.

والمتوقع في هذه الحالة ألا تخلو العلاقة بين الزوجين من الضغوط النفسية بسبب سرية الوضع، والمعانـاة، التـي يعيشها كل منهما للحفاظ على هذه السرية، أمـام المجتمـع

بشكل عام، وأسرة كل منهما بشكل خـاص، همـا إذن فـي صراع نفسي مستمر، وليس من المسـتبعد أن يـؤثر علـى علاقتها، وغني عن الذكر أن الأمور تتعقد إذا ما حدث حمل، سواء تم الإنجاب أم لا فإذا لم يتم، تكون مشكلة الإجهـاض ومضاعفاته التي لا تخلو من خطورة على صحة المرأة، وإذا تم الإنجاب تتفاقم المشكلات حول شرعية المولـود وتقبـل المجتمع له، وظروف تنشئته وغير ذلك من العواقب الوخيمة على سبيل المثال وليس الحصر.

ولعل أهم ما يضع الـزواج العرفـي فـي مصـاف المشكلات هو مردوده الاجتماعي على وضع المـرأة التـي تقبل هذه العلاقة في مجتمع له تقاليده، ويحدد أطر السلوكيات الخاصة بالإناث، ويضعهم في مرتبة أدنى من الذكر. لذلك قد يتخذ بعض الشباب من ضعاف النفوس من الزواج العرفـي وسيلة لتهديد الزوجة أو ابتزازها، ومما يزيد الأمـر تعقيـدا غياب الوضع القانوني لهذا الزواج وبالتالي غيـاب حقـوق الزوجة في هذه العلاقة، وفي كل الحالات تكون المرأة هـي الضحية إذا ما فشل هذا الزواج، أو حتى إذا اسـتمر وظـل سريا.

ولذلك فقد أنصف المشرع المرأة عندما سمح لها بطلب الطلاق في حالة الزواج العرفي في التعديل الـذي تـم فـي قانون الأحوال الشخصية عام ٢٠٠٠ إن هذا النص هو فـي الواقع إقرار لوضع قائم لا يمكن إنكاره والأهم من ذلك هـو تصحيح لهذا الوضع تلافيا لمشكلات اجتماعية قد وقعت فعلاً نتيجة لانتشار الزواج العرفي.

إن الزواج العرفي – إذا اعتبر مشكلة اجتماعية – هو نتيجة لظروف وأوضاع موجودة فـي المجتمـع ولا يمكـن التطرق إليه دون محاولـة فهـم الأسـباب التـي أفرزتـه ومواجهتها كواقع بدلا من إنكارها والتغاضي عنها.

ومن هذا المنطق نجد أن ثمة ظروف اجتماعية أخرى أدت إلى انتشار الزواج العرفي فـي عقـدي الخمسـينيات والستينيات، ولكنها ظروف مختلفة، وكذلك كانـت أسـباب انتشاره مختلفة، فلقد شهد هذان العقدان فتـرة حـرب راح ضحيتها العديد من الشهداء تركوا وراءهم أرامل، بعضـهن في سن الشباب، وتزوج بعض هؤلاء زواجا عرفيا حتـى لا يفقدن المعاش المرتفع الذي يتقاضينه كأرامل شهداء.

لذلك نجد أن الزواج العرفي يصبح حلاً لأوضاع تعززها ظروف المجتمع ويلجأ إليه الأفراد كواجهة شرعية لعلاقة تسمح بها هذه الظروف في شكلها الطبيعي. وفي حالة تنامي أعداد هذه الزيجات تتخذ شكل الظاهرة، مثلما حدث في الفترة السابقة، ومثلما يحدث الآن، وإن اختلفت وشكل الزواج نفسه، وأيضا قطاع المجتمع الذي ينتشر فيه.

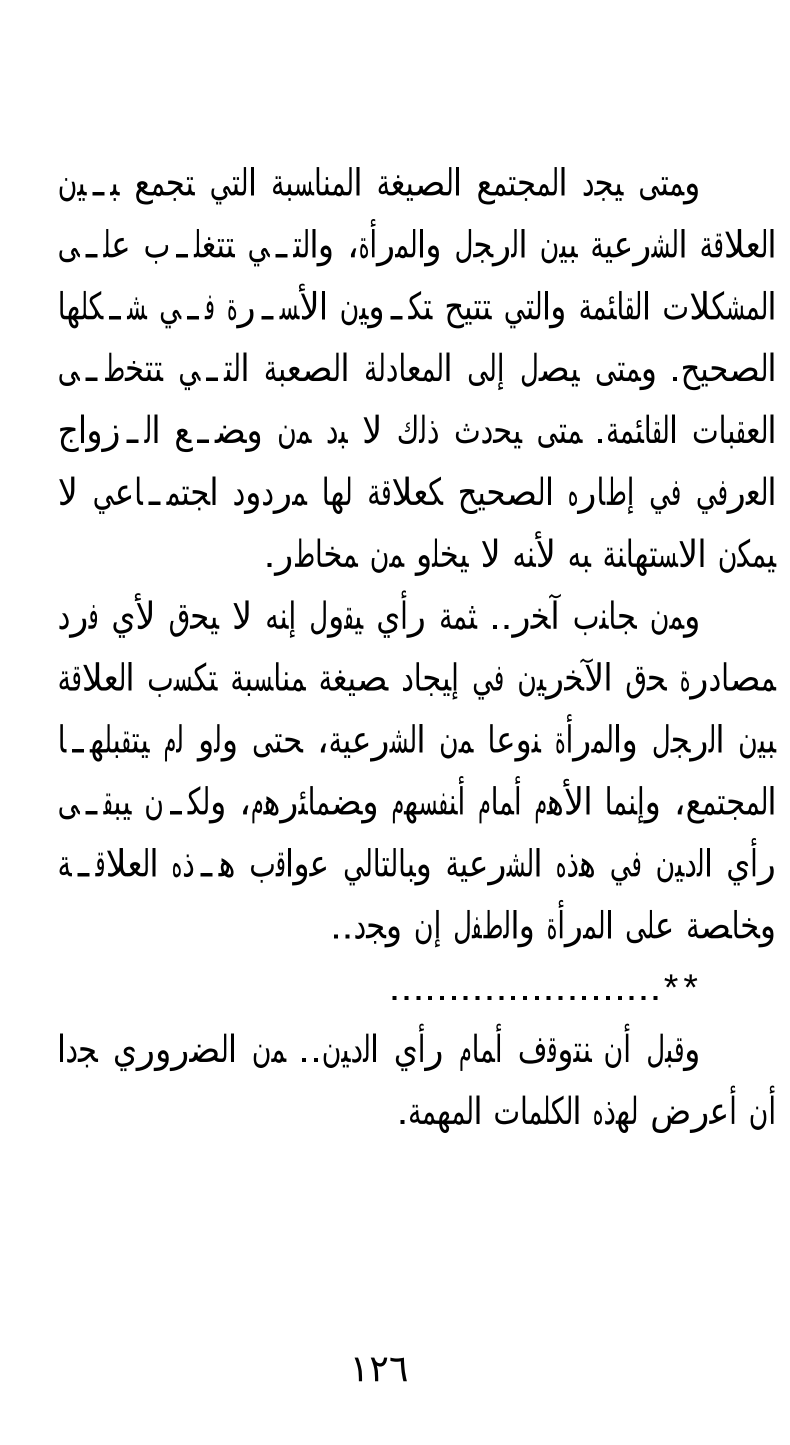
وليس معنى وجود الزواج العرفي في شكل ظاهرة أن هذا النوع من الزواج لم يكن معروفًا من قبل ولا يتواجد بشكل مستمر، فهو قائم في المجتمع المصري، ويصعب تحديد بدايته، ولكنه ومنذ قديم الأزل، يعتبر أسلوبا يلجأ إليه الطرفان كحل لموقف خاص يتنافى مع عقد الزواج في صورته الشرعية المعروفة. وغالبا ما يتخذ شكل السرية لأنه عادة – أو دائما على الأصح – ما يكون لأحد الطرفين مبررا ضد إعلانه.

ومن الحالات التي يتم فيها زواج عرفي تلك التي يكون فيها الرجل في مركز مرموق أو حساس ويخشى المساس به، وخاصة إذا ما كانت المرأة من مستوى اجتماعي أدنى منه، أو لديها ما يشوب سمعتها. وفي حالات أخرى قد

يخشى الرجل على أسرته الأولى من هذه الزيجة الثانية لسبب أو لآخر، قد يتعلق بزوجته الأولى أو أبنائه، فيعمل على إحاطة علاقته الأخرى بالكتمان فتكون زواجا عرفيا.

أما بالنسبة للمرأة التي تتزوج زواجا عرفيا - من غير الشابات اللاتي يلجأن إلى هذا الزواج من زملائهن الشباب الذين لا يقدرون على تحمل أعباء الزواج المادية – فهي تلجأ إلى هذه العلاقة خوفًا من أبنائها الذين قد يرفضون زواجها أو خشية فقد معاش زوجها المتوفى وخاصة إذا كان كبيرا مثل حالة الشهداء، أو قد تكون المرأة هي الطرف الآخر للرجل السابق ذكره أعلى.

وأيا كان السبب وراء الزواج العرفي وأيا كان الشكل الذي يتخذه فثمة حقيقة واقعة لا بد من مواجهتها في هذا الزواج مؤداها أنه لا يكون أسرة بمعناها المعروف، ويفتقد هذا الهدف الرئيسي للكيان الاجتماعي الصحيح. فهو وإن كان يوفر حلاً برجماتيا لأوضاع تعاني من مشكلات، إلا أنه لا يحقق الهدف الأساسي من الزواج، وهو تكوين الخلية النواة للمجتمع الإنساني.



ومتى يجد المجتمع الصيغة المناسبة التي تجمع بين العلاقة الشرعية بين الرجل والمرأة، والتي تتغلب على المشكلات القائمة والتي تتيح تكوين الأسرة في شكلها الصحيح. ومتى يصل إلى المعادلة الصعبة التي تتخطى العقبات القائمة. متى يحدث ذلك لا بد من وضع الزواج العرفي في إطاره الصحيح كعلاقة لها مردود اجتماعي لا يمكن الاستهانة به لأنه لا يخلو من مخاطر.

ومن جانب آخر.. ثمة رأي يقول إنه لا يحق لأي فرد مصادرة حق الآخرين في إيجاد صيغة مناسبة تكسب العلاقة بين الرجل والمرأة نوعا من الشرعية، حتى ولو لم يتقبلها المجتمع، وإنما الأهم أمام أنفسهم وضمائرهم، ولكن يبقى رأي الدين في هذه الشرعية وبالتالي عواقب هذه العلاقة وخاصة على المرأة والطفل إن وجد..

**.......................

وقبل أن نتوقف أمام رأي الدين.. من الضروري جدا أن أعرض لهذه الكلمات المهمة.

الفصل الخامس

المشكلة تفرض
نفسها على الجميع

كان من السهل الإحساس بقدر ما وصل إليه الأمر من خلال الواقع الذي نعيش فيه!

وكان من الممكن إدراك حجم مشكلة الزواج العرفي، ومدى انتشار الظاهرة في أكثر من اتجاه، وعلى عدة مستويات.. وبأعداد غير قليلة!

وكان من الطبيعي أن تدور أحاديث الناس عن الموضوع، وعن تفاصيل كثيرة ترتبط به!

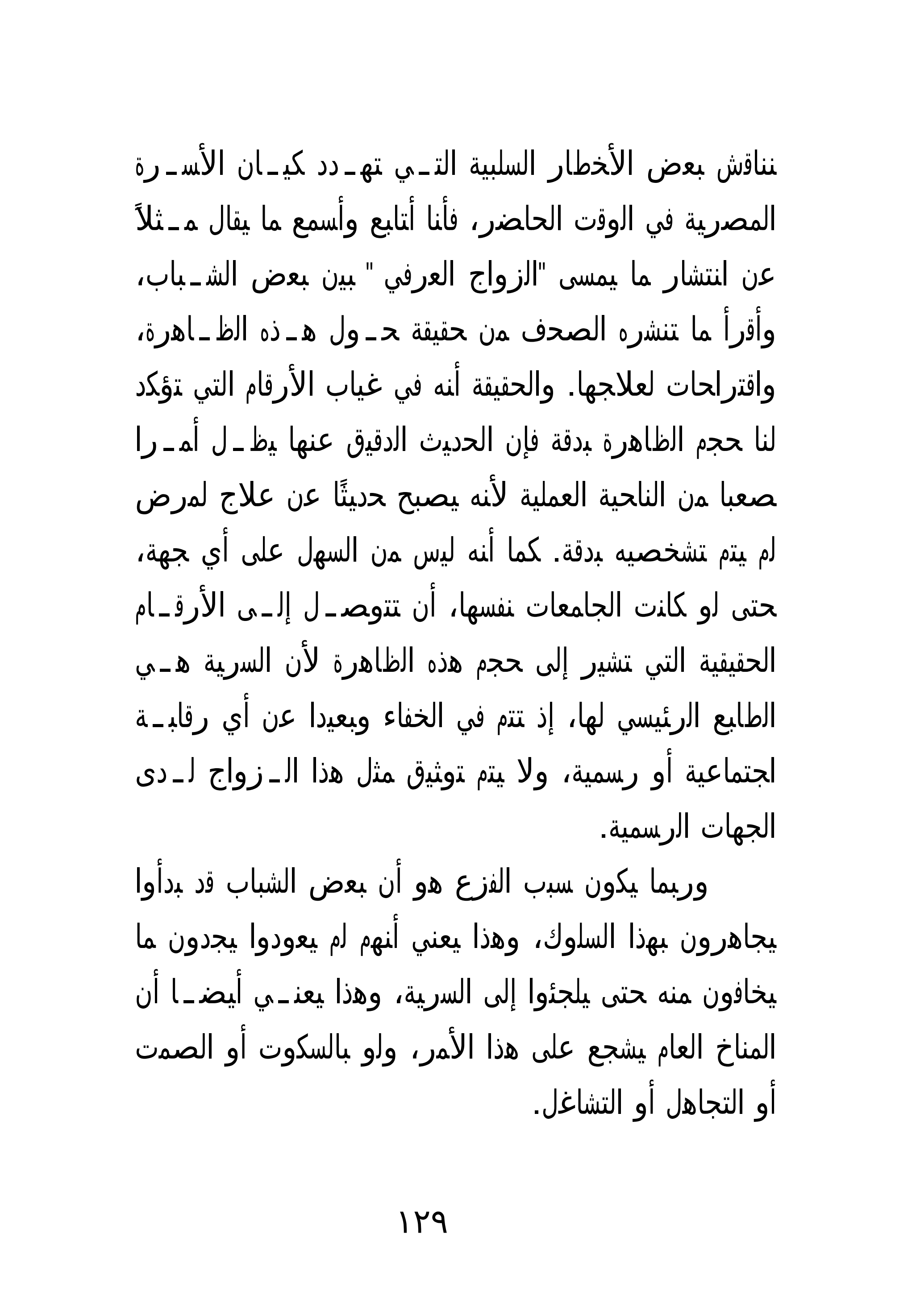
البعض يتكلم عن حكاية سمعها هنا أو هناك!

البعض يروي قصة سمعها عن هذا أو تلك!

ولكن كان للقضية وزن جديد، وبعد مختلف.. عندما بدأ الكتاب والمفكرون وأصحاب الأعمدة الصحفية في اقتحامها والكتابة عنها للتحذير منها، والدعوة إلى اتخاذ إجراءات وقرارات تؤدي للحد منها، والقضاء عليها.

وهنا أتوقف لأعرض لأبرز ما تمت كتابته في هذا الشأن.

وتحت عنوان "حقائق" كتب الأستاذ إبراهيم نافع رئيس تحرير ورئيس مجلس إدارة الأهرام يقول: من المفيد ونحن في رمضان، حيث الدفء الاجتماعي والترابط الأسري، أن



نناقش بعض الأخطار السلبية التـي تهـدد كيـان الأسـرة المصرية في الوقت الحاضر، فأنا أتابع وأسمع ما يقال مـثلاً عن انتشار ما يمسى "الزواج العرفي " بين بعض الشـباب، وأقرأ ما تنشره الصحف من حقيقة حـول هـذه الظـاهرة، واقتراحات لعلاجها. والحقيقة أنه في غياب الأرقام التي تؤكد لنا حجم الظاهرة بدقة فإن الحديث الدقيق عنها يظـل أمـرا صعبا من الناحية العملية لأنه يصبح حديثًا عن علاج لمرض لم يتم تشخصيه بدقة. كما أنه ليس من السهل على أي جهة، حتى لو كانت الجامعات نفسها، أن تتوصـل إلـى الأرقـام الحقيقية التي تشير إلى حجم هذه الظاهرة لأن السرية هـي الطابع الرئيسي لها، إذ تتم في الخفاء وبعيدا عن أي رقابـة اجتماعية أو رسمية، ولا يتم توثيق مثل هذا الـزواج لـدى الجهات الرسمية.

وربما يكون سبب الفزع هو أن بعض الشباب قد بدأوا يجاهرون بهذا السلوك، وهذا يعني أنهم لم يعودوا يجدون ما يخافون منه حتى يلجئوا إلى السرية، وهذا يعنـي أيضـا أن المناخ العام يشجع على هذا الأمر، ولو بالسكوت أو الصمت أو التجاهل أو التشاغل.

وهنا أحب أن أبدأ بتقرير مبدأ مهم، هو مبدأ المسئولية، إذ علينا نحن الآباء – ومعنا الأمهات – أن نعترف بأننا نتحمل القدر الأكبر من المسئولية عن حدوث مثل هذه الظواهر.

وليسأل كل منا نفسه هل لو كانت الأسرة بكل أعضائها تجتمع بكاملها ولو لوجبة واحدة في اليوم مثلما يحدث في رمضان، هل كان من الممكن أن يحدث هذا التباعد الذي يقود الابن أو البنت إلى الوقوع في فخ الزواج العرفي؟ الحقيقة أن هذا الزواج العرفي دليل على غياب دور الأسرة كموجه ومرشد ومرب، كما أنه دليل على غياب دور الأسرة كدار رعاية وعناية وعطف وإحسان، ودليل أيضا على فقدان الأسرة لهيبتها ومكانتها بحيث ينطلق الفتى أو الفتاة نحو سلوك يهواه مهما يكن خاطئا دون أي اعتبار لأسرته.

إن على المجتمع كله أن يدرك هذا السلوك في مهده حتى يتم حصاره والقضاء عليه، لحماية الغالبية العظمى من أبنائنا من أن تنتقل إليهم هذه العدوى، فأنا مؤمن بأن غالبية شبابنا لا تزال بخير وعافية. وعلينا جميعا من أسرة وجامعة

وصحافة وعلماء دين أن نوضح لهؤلاء الشباب أن الـزواج أطهر وأنقى وأنظف وأسمى رابطة إنسانية: ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مـودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون فالزواج هو نـواة الأسرة، والأسرة هي نواة المجتمع، وهـي واحـة التربيـة والتنشئة والأمن والسكينة.

ليس من العقل المساس بهـا تحـت أي ظـرف مـن الظروف، وفي القرآن من التوجيهات الأسرية ما يقدم أعظم إقناع لهؤلاء الشباب بأن يأخذوا الأمور مأخذ الجد([1]).

**.......................

ويكتب صلاح منتصر في عموده: "مجرد رأي" تحت عنوان: "سؤال عن العرفي". ويقول:

سألتني فتاة من طالبات جامعة المنصورة عن رأيي في الزواج الذي يتم "بشكل مقزز" – هكذا قالت – في سـنوات الدراسة وقلت لها: الزواج العرفي من الواضح أنـه أصـبح ظاهرة موجودة ويجب علينا مواجهتها ولا نهرب وإلا كنـا كمن يخفي رأسه في الرمال..

---

[1]) جريدة الأهرام، ٦ يناير ١٩٩٩.

وقلت لفتاة المنصورة إن الزواج في سنوات الدراسة له أسبابه ولكنه في الأعم علاقة بين شاب يحاول من جانبه البحث عن وسيلة لتلبية حاجته الجنسية، وبين فتاة لا تمانع في أن تلبي هذه الحاجة بشرط أن تكون هناك ورقة مكتوبة "تحلل" بها أمام نفسها علاقتها بالشباب.. وقلت مضيفًا من شروط الزواج الإشهار والإعلان.. وفي الزمان القديم الذي لم تكن فيه تليفونات ولا تلغرافات ولا وسائل اتصال كانت "الزغرودة" التي تنطلق من أحد البيوت بمثابة تلغراف مرسل من بيت العروس إلى كل الجيران لإعلان نبأ الزواج.. وكان يكفي شهادة الشهود وإطلاق الزغاريد لتوثيق الزواج، ولكن مع زيادة عدد السكان ومع تعقيدات الحياة وخلافاتها أصبح ضروريا أن تتدخل الدولة لتحمي الآثار المترتبة على الزواج وهو ما لم يكن ممكنا دون أن يتم إبلاغ الدولة بكل حالة زواج عن طريق المأذون الرسمي الذي تعينه الدولة ويثبت حالات الزواج في دفاتر الدولة.

وقلت إن التسجيل للزواج أصبح هدفه أن تحمي الدولة بكل أجهزتها وسلطاتها الآثار المترتبة على الزواج.. ولكن لأن الزواج العرفي لا يسجل في دفاتر الدولة فقد أصبحت

هذه العلاقة بلا حماية رسمية، وأصبح على الفتاة أن تواجـه المتاعب والمشاكل التي تنتهي إليها في أغلب حالات الزواج العرفي عندما يقضي الشاب متعته ويواجه بمشاكل فتح بيت ويجد لديه – وهو الطرف الأقوى فـي العلاقـة العرفيـة – فرصة الهروب والتهرب من هذه العلاقة التي تدفع البنت في النهاية ثمنها..

وقلت لفتاة المنصورة موجزا إجابتي: الزواج العرفـي يعرف أطرافه أنهم يفعلون عملا يخشـون الكشـف عنـه، ويعرفون أنه وسيلة لممارسة الجـنس، ويتصـورون أنهـم بالورقة المكتوبة بخط اليد قد غسـلوا هـذه العلاقـة مـن الإحساس بالذنب..

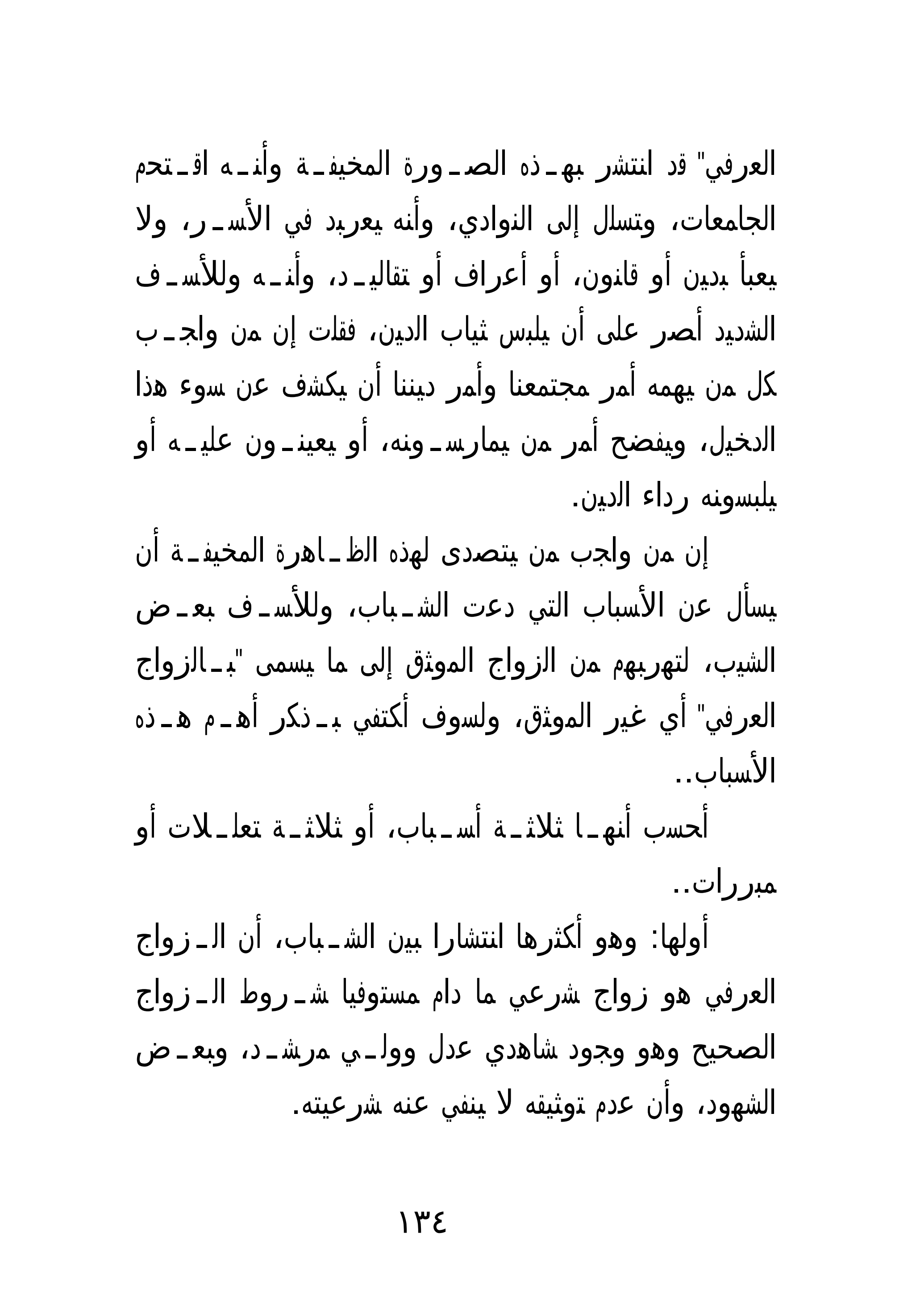
وقلت لفتاة المنصورة: أرجو أن أكون قد أجبتك علـى سؤالك[١].

**......................

وها هو رأي آخر كتبه حسـن دوح تحـت عنـوان: "المطلوب من المشرع التصدي لهـذه الظـاهرة.. الـزواج العرفي" ويقول: ما كنت أتصور أن مـا يسـمى "بـالزواج

---

[١]) جريدة الأهرام، ١٢ مايو ١٩٩٩.



العرفي" قد انتشر بهـذه الصـورة المخيفـة وأنـه اقـتحم الجامعات، وتسلل إلى النوادي، وأنه يعربد في الأسـر، ولا يعبأ بدين أو قانون، أو أعراف أو تقاليـد، وأنـه وللأسـف الشديد أصر على أن يلبس ثياب الدين، فقلت إن من واجـب كل من يهمه أمر مجتمعنا وأمر ديننا أن يكشف عن سوء هذا الدخيل، ويفضح أمر من يمارسـونه، أو يعينـون عليـه أو يلبسونه رداء الدين.

إن من واجب من يتصدى لهذه الظـاهرة المخيفـة أن يسأل عن الأسباب التي دعت الشـباب، وللأسـف بعـض الشيب، لتهربهم من الزواج الموثق إلى ما يسمى "بـالزواج العرفي" أي غير الموثق، ولسوف أكتفي بـذكر أهـم هـذه الأسباب..

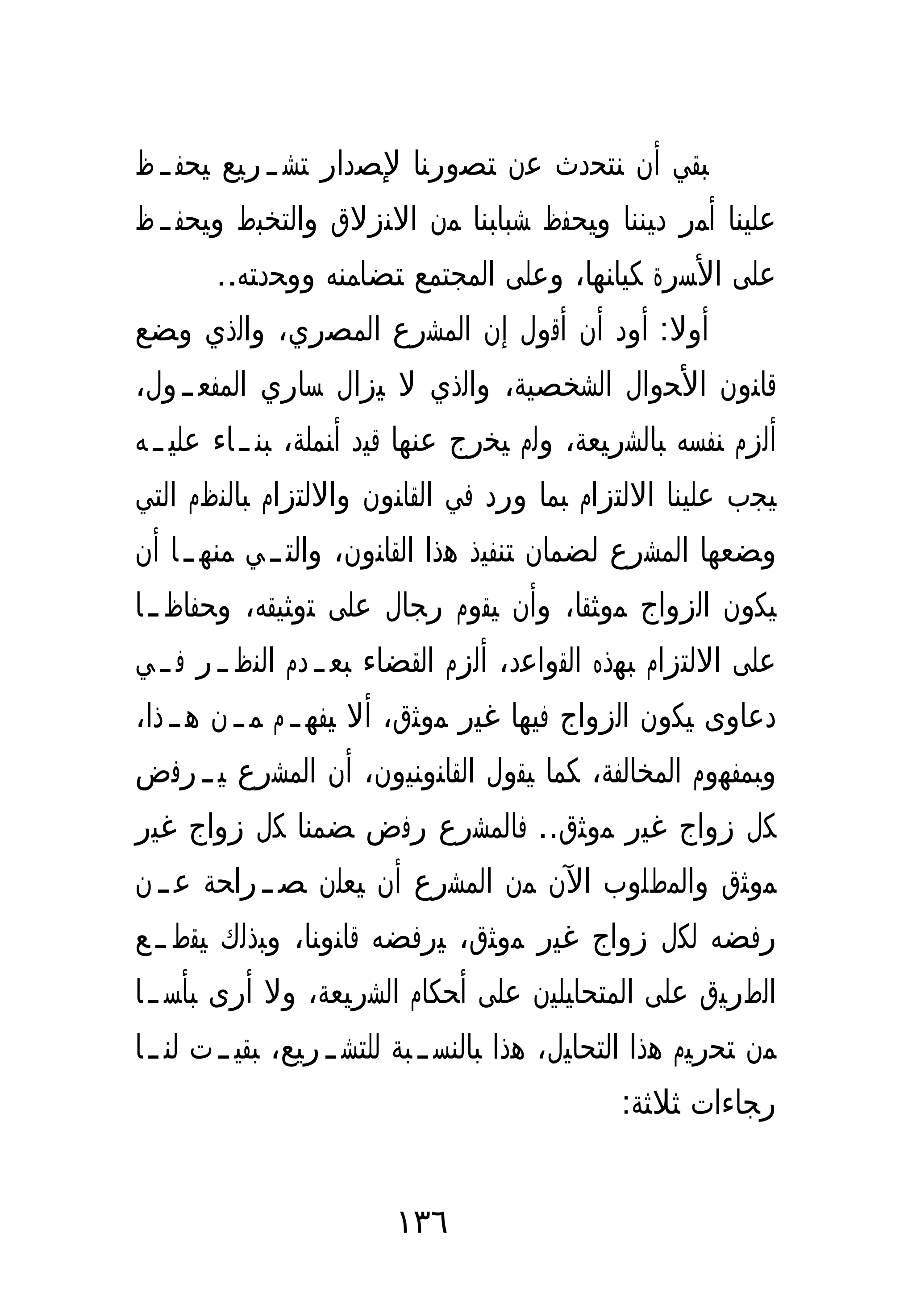
أحسب أنهـا ثلاثـة أسـباب، أو ثلاثـة تعلـلات أو مبررات..

أولها: وهو أكثرها انتشارا بين الشـباب، أن الـزواج العرفي هو زواج شرعي ما دام مستوفيا شـروط الـزواج الصحيح وهو وجود شاهدي عدل ولـي مرشـد، وبعـض الشهود، وأن عدم توثيقه لا ينفي عنه شرعيته.

المبرر الثاني: يقول به صغار السن وغير القادرين على تحمل أعباء الزواج الموثق. يقولون نحن بين خيارات ثلاثة الزواج الموثق وهو ليس بمقدورنا، وارتكاب الحرام، ونحن لا نرضاه، والزواج العرفي، وهو المتاح لنا، فلم تحرمونه؟؟

المبرر الثالث: وهو الذي يتعلل به الكبار، فهم يرون أن ظروفهم العائلية، والمالية تدعوهم لاختيار الزواج العرفي بديلاً عن الزواج الرسمي الموثق.

هذه المبررات غير مقبولة، لأن ضررها أكبر من نفعها. إن وجد.. وقد ثبت هذا الضرر، والقاعدة الشرعية تقول: "لا ضرر ولا ضرار" وقد أوصانا رسول ا صلى ا عليه وسلم أن نتجنب الأمور التي فيها شبهات قال: "إن الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام".. هذا الحديث متفق عليه ويحسن بنا أن نتقي أمرا مشتبها فيه..



بقي أن نتحدث عن تصورنا لإصدار تشـريع يحفـظ علينا أمر ديننا ويحفظ شبابنا من الانزلاق والتخبط ويحفـظ على الأسرة كيانها، وعلى المجتمع تضامنه ووحدته..

أولا: أود أن أقول إن المشرع المصري، والذي وضع قانون الأحوال الشخصية، والذي لا يزال ساري المفعـول، ألزم نفسه بالشريعة، ولم يخرج عنها قيد أنملة، بنـاء عليـه يجب علينا الالتزام بما ورد في القانون والالتزام بالنظم التي وضعها المشرع لضمان تنفيذ هذا القانون، والتـي منهـا أن يكون الزواج موثقا، وأن يقوم رجال على توثيقه، وحفاظـا على الالتزام بهذه القواعد، ألزم القضاء بعـدم النظـر فـي دعاوى يكون الزواج فيها غير موثق، ألا يفهـم مـن هـذا، وبمفهوم المخالفة، كما يقول القانونيون، أن المشرع يـرفض كل زواج غير موثق.. فالمشرع رفض ضمنا كل زواج غير موثق والمطلوب الآن من المشرع أن يعلن صـراحة عـن رفضه لكل زواج غير موثق، يرفضه قانونا، وبذلك يقطـع الطريق على المتحايلين على أحكام الشريعة، ولا أرى بأسـا من تحريم هذا التحايل، هذا بالنسـبة للتشـريع، بقيـت لنـا رجاءات ثلاثة:

- أن من واجبنا أن نعين الشباب والكبار على تصحيح أخطائهم، وذلك بتيسير الزواج الموثق، ومنحهم فترة زمنية لتوثيق الزواج.

- ثم إن من واجب الدولة أن تدرس الأسباب التي دفعت الكبار والصغار على هذا الانحراف ووضع العلاج الكافي والشافي أمامهم، وأحسب أن تيسير السكن، وتخفيف قيمته سوف يساعد في سرعة العلاج.

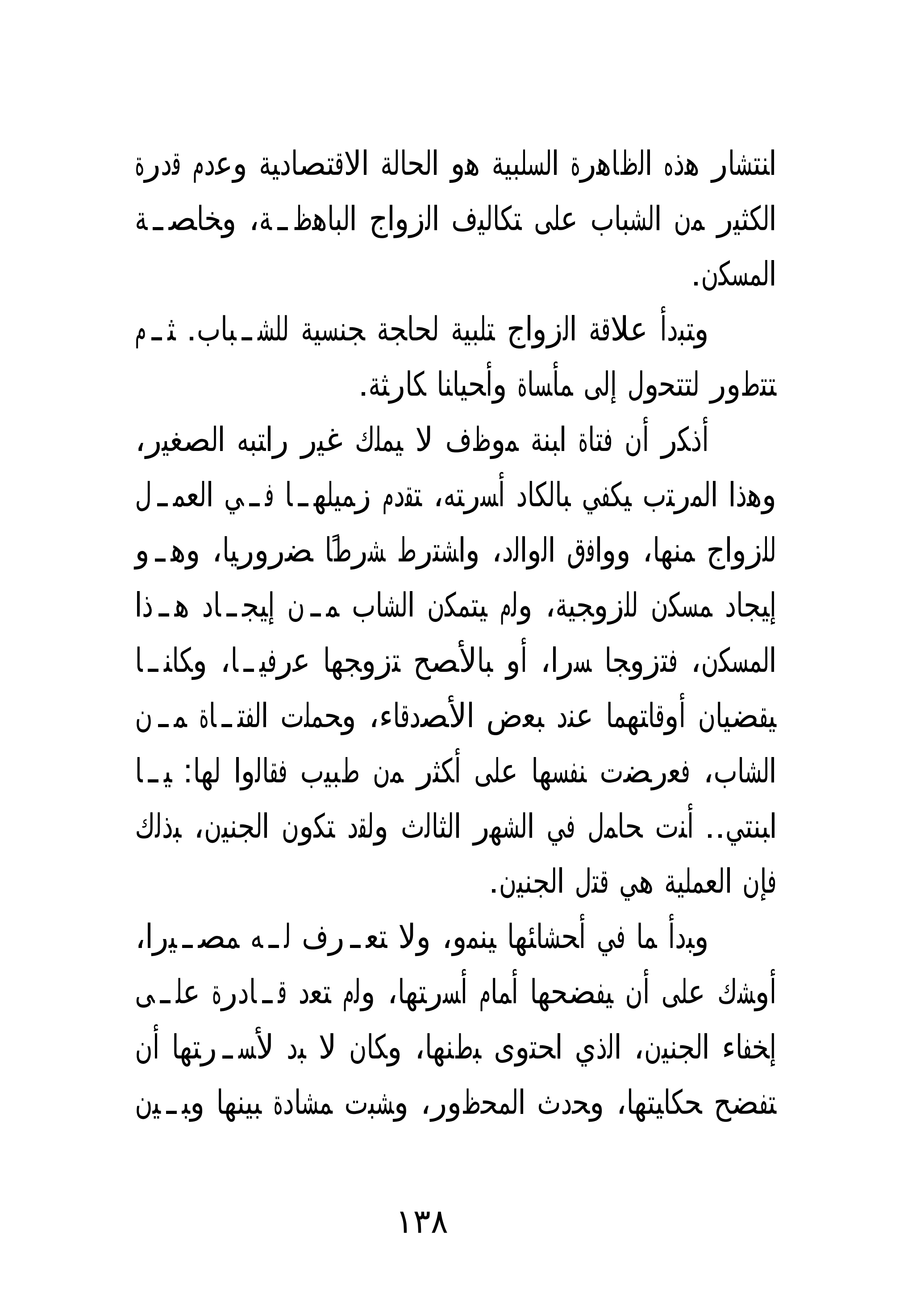
- بقي أن نطالب إعلامنا بأن يمهد لهذا التشريع، ويقنع المشرع بالإسراع به، ويعمل على إقناع الأسر بتجنب هذا الزواج لأنه يهدد كيان الأسرة المصرية العريقة، وكيان مجتمعنا الأصيل([1]).

**......................

وفي مقال تحت عنوان: الزواج العرفي. مرفوض. قال الكاتب الصحفي وجيه أبو ذكري في مجلة الملاعب العربية: الزواج العرفي بين الشباب، أصبح ظاهرة سلبية في مصر، قد لا يوجد إحصاء رسمي له، ولكنك تتلمسه بين شباب الجامعة. بل بعض المؤسسات والسبب الرئيسي في

---

[1]) جريدة الأخبار، ١٨ ديسمبر ١٩٩٩.


انتشار هذه الظاهرة السلبية هو الحالة الاقتصادية وعدم قدرة الكثير من الشباب على تكاليف الزواج الباهظـة، وخاصـة المسكن.

وتبدأ علاقة الزواج تلبية لحاجة جنسية للشـباب. ثـم تتطور لتتحول إلى مأساة وأحيانا كارثة.

أذكر أن فتاة ابنة موظف لا يملك غير راتبه الصغير، وهذا المرتب يكفي بالكاد أسرته، تقدم زميلهـا فـي العمـل للزواج منها، ووافق الوالد، واشترط شرطًا ضروريا، وهـو إيجاد مسكن للزوجية، ولم يتمكن الشاب مـن إيجـاد هـذا المسكن، فتزوجا سرا، أو بالأصح تزوجها عرفيـا، وكانـا يقضيان أوقاتهما عند بعض الأصدقاء، وحملت الفتـاة مـن الشاب، فعرضت نفسها على أكثر من طبيب فقالوا لها: يـا ابنتي.. أنت حامل في الشهر الثالث ولقد تكون الجنين، بذلك فإن العملية هي قتل الجنين.

وبدأ ما في أحشائها ينمو، ولا تعـرف لـه مصـيرا، أوشك على أن يفضحها أمام أسرتها، ولم تعد قـادرة علـى إخفاء الجنين، الذي احتوى بطنها، وكان لا بد لأسـرتها أن تفضح حكايتها، وحدث المحظور، وشبت مشادة بينها وبـين

أخيها انتهت بجريمة قتل تحدثت عنهـا الصـحف، ورغـم بشاعة الجريمة إلا أن الصحف لم تقف عند الزواج العرفـي كظاهرة اجتماعية سلبية، تنمو في السر وتتفجر في العلن.

خطورة الزواج العرفي أنه يبدأ بعلاقة المتعة، ثم تبدأ آثاره بعد عدة شهور من حادثة الزواج العرفي، وهي ظاهرة لا بد من التدخل لحلها تشريعيا، لقد سعدت برأي الـدكتورة أمينة الجندي وزيرة الشئون الاجتماعية الذي أدلت به للسيدة الصحفية منى الملاخ الصحفية في المصور حيث قالت:

"سمعت أخيرا أن علماء الدين يتجهـون إلـى تـأثيم الزواج العرفي، فالزواج مفروض فيه الاستقرار، فإذا كـان هناك شكل من الارتباط وتفكك الأسرة والأولاد، فهو محتاج إلى نظر لأنه لا يحفظ حقوق المرأة والطفل، ولا يمكـن أن تطلق لأنها لا تملك وثيقة زواج، ولا يمكن أن تستقر فهـي تدفع ثمن خطئها مدى الحياة. لذلك فإن قـانون الإجـراءات الجديد الخاص بالتقاضي في مسـائل الأحـوال الشخصـية يطالب بفتح الباب بإمكانية طلب الطلاق كحـل لمشـكلات اجتماعية قائمة بالفعل".

وتتمنى الـوزيرة أمينـة الجنـدي أن يضـع قـانون الإجراءات الجديد بعض القيود على الزواج العرفي.

نهايات الزواج العرفي كلها مؤلمة بـل إن معظمهـا ينتهي بجريمة وليس سرا أن نظرة المجتمع إليه هو نظرتـه إلى جريمة الزنا تقريبا. وكثير من المجتمعات تعلـن عـدم قبولها هذا النوع من الثقافات الاجتماعية الأوروبية، وهـذه الثقافات مرفوضة مصريا وعربيا وإسلاميا وأرجو من علماء الدين تحريم هذا الزواج الذي يجر خلفه عشـرات المشـاكل والمآسي.

**..........................

كانت هذه أبرز الآراء وأكثرها أهمية، وقـد اتفقـت جميعها على مآسي الزواج العرفي، وكيف أنه يجر من خلفه طابور من المشاكل والأزمات.. وأيضا الجرائم! وإذا كانـت الآراء قد اختلفت في تقدير حجم هذا الزواج ومدى انتشاره، فإنها ولا شك لم تختلف حول ضرورة محاربته والتصدي له بكل الوسائل.

بقي أن أشير إلى أن بعض المواضيع التـي تناولهـا بعض من هؤلاء الكتاب – مثل وضع القوانين التـي تعـالج

هذه المشكلة – جرت معالجتها بقانون الأحـوال الشخصـية الجديد وهو القانون رقم ١ لسنة ٢٠٠٠ الذي كـان حـديث الناس ومحور اهتمامها خلال عام ٢٠٠٠ لوجود ثلاث مواد ضمن بنوده تتعلق بالخلع، وسفر الزوجة دون إذن زوجهـا، ولإباحة الطلاق في الزواج العرفي. وقد جاء هذا القانون في فترة تالية لنشر هذه الآراء. ولكن لم يمنع هذا مـن قناعـة البعض بأن القانون الجديد لم يعالج المشكلة كلـه. وتنـاول جزء منها فقط، وهو الطلاق، إلى جانب قناعة البعض أيضا بأنه كان من الضروري وجود بنود أخرى يكـون لهـا دور رادع لكل من ينوي أو يفكر في الإقدام على تجربة الـزواج العرفي.

الفصل السادس

ماذا يقول الدين...

حلال أم حرام؟

في كل الأشياء.. تبقى كلمة الدين هي القول الفصـل عند جميع الناس.

وعندما يصبح الأمر حراما تجنبوه وابتعـدوا عنـه.. وعندما يصبح الأمر حلالاً فعلوه راضين مطمئنين إليه. وقد قال كثير من رجال الدين كلمتهم في الزواج العرفـي. ولـم يقولوا جميعا إنه حلال، ولم يقولوا جميعا إنه حرام.

كان هناك نوع من عدم الاتفاق. وكان هناك شيء من الاختلاف.

ومن الاختلاف بين الحلال والحرام. حدث نوع مـن البلبلة وعدم الوضوح. وربما أن عدم القطع برأي واحد.. في اتجاه واحد كان أحد أسباب انتشار هذا الـزواج. لأن الفتـاة المصرية تريد أن تجد لنفسها غطاء شرعيا يتيح لها الاندفاع في علاقة عاطفية عنيفة تعيشها بالفعل. وعندما لا تجد مـن يقول إنه حرام.. وعندما تكتشف أن هناك مـن يقـول إنـه حلال.. فلابد أنها تتشجع في خوض تجربة الزواج العرفي.

لقد لفت نظري – وهذه إحدى الأمثلة المشجعة علـى التجربة – أن كتاب التربية الإسلامية للصف الثالث الثـانوي تناول بالفعل الموضوع في صفحة ٩٧ تحت عنوان: حـول

بعض القضايا المعاصرة وموقف الإسـلام منهـا.. وجـاء الزواج العرفي ليحمل رقم (١) أي القضية الأولى.

ولكن كان التناول من النوع الذي يؤدي إلى الـزواج العرفي والتشجيع عليه، وليس للابتعاد عنه.

وهذا هو نص ما حواه الموضوع بالحرف الواحد:

"ظاهرة عصرية يلتقي فيها الرجل بالمرأة تحت وثيقة ورقية عليها شاهدان، ولكن الحقيقة أنه ورقة ليست فيها قوة وثيقة الزواج، لأن وثيقة الزواج شيء مقدس تحترمه المحاكم والمؤسسات الحكومية والمجتمع. إلـى جانـب أن الـزواج الحقيقي يعتمد على الإعلان والشهرة وإعلام المجتمع به في القرية والمدينة، وهو تحصين للمرأة التـي تمثـل نصـف المجتمع، وصيانة لشرفها وحقوقها.

ونحن ننصح أبناءنا وبناتنا بالبعد التـام عمـا يسـمى بالزواج العرفي لما يترتب عليه من آثار سيئة من أهمها:

١- ضياع حقوق الزوجة، حيث إن دعواها بأي حق من حقوق الزوجيـة لا تسـمع أمـام القضاء إلا بوجود وثيقة الزواج الرسـمية معها.

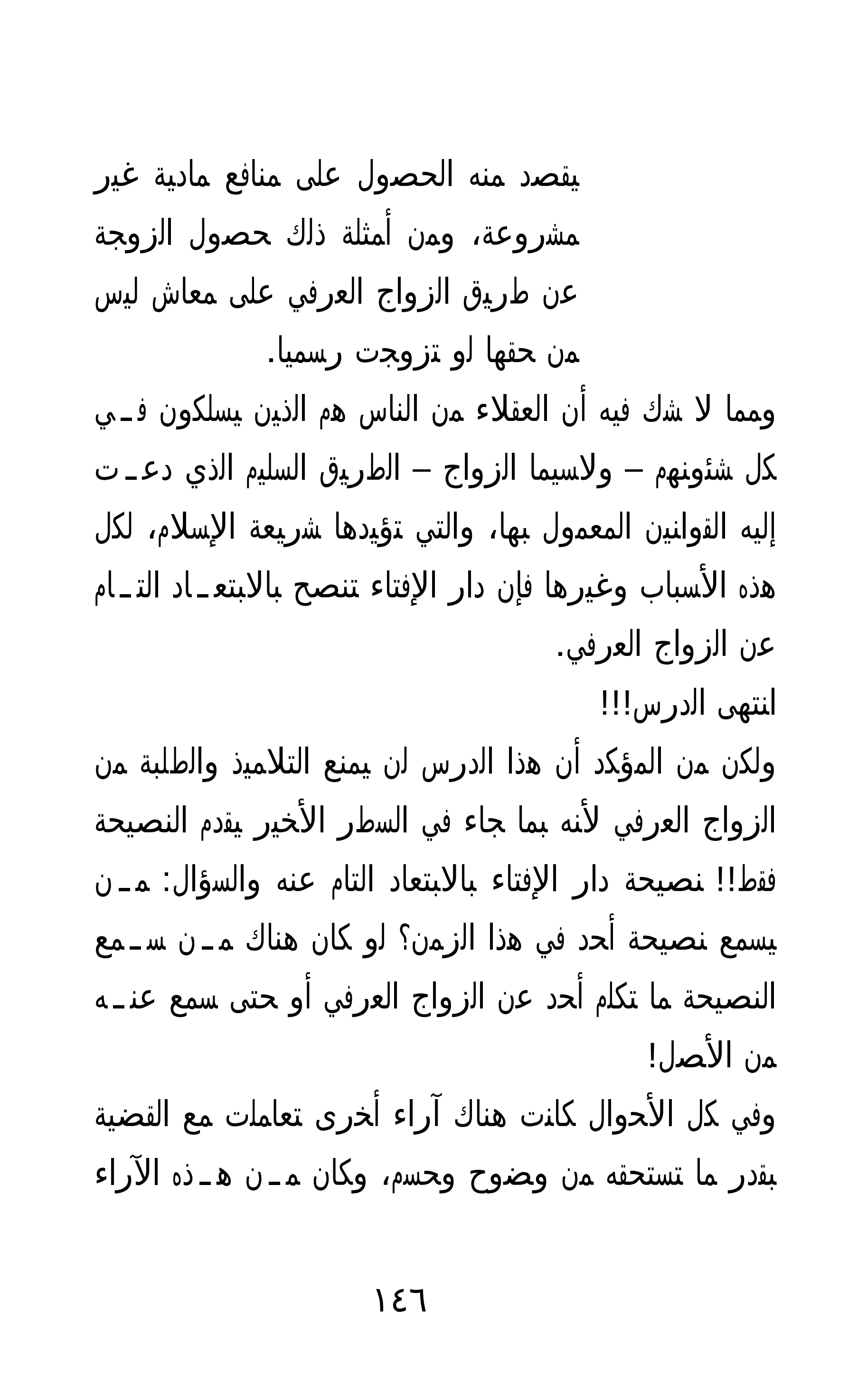
٢- أن الزوجة قد تبقى معلقة لا تستطيع الزواج بآخر. إذا تركها من تزوجها زواجا عرفيا دون أن يطلقها. وانقطعت أخباره عنها.

٣- أن الأولاد الذين يأتون عن طريق هذا الزواج قد يتعرضون لكثير من المتاعب التي تؤدي إلى ضياعهم وتمزقهم بل وإنكار نسبهم.

٤- أن الأصل في الزواج هو الإشهار والإعلان وتبادل التهاني بين الأصهار، سيما وقد نص بعض الفقهاء على ذلك وجعلوه شرطًا من شروط صحة عقد الزواج.

ومن المعروف أن الزواج العرفي يصاحبه السرية والكتمان في الأعم الأغلب، وينعدم فيه الإشهار، وما يترتب على ذلك من انتفاء المودة والتعارف بين أهل الزوجين.

٥- أن ما يسمى بالزواج العرفي كثيرا ما يكون وسيلة للتحايل الذميم على القوانين. كأن



يقصد منه الحصول على منافع مادية غير مشروعة، ومن أمثلة ذلك حصول الزوجة عن طريق الزواج العرفي على معاش ليس من حقها لو تزوجت رسميا.

ومما لا شك فيه أن العقلاء من الناس هم الذين يسلكون في كل شئونهم – ولاسيما الزواج – الطريق السليم الذي دعت إليه القوانين المعمول بها، والتي تؤيدها شريعة الإسلام، لكل هذه الأسباب وغيرها فإن دار الإفتاء تنصح بالابتعاد التام عن الزواج العرفي.

انتهى الدرس!!!

ولكن من المؤكد أن هذا الدرس لن يمنع التلاميذ والطلبة من الزواج العرفي لأنه بما جاء في السطر الأخير يقدم النصيحة فقط!! نصيحة دار الإفتاء بالابتعاد التام عنه والسؤال: من يسمع نصيحة أحد في هذا الزمن؟ لو كان هناك من سمع النصيحة ما تكلم أحد عن الزواج العرفي أو حتى سمع عنه من الأصل!

وفي كل الأحوال كانت هناك آراء أخرى تعاملت مع القضية بقدر ما تستحقه من وضوح وحسم، وكان من هذه الآراء

رأي الدكتور رأفت عثمان رئيس قسم الفقه المقـارن بكليـة الشريعة الذي يقول فيه[1]: إذا كان المقصود بالزواج العرفي الكامل الأركان والشروط، لكنه لم يوثق، كان عقد الـزواج صحيحا. لكن الظاهرة التي تحـدث فـي الجامعـات مـن معاشرات بين الطلاب والطالبات تحت هذا المسـمى لـيس زواجا مكتمل الشروط والأركان: والحل هو إزالـة الجهـل الديني بالتوعية السليمة.

وهذا رأي آخر للدكتور محمد سيد طنطاوي شـيخ الأزهـر يقول فيه[2]: هذا الزواج باطل طالما الولي (ولـي المـرأة) غير موجود. وهذا الزواج باطل عند الإمام مالك وعند الإمام الشافعي وعند الإمام أحمد بن حنبل، والإمـام أبـي حنيفـة يجيزه في حالة واحدة.. حيث يرى بأنه يجـوز للمـرأة أن تزوج نفسها دون ولي بشرط: أن تزوج نفسها في كفء لها. فإذا لم يكن كفئا لها من حق وليها أن يرفع الأمـر للقضـاء للفصل بين الزوجين وإلغاء هذا الزواج الباطل وهذه الطريقة

---

[1]) جريدة الجمهورية، ١٣ مايو ١٩٩٩.

[2]) جريدة الأهرام ١٥ مايو ١٩٩٩.

التي تحدث في الجامعة بين صغار السن من الشباب تعتبـر باطلة.

الشيخ الراحل محمد متولي الشعراوي كان له رأي أيضا قال فيه([1]): إن الزواج العرفي زنا (والعياذ با) وهو نـوع من التلصص والتحايل على الشرع ولا بد للزواج الشـرعي الصحيح أن يتوافر فيه جانب الإشهار ولا داعي أبدا لإخفاء سنة أحلها ا .

وقبل أن أتوقف أمام رأي مفتي الديار المصرية. أتوقف أولاً أمام التعريف الذي وضعته دار الإفتاء المصرية للزواج العرفي والذي يقول نصه([2]): الزواج العرفي ينعقـد شـرعا بين الطرفين أو وكليهما متى استوفى العقد شروطه وترتـب على هذا العقد الحقوق والواجبات دون توقف علـى العقـد رسميا.

وهذا الزواج نوعان: الأول مكتمل الأركان.. مستوفي الشروط يشهد عليه شاهدان وهو صحيح شرعا ويترتب عليه ثبوت الحقوق لكل من الزوجين.

---

[1]) جريدة الوطن العربي: ١ يونيو ١٩٩٧.

[2]) جريدة الأحرار، ١٦ نوفمبر ١٩٩٦.

**** وأنا من عندي أقول إنه ليس هناك من يحـرص على أن يكون زواجه بهذه الصورة وإلا كان عليه أن يذهب للمأذون أفضل. ومن يلجأ للزواج العرفي يسقط منه ركـن من الأركان أو شرط من الشروط بسبب يتعلق به أو بمـن تخوض معه في التجربة.**

والثاني يطلق عليه الزواج السري.. عبارة عن ورقـة مكتوبة بين الرجل والمرأة بصيغة الزواج دون شهود كـأن يكتب مثلاً تزوجت أنا "اسم الزوج" من "اسم الزوجة" في يوم كذا سنة كذا على سنة ا ورسوله وعلى مذهب الإمام أبـي حنيفة النعمان.

وهذا هو رأي الدكتور نصر فريد واصل مفتي الديار المصرية وفيه يقول([1]):

الزواج العرفي الشائع هذه الأيام يسقط منه عدة أركان أولها: الشهادة والتي اشترط الفقهاء أن تكون شهادة الشاهدين علنية. وعدم الكتمان يتحقق بها شرط شاهدي العـدل، فـإن اشترط في الشهادة الكتمان، صارت شهادة سـرية، فيكـون الزواج بسرية الشهادة زواجا باطلاً، لأن الفرق بين النكـاح

---

[1]) جريدة السياسي المصري، ٢٨ يوليو ١٩٩٧.

والسفاح هو العلنية، فإن كانت الشهادة علنية سـمي نكاحـا، وإن كانت الشهادة سرية صار سفاحا.

كما أننا لو نظرنا إلى جمهور الفقهاء فإنهم يشترطون لصحة العقد في الزواج الولي (بخلاف أبي حنيفة) واشترطوا أن يكون الولي من عصبة المـرأة، الأب أو الأخ أو العـم، وهذه العصبات التي اشترطوا ولايتها فـي الـزواج مرتبـة بترتيب العصبات في الميراث وبهذا يصبح الزواج العرفـي باطلا لغياب الولي ولعدم علمه في أغلب أحوال هذا الزواج. كما أن الزواج العرفي ينقصه الإعلان عنه وإشهاره وهو ما اشترطه الإمام مالك لصحة عقـد النكـاح ولتمـام أركانـه (الإشهار). فلا تكفي الشهادة العلنية وحدها ولا بد أن يكـون الزواج مشهرا بين الناس وأن يشهدوه زيادة على الشهادة.

والواقع المتعارف عليه في مصر وصار عرفًـا بـين الناس هو الإعلان عن الزواج وإشهاره. وأنه بات معلومـا للكافة بأن الزواج الشرعي هو ما يدعى إليه الخاصة والعامة ليشهدوا فيه عقد القران ويباركوه في ليلة الحنة وليلة الزفاف وهذا ما هو معتمد به فـي جميـع الفئـات وفـي مختلـف المستويات.

وعلى ما تقدم فإن الزواج العرفي المنتشر بين النـاس هو زواج باطل يخالف الشرع في عدم وجـود الـولي مـن عصبات المرأة كما أن الشهادة فيه باتت سرية غيـر معلنـة مما يجعله سفاحا وليس نكاحا، وأنه لا يـتم الإعـلان عنـه وإشهاره بين الناس. وسقوط أي شرط من الشروط يجعل هذا الزواج باطلاً وعقده فاسدا.

إن توثيق عقود الزواج بات ضروريا من باب أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، والتوثيق أصـبح واجبـا شرعا لأنه يمنع المفاسد التي تضر بالمرأة والرجـل علـى السواء، من عدم توثيق هذا الزواج.

**........................

وهذا رأي آخر للدكتور عبد ا مبروك النجار بكليـة الشريعة والقانون بجامعة الأزهر يقـول فيـه([1]): الـزواج العرفي متى توافرت أركانه هو زواج شرعي حقيقي وتتحقق بالنسبة له العلانية التي تكفل احترام الزوجين بين الناس حتى لا تلوكهما الألسنة، ويتناول الناس أعراضـهما بمـا يمـس شرفهما، ويسيء إلى سمعتيهما في الوسط الذي يعيشان فيه.

---

[1]) جريدة الجمهورية – ١٥ أكتوبر ١٩٩٥.

ولا يختلف الزواج العرفي عن الـزواج العـادي إلا بالتوثيق، حيث يتم الزواج العادي على يد مأذون، ويثبت في وثيقة معدة لذلك تمثل إثباتًا لحصول العقد وما يترتب عليـه من آثار مالية وغير مالية كنسب الأطفال الذين يولدون مـن هذا النكاح، وفي غير هذا لا يختلف العقدان.

وهذا رأي يمضي تقريبا في نفس الاتجاه وفيه يقـول الشيخ محمد خاطر مفتي الديار المصرية الأسبق([1]): أركان الزواج في الشريعة الإسلامية هي الإيجـاب والقبـول، ولا يكون الزواج صحيحا إلا إذا صدر الإيجاب والقبـول أمـام شاهدين، والمطلوب في الزواج أن يكون مشهورا، ومعلنًـا، ومعروفًا، والزواج يتم إذا مـا تحقـق الإيجـاب والقبـول والشهود.

أما التوثيق لدى المأذون فهذا عمـل رسـمي نظمـه القانون لعدة مصالح منها أن بعض الأزواج ينكـر الـزواج فكان لا بد من توثيقه، ولهذا نص المشرع على عدم سـماع دعوى الزوجية عند الإنكار إلا بوثيقـة الـزواج الرسـمية. فالسيدة التي تتزوج بالإيجاب والقبول وشهادة الشهود مكتفية

---

[1]) جريدة الأنباء – ١٤ مارس ١٩٩٧.

بذلك تعرض مصالحها للأخطار ولأنه قـد يحـدث النـزاع بينهما وبين الزوج فلا تتمكن من الحصول على حقها ما دام عقد الزواج الرسمي غير موجود. واللاتي يلجأن إلى العقـد العرفي محافظة على المعاش من الانقطـاع إنمـا يدلسـن ويأخذن أموال الدولة دون وجه حق، وذلك حرام لأن المعاش قد فرضته الدولة لمن لا تجد من ينفـق عليهـا، أمـا وقـد تزوجت ووجدت المنفق فلا وجه أبدا للتدليس وأخذ المعـاش دون وجه حق.

وهنا هذا الرأي أيضا الذي يعبر عـن الواقـع القـائم ويرفضه. وفيه يقول الدكتور محمد سيد أحمد المسير([1]): ما يفعله بعض الشباب تجاوز لشرع ا ، مثلاً: يجتمـع شـاب وفتاة ويتفقان على الزواج ويحضر أصدقاؤهما "جلسة" يعلن فيها الزوجان أنهما قد تزوجا ويزعمان أن هؤلاء الأصـدقاء شهود ثم يمارسان حياتهما – أي يعاشرها الشـاب معاشـرة الأزواج – وبعدها تذهب إلى بيتها. هذا ليس زواجا..! إنهـا مؤامرة على القيم وعلى الأخلاق.. وهو فعـل يتنـافى مـع مقاصد الزواج الشرعية التي تبتغي الاستقرار العاطفي وبناء

---

[1]) مجلة نصف الدنيا – ٢٧ أغسطس ١٩٩٥.

الأسرة وترقب الأولاد الصالحين في ظـل أسـرة حقيقيـة متماسكة مستقرة. إن مثل هذه الصيغة محاولة فاشلة لتقنـين جريمة الزنا ووضعها في سياق شرعي.. والشرع بريء من هذا كله.

**.......................

ومن الضروري هنا – لقناعتي الشخصية بهذا الـرأي – أن أعرض لما قاله[1] الدكتور محمد الشـحات الجنـدي أستاذ الشريعة الإسلامية ووكيل كلية الحقوق جامعة طنطـا وكان كالتالي:

الزواج العرفي من الممارسات المغلوطة التي طغـت على سطح المجتمع المصري الآن وسادت بين كثيـر مـن الشباب وطلبة الجامعات بل في المرحلـة الثانويـة أيضـا، وهناك اعتقاد خاطئ لدى هـؤلاء جميعـا حـول المفهـوم الصحيح للزواج في المنظور الإسلامي القائم على الميثـاق الغليظ لأواصر وروابط متينة في بناء أسـرة قويـة تتمتـع بالصحة الإيمانية والاجتماعية والإنسانية تحقيقًا لهذا الميثـاق الذي عبر عنه قوله تعالى: وكيف تأخذونـه وقـد أفضـى

[1]) جريدة الجمهورية ٢٣ مايو ١٩٩٧.

بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقًا غليظًا". أما ما يدعيـه البعض من أن التشريع يبيح الزواج العرفي الـذي يتحقـق باتفاق عشوائي بين فتى وفتاة غير ناضـجين انـدفاعا وراء رغبة جامحة لنداء جنسي في رغبة لا تختلف عـن مثيلتهـا التي تحدث بين حيوان وآخر.. فهذا الادعاء كذب وافتـراء على الشريعة.

إن ما يقوله شاب لفتاة: زوجيني نفسك.. فترد عليـه: زوجتك نفسي دون شهود أو علم الأسرتين لهو زواج محرم ويقع باطلاً.. وإن كان يحتوي على صيغة إيجاب وقبـول.. فهذا الزواج العرفي لم تتحقق فيه أركانه فضلاً عن جوانـب المودة والرحمة والأمـان النفسـي والاجتمـاعي والعقلـي والوجداني تحقيقًا لقوله تعالى: "ومن آياته أن خلق لكم مـن أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بيـنكم مـودة رحمـة".. ووسيلة هذا الأمان والاستقرار لهذه العلاقة القدسية لا تتم إلا بأن تكون على مرأى ومسـمع مـن الأسـرتين والأقـارب والمعارف، وهذا ما عناه الرسول صلى ا عليـه وسـلم: "أعلنوا النكاح – الزواج – واضربوا عليه بالدفوف".. وهـذا من أجل تمييز العلاقات المشروعة من غيرها.

إن الفقهاء استخلصوا من ذلك أن الشهود فـي عقـد الزواج لو تواصوا بالكتمان فإن عقد الزواج يكـون فاسـدا وينتقل من المشروعية إلى عدم المشروعية، ومن الإباحة إلى الحظر.. فما بالنا بالزواج العرفي القائم على الكتمان وإيصاء الشاهدين بالكتمان فهو من باب أولـى زواج فاسـد دينيـا واجتماعيا.

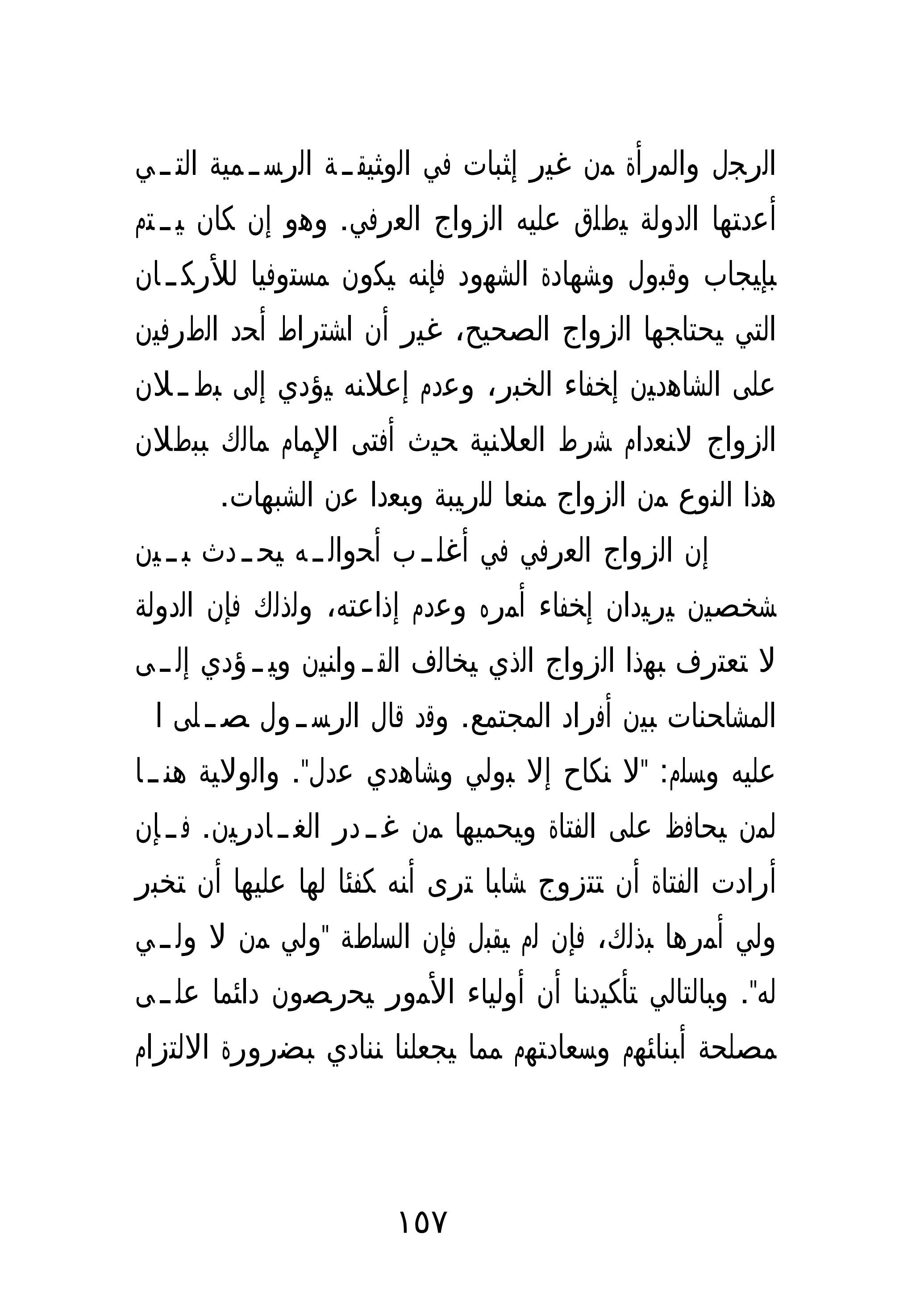
**.........................

لقد ضرب الدكتور محمد الشحات في الصميم ولمـس أشد الجوانب حساسية. فما فائدة شهود على زواج لا يبـدو لوجودهم قيمة لأنهم مطالبون بالصمت وعدم الكلام أو ذكـر أي شيء عن الأمر الذي شهدوا عليه. ومن هنـا لا يبقـى الزواج العرفي حلالاً كما يتصور الكثيرون. ويكفي أن ننظر لكل حالة زواج على حدة لنكشف أن كل واحدة منها افتقدت جانبا مهما أو ركنًا أساسيا يجعل هذا الزواج يـدخل دائـرة الحرام.

ويقول الدكتور عبد الرحمن العدوي([1]) أسـتاذ الفقـه وعضو مجمع البحوث الإسلامية إن الزواج الذي يـتم بـين

---

[1]) جريدة الأهرام المسائي، ١٢ نوفمبر ١٩٩٣.


الرجل والمرأة من غير إثبات في الوثيقـة الرسـمية التـي أعدتها الدولة يطلق عليه الزواج العرفي. وهو إن كان يـتم بإيجاب وقبول وشهادة الشهود فإنه يكون مستوفيا للأركـان التي يحتاجها الزواج الصحيح، غير أن اشتراط أحد الطرفين على الشاهدين إخفاء الخبر، وعدم إعلانه يؤدي إلى بطـلان الزواج لانعدام شرط العلانية حيث أفتى الإمام مالك ببطلان هذا النوع من الزواج منعا للريبة وبعدا عن الشبهات.

إن الزواج العرفي في أغلـب أحوالـه يحـدث بـين شخصين يريدان إخفاء أمره وعدم إذاعته، ولذلك فإن الدولة لا تعترف بهذا الزواج الذي يخالف القـوانين ويـؤدي إلـى المشاحنات بين أفراد المجتمع. وقد قال الرسـول صـلى ا عليه وسلم: "لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل". والولاية هنـا لمن يحافظ على الفتاة ويحميها من غـدر الغـادرين. فـإن أرادت الفتاة أن تتزوج شابا ترى أنه كفئا لها عليها أن تخبر ولي أمرها بذلك، فإن لم يقبل فإن السلطة "ولي من لا ولـي له". وبالتالي تأكيدنا أن أولياء الأمور يحرصون دائما علـى مصلحة أبنائهم وسعادتهم مما يجعلنا ننادي بضرورة الالتزام

برأي الآباء وعدم مخالفتهم إلا في حالات معينة وبأسـاليب مقنعة للمجتمع.

**..................

وعلى ما يبدو أن اختلاف الآراء حول الزواج العرفي. ورؤية البعض له أنه حلال، ورؤية الـبعض الآخـر أنـه حرام.. كان السبب في صدور بيان مهم من مجمع البحـوث الإسلامية في شهر مايو عام ١٩٩٩ وقع عليه الأمين العـام للمجمع – سامي محمد متولي الشعراوي. وكان هذا هو نص البيان:

١- أوجد ا – تعالى – الناس جميعا من أب واحـد ومن أم واحدة قال تعالى.. "يا أيها الناس اتقوا ربكـم الـذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجـالاً كثيرا ونساء..." سورة النساء – الآية ١.

فهذه الآية الكريمة تدل على أن الناس جميعا قد جاءوا من أصل واحد، كما تدل علـى أن الـزواج هـو الطريـق الشرعي الصحيح، الذي اختاره الخالق – عز وجل – لعمارة الكون ولوجود الذرية التي تأتي عن طريـق هـذا الـزواج الشرعي الصحيح.

٢- بل إن القرآن الكريم قد وضح أن الزوجية سـنة من سنن ا في خلقه وهذه السنة مطردة في عالم الإنسـان، وفي عالم الحيوان، وفي عالم النبات، وفي عوالم أخـرى لا يعلمها إلا ا تعالى، قال سبحانه: "ومن كـل شـيء خلقنـا زوجين لعلكم تذكرون".. الذرايات: ٤٩. أي: ومن كل شيء في هذا الكون أوجدنا نوعين متقابلين، كالذكر والأنثى والليل والنهار، والسماء والأرض. وقد فعلنا ذلك لعلكـم تعتبـرون وتتعظون وتشكرون خالقكم على نعمه.

٣- وقد وضعت شريعة الإسلام لعقد الزواج أركانـًـا وشروطًا، لا بد من تحققها لكي يكون صحيحا، ومن أهم هذه الأركان والشروط عن جمهور الفقهاء:

(أ) أن يكون مشتملاً على الإيجاب والقبول أي: علـى التراضي بين الزوجين دون إكراه.

(ب) أن يتولى عقد الزواج ولي المـراة التـي يـراد الزواج بها أو نائبه، فعن أبي موسى الأشعري – رضي ا عنه – أن رسول ا صلى ا عليه وسلم قال: "لا نكـاح إلا بولي" رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

وعن عائشة – رضي ا عنها – أن رسول ا صلى ا عليه وسلم قال: "أيما امرأة نكحت – أي زوجت - نفسها بغير إذن وليها، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل" رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة.

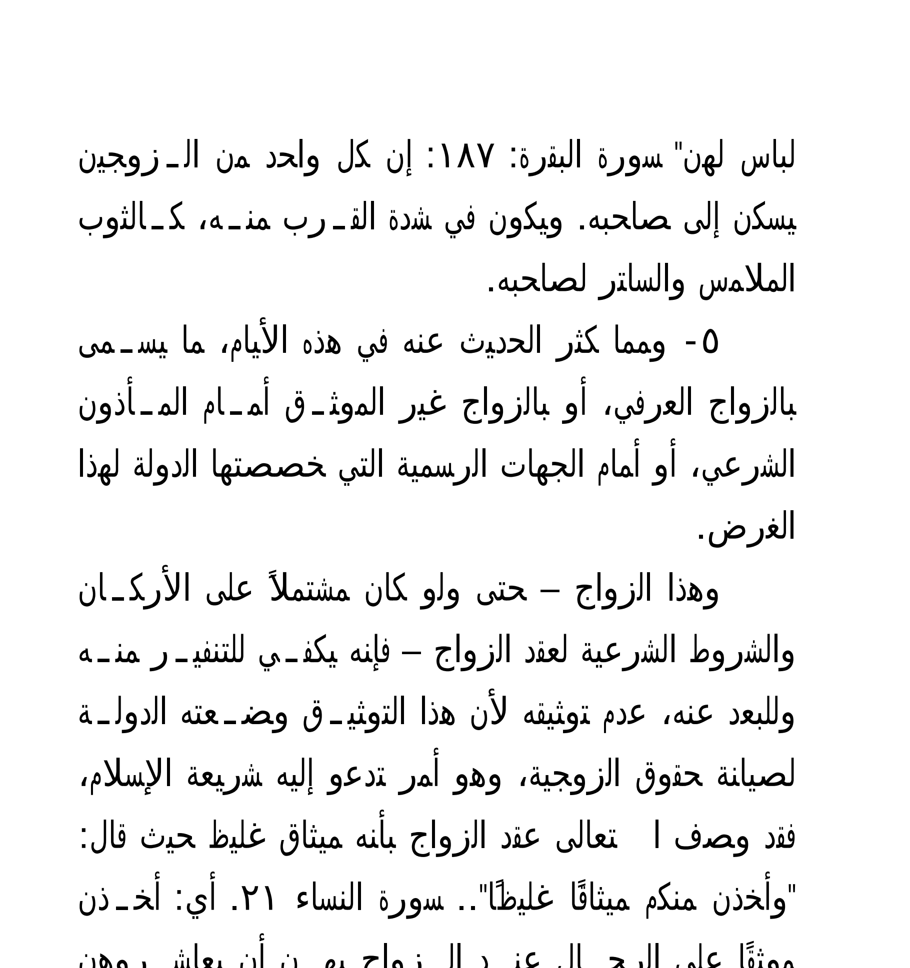
جـ - أن يشهد على العقد شاهدان: فعـن عائشـة – رضي ا عنها – قالت: قال رسـول ا صـلى ا عليـه وسلم: "لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل" رواه الدارقطني.

د – أن يعلن الزواج بأية وسيلة كانت، لقول الرسـول صلى ا عليه وسلم:

"أعلنوا النكاح ولو بالدفوف".

٤- هذه هي أهم الأركان والشـروط عنـد جمهـور الفقهاء للزواج الشرعي الصحيح وهي كلها من أجل مصلحة الزوجين اللذين جعل ا ارتباطهما يقوم على سكن أحـدهما إلى الآخر، وعلى المودة والرحمة.

ولا نجد جملة فيها ما فيها من اللطافة والأدب وسـمو التصوير لما بين الزوجين من شدة الاتصال والقرب واستتار أحدهما بالآخر. أقول لا نجد جملة فيها كـل هـذه المعـاني الكريمة تقرب في سموها من قوله تعالى "هن لباس لكم وأنتم



لباس لهن" سورة البقرة: ١٨٧: إن كل واحد من الـ زوجين يسكن إلى صاحبه. ويكون في شدة القـ رب منـ ه، كـ الثوب الملامس والساتر لصاحبه.

٥- ومما كثر الحديث عنه في هذه الأيام، ما يسـ مى بالزواج العرفي، أو بالزواج غير الموثـ ق أمـ ام المـ أذون الشرعي، أو أمام الجهات الرسمية التي خصصتها الدولة لهذا الغرض.

وهذا الزواج – حتى ولو كان مشتملاً على الأركـ ان والشروط الشرعية لعقد الزواج – فإنه يكفـ ي للتنفيـ ر منـ ه وللبعد عنه، عدم توثيقه لأن هذا التوثيـ ق وضـ عته الدولـ ة لصيانة حقوق الزوجية، وهو أمر تدعو إليه شريعة الإسلام، فقد وصف ا تعالى عقد الزواج بأنه ميثاق غليظ حيث قال: "وأخذن منكم ميثاقًا غليظًا".. سورة النساء ٢١. أي: أخـ ذن موثقًا على الرجـ ال عنـ د الـ زواج بهـ ن أن يعاشـ روهن بالمعروف.

ومع أن الآخذ لهذا العقد في الحقيقة هو ا تعالى، إلا أنه سبحانه نسبه إلى النساء للمبالغة فـ ي المحافظـ ة علـ ى حقوقهن حتى جعلهن سبحانه كأنهن الآخذات لهذا العهد.

وفضلاً عن ذلك، ففي عدم توثيق عقد الـزواج أمـام المأذون الشرعي أو الجهـات الرسـمية المخصصـة لهـذا الغرض أضرار كثيرة معظمها يعود على المرأة إذ تتحمـل هي أخطر أوزاره، وأفدح نتائجـه، فـي عرضـها، وفـي سمعتها، وتغلق دونها أبواب القضاء عنـد الإنكـار، الـذي يحدث غالبا فلا تسمع دعواها، ولا تحظـى بـأي حقـوق، ويضيع ولدها، فلا اعتراف بنسبه ولا نفقة لـه، ولا رعايـة لشئونه من والده أو من عشيرة والدته.

٦- لهذه الأضرار وغيرها يـرى مجمـع البحـوث الإسلامية أن على الجهات التشريعية في الدولـة أن تصـدر قانونًا يشتمل على عقوبة مناسبة تقع على كل من يثبت عليه أن تزوج زواجا لم يوثق أمام المـأذون الشـرعي أو أمـام الجهات الرسمية التي خصصتها الدولة لهذا الغرض وعلـى كل من قام بالشهادة على هذا العقد أو اشترك فيه بأية صورة من الصور، لمخالفته للنظام الصحيح الذي وضـعته الدولـة لعقد الزواج والذي تقره وتؤيده شريعة الإسـلام. علـى ألا يسمح القانون الذي يصدر بأن يفلت من العقاب مـن ينكـر وقوع الزواج غير الموثق ثبوت قيام علاقة غير شرعية.

**..............................

لم يبق بعد هذا البيان الواضح المحدد الـذي طالـب بمعاقبة من يتزوج عرفيا أو من يشهد عليـه سـوى هـذه المناظرة – غير المرتبة – بين اثنين من المتخصصين فـي الفقه والشريعة.. وكان لكل منهما رأي مخالف في الـزواج العرفي.

المناظرة كانت عبارة عن مقال كتبه الـدكتور يحيـى هاشم حسن فرغل، وهو عميد كلية أصول الـدين بـالأزهر سابقًا، ومدير مكتب شيخ الأزهر الدكتور عبد الحليم محمود سابقًا وأستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة الإمارات حاليـا – وكان عنوانه: الرجوع إلى الحق فضيلة.. خطاب مفتوح إلى القائمين على أمر التشريع حول تحريم الزواج العرفي.. فرد عليه الدكتور عمر نجار علي عبد الحافظ.. وهـو مـدرس الحديث وعلومه بكلية أصول الدين بطنطا.. بمقال آخر تحت عنوان: حول قضية الزواج العرفي.. أي حـق هـذا الـذي يرجع إليه؟.. وكان كل ما كتب يستحق التأمل والتدقيق.

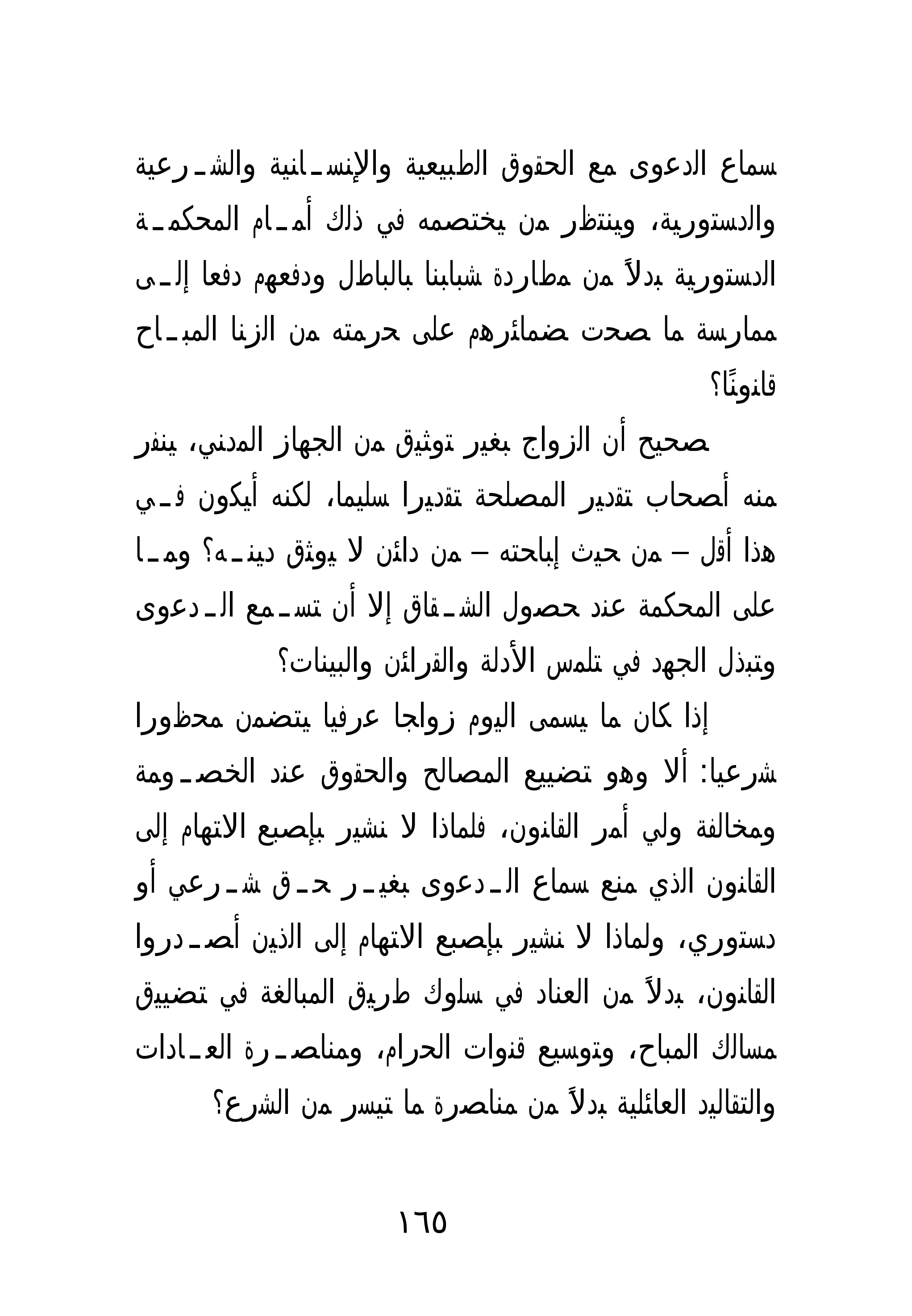
في المقام الأول[1].. قال الدكتور يحيى هاشم فرغل:

---

[1]) جريدة الشعب – ١٦ يوليو ١٩٩٩.

صحونا بعد أكثر من ثلاثة قرون على فتـوى فقهـاء عصريين يدمغون ما عقد عليه الآباء والأجداد زواجهم بأنـه (زواج مشبوه، وزنا فاضح)!! لمحض أنه لم يوثق في دوائر التوثيق المدني، ويسمونه (الزواج العرفـي) ومـا هـو إلا الزواج الشرعي على طول تاريخ المجتمع الإسـلامي منـذ ظهور الإسلام، ما دام قد خلا من الموانع، وقام على الأركان والشروط المتفق عليها شرعا من الإيجاب والقبول والمهـر والشاهدين على سنة ا ورسوله.. ما الذي حدث؟ وما هـو الزلزال الذي صحوا على ضرباته ليطلقوا أحكامهم الفقهيـة العصرية تلك؟.. الآن طائفة من الشباب أرادوا أن يهجـروا الزنا المباح في عرف القانون وعرف الفن وعرف الإعـلام ويلجأوا إلى زواج صحيح شرعا قد لا يرضى عنـه الآبـاء والأمهات..

صحيح أن الزواج بغير توثيق مـن الجهـاز المـدني يعرض أصحابه لمخاطر عدم سماع الدعوى أمام المحـاكم، وما يترتب على ذلك من ضياع الحقوق والأنسـاب.. إلـخ. طبقًا لقانون الأحوال الشخصية، لكن لم يكن من الممكـن أن نطالب بتغيير هذا القانون الذي لا شك أنه يتعارض في منع



سماع الدعوى مع الحقوق الطبيعية والإنسانية والشرعية والدستورية، وينتظر من يختصمه في ذلك أمام المحكمة الدستورية بدلاً من مطاردة شبابنا بالباطل ودفعهم دفعا إلى ممارسة ما صحت ضمائرهم على حرمته من الزنا المباح قانونًا؟

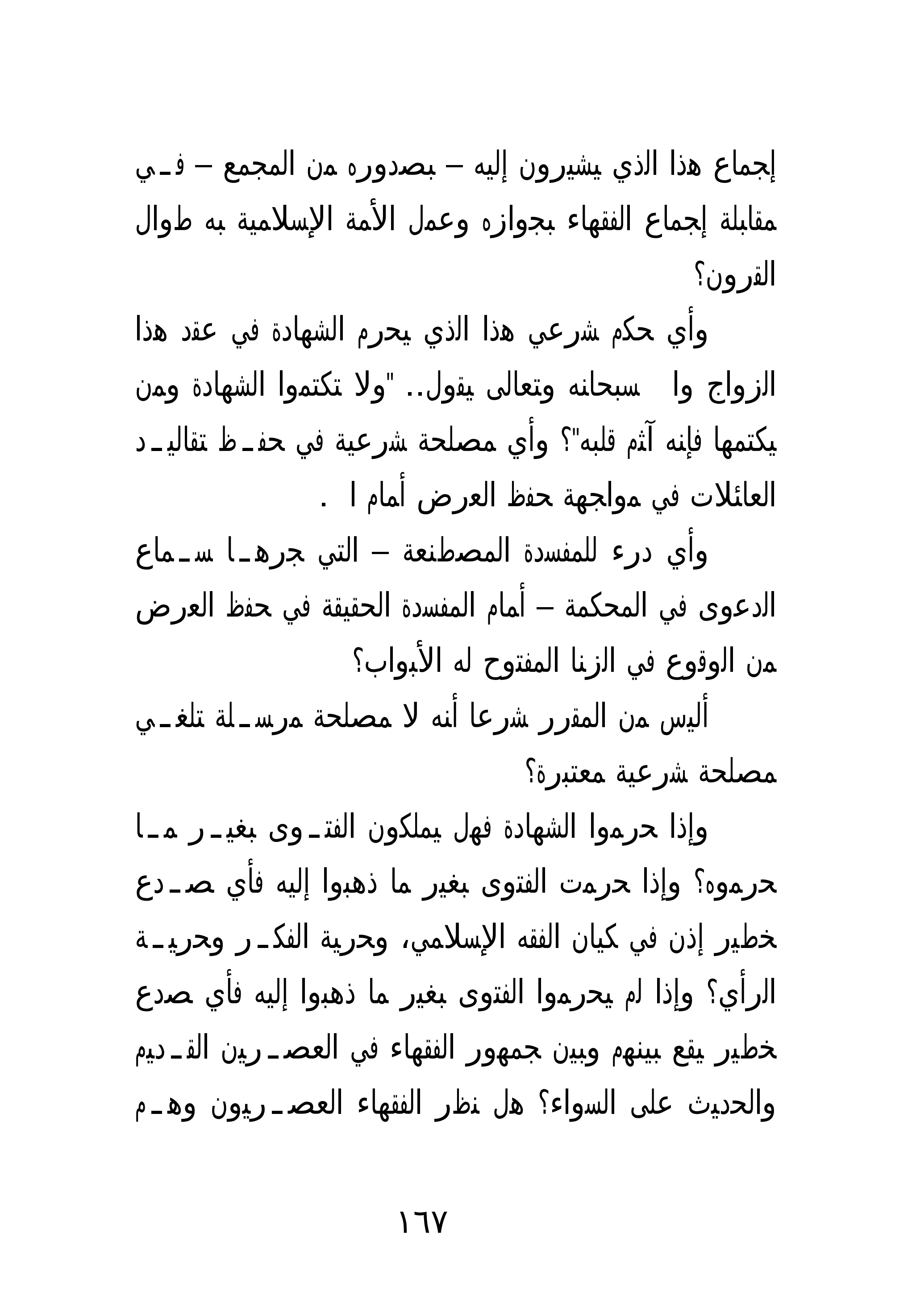
صحيح أن الزواج بغير توثيق من الجهاز المدني، ينفر منه أصحاب تقدير المصلحة تقديرا سليما، لكنه أيكون في هذا أقل – من حيث إباحته – من دائن لا يوثق دينه؟ وما على المحكمة عند حصول الشقاق إلا أن تسمع الدعوى وتبذل الجهد في تلمس الأدلة والقرائن والبينات؟

إذا كان ما يسمى اليوم زواجا عرفيا يتضمن محظورا شرعيا: ألا وهو تضييع المصالح والحقوق عند الخصومة ومخالفة ولي أمر القانون، فلماذا لا نشير بإصبع الاتهام إلى القانون الذي منع سماع الدعوى بغير حق شرعي أو دستوري، ولماذا لا نشير بإصبع الاتهام إلى الذين أصدروا القانون، بدلاً من العناد في سلوك طريق المبالغة في تضييق مسالك المباح، وتوسيع قنوات الحرام، ومناصرة العادات والتقاليد العائلية بدلاً من مناصرة ما تيسر من الشرع؟

صحيح أن الزواج بغير توثيق من الجهاز المـدني: لا أرضاه لنفسي أو لابنتي، لكن من قال: إن الواحد منا يجـب أن يمارس كل ما هو مباح؟ وهل يجب عليه أن يقبل كل ما يعرض له من الزواج الموثق مثلاً؟ أليس من المباح أن ينتقي الواحد منا ما يستحسنه من "المباحات" ويبتعد عما يكره دون قفز من أحد إلى مرتبة التحريم؟

وإذا كان الفقهاء العصريون قد أفتوا بتحريم الـزواج العرفي فهل ضمنوا بذلك إغلاق أفواه غيرهم مـن المفتـين ممن لا يجدون لذلك مسوغا شرعيا من كتـاب أو سـنة، أو مصلحة معتبرة شرعا ترجح مفسدة محرمة شرعا في بـاب الموازنة بين درء المفاسد وجلب المصالح وسيظلون يفتـون بجوازه – من غير استحسان له – إلى يوم القيامة؟

أليس الأخذ بيد الشباب.. إلى المبـاح شـرعا – فـي الزواج العرفي – للخروج مـن خضـم الإباحيـة، الـذي يتعرضون له حيثما توجهت أبصارهم، أولـى شـرعا مـن رعاية خواطر الآباء والأمهات الذين يرغبون لأبنائهم وبناتهم في زواج مقبول عائليا، هذه الرعاية التي سـيطرت علـى أصحاب الفتوى لكونهم من طبقـة الآبـاء والأمهـات؟ وأي



إجماع هذا الذي يشيرون إليه – بصدوره من المجمع – في مقابلة إجماع الفقهاء بجوازه وعمل الأمة الإسلامية به طوال القرون؟

وأي حكم شرعي هذا الذي يحرم الشهادة في عقد هذا الزواج وا سبحانه وتعالى يقول.. "ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه"؟ وأي مصلحة شرعية في حفظ تقاليد العائلات في مواجهة حفظ العرض أمام ا .

وأي درء للمفسدة المصطنعة – التي جرها سماع الدعوى في المحكمة – أمام المفسدة الحقيقة في حفظ العرض من الوقوع في الزنا المفتوح له الأبواب؟

أليس من المقرر شرعا أنه لا مصلحة مرسلة تلغي مصلحة شرعية معتبرة؟

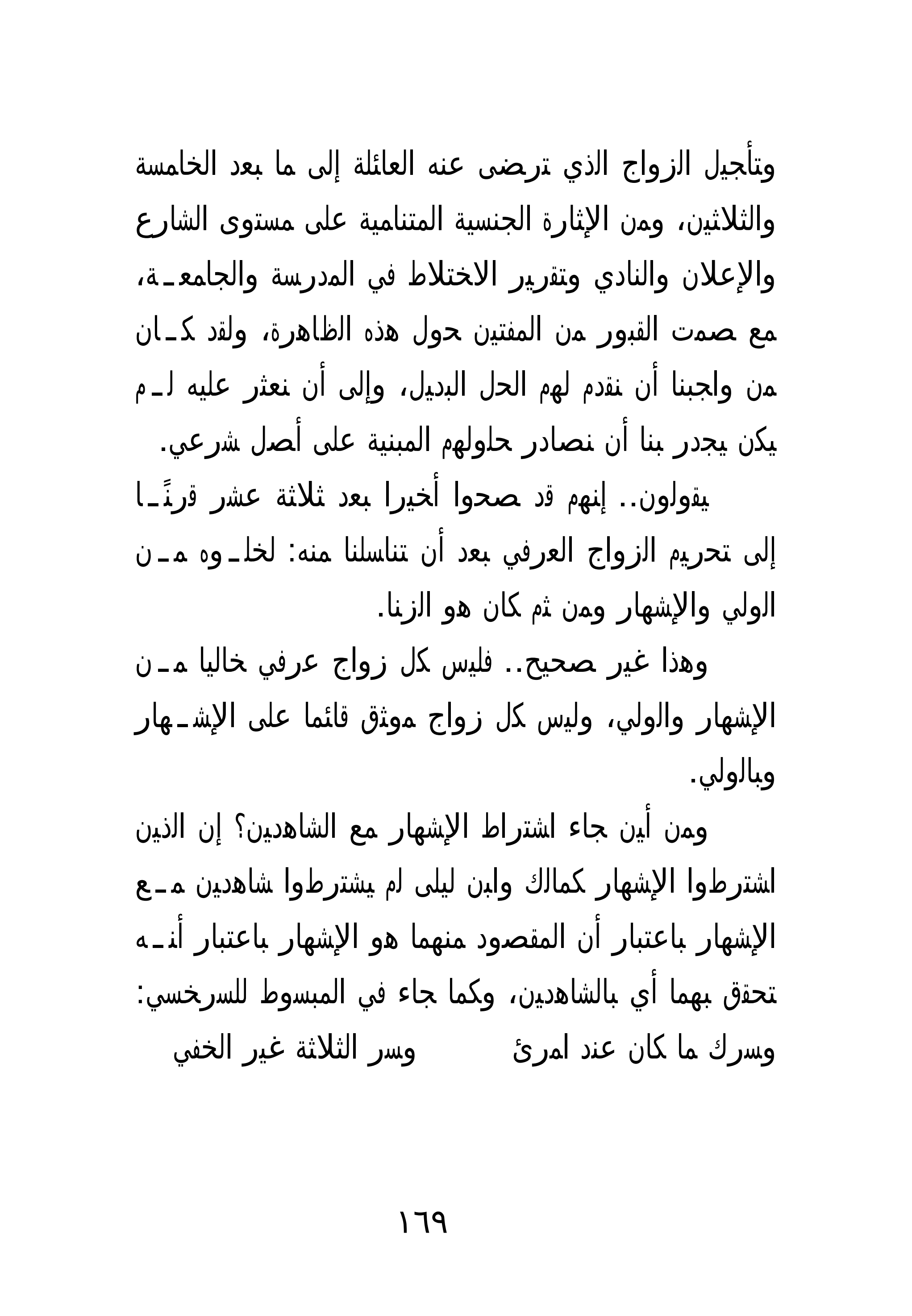
وإذا حرموا الشهادة فهل يملكون الفتوى بغير ما حرموه؟ وإذا حرمت الفتوى بغير ما ذهبوا إليه فأي صدع خطير إذن في كيان الفقه الإسلامي، وحرية الفكر وحرية الرأي؟ وإذا لم يحرموا الفتوى بغير ما ذهبوا إليه فأي صدع خطير يقع بينهم وبين جمهور الفقهاء في العصرين القديم والحديث على السواء؟ هل نظر الفقهاء العصريون وهم

يصدرون هذا التحريم إلى ما ورد بتحقيق من تحقيقات الأهرام من أن حوادث الخطف والاغتصاب بمصر بلغت عشرة آلاف في العام أخيرا بواقع ٢٧ حادثة كل ساعة تقريبا؟

هل نظروا وهم يزنون الأمر بميزان المصلحة المرسلة إلى ما جاء في تحقيق الأهرام ١٩٩٩/٥/١٥ عن شباب ضائع بغير زواج، بنات في سن الزواج في انتظار ابن الحلال، وخروج عن المألوف في اللبس والمشي في الشوارع، بيت لا يسأل وأب ينفض يده من كل شيء، وأم لا تهتم إلا بجمال ابنتها، وإخوة كل واحد في حاله، مدرسة لا تراقب، وجامعة لا تحاسب، وأساتذة لم يعودوا قدوة للشباب.. إلخ إلخ.

أبعد هذا إذا تطلعت طائفة من هؤلاء الشباب إلى تصحيح وضعهم أمام ا – ولو مع شيء من الكراهة – يأتي من يحرم عليهم ما أحل ا ؟

إننا يجب أن نعترف بأن الزواج العرفي –بشروطه الشرعية المتفق عليها – هو الحل الذي توصل إليه جيل من الشباب، في مواجهة واقع أليم. من بعد الضيق الاقتصادي،



وتأجيل الزواج الذي ترضى عنه العائلة إلى ما بعد الخامسة والثلاثين، ومن الإثارة الجنسية المتنامية على مستوى الشارع والإعلان والنادي وتقرير الاختلاط في المدرسة والجامعـة، مع صمت القبور من المفتين حول هذه الظاهرة، ولقد كـان من واجبنا أن نقدم لهم الحل البديل، وإلى أن نعثر عليه لـم يكن يجدر بنا أن نصادر حلولهم المبنية على أصل شرعي.

يقولون.. إنهم قد صحوا أخيرا بعد ثلاثة عشر قرنًـا إلى تحريم الزواج العرفي بعد أن تناسلنا منه: لخلـوه مـن الولي والإشهار ومن ثم كان هو الزنا.

وهذا غير صحيح.. فليس كل زواج عرفي خاليا مـن الإشهار والولي، وليس كل زواج موثق قائما على الإشـهار وبالولي.

ومن أين جاء اشتراط الإشهار مع الشاهدين؟ إن الذين اشترطوا الإشهار كمالك وابن ليلى لم يشترطوا شاهدين مـع الإشهار باعتبار أن المقصود منهما هو الإشهار باعتبار أنـه تحقق بهما أي بالشاهدين، وكما جاء في المبسوط للسرخسي:

وسرك ما كان عند امرئ   وسر الثلاثة غير الخفي

وبعد: فما بال القائمين على التشريع يتناسون أنه فـي طبيعة التشريع الإسلامي لا بد من أن يرتكز الحـل علـى التربية الدينية التي تم تجفيف منابعها منذ عقود طويلة مـن الزمن.

ومن جهة اشتراط الولي.. كيف تجاهلنا فجأة مـذهب الإمام أبي حنيفة في الموضوع كأنه لم يظهر إلى الوجـود؟ ومن يملك أن يوصد أبوابه أمام من يأخذ به في هذه المسألة من الشباب؟

إن عقد الزواج الموثق الذي يقوم به مأذون الوزارة.. يصرح فيه عادة بأنه (على كتاب ا وسنة رسوله، وعلـى مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان) ومذهب أبي حنيفـة النعمان لا يشترط الولي عند عقد الزواج للمرأة البالغة، وهو نفس المذهب الذي كان المرجح في القضاء والفتوى في طول الإمبراطورية الإسلامية العثمانية وعرضها.

ومن أين صح للفقهاء العصريين أخيرا أن مذهب أبي حنيفة النعمان يتعارض مع الحديث الشريف فـي موضـوع الولي، اللهم إلا أن يكون الإلهام أخيرا في الفتوى مستمدا من مذاهب ذاعت وشاعت في موكب (الثـورة) الجديـدة!؟ وأن

يكون الإلهام مستمدا من تيارات: تتجه نحـو مـا يسـمونه "بالمجتمع المدني" وتنتصر له، وأصحابه إنما يعنـون شـيئًا خفيا.

أليس من التناقض أن نهجر اليوم مذهب أبـي حنفيـة عدم اشتراط الولي في الزواج، وننزع عن المـرأة البالغـة صلاحيتها في الولاية على نفسها في الـزواج بعـد قـرون طويلة من هذه الممارسة، في الوقت الذي تتجه فيه الفتـاوى من هنا ومن هناك إلى صحة ولاية المرأة: قاضية ووزيـرة وسفيرة. إلخ ما هناك؟ نعم لقد ذهب جمهور الفقهاء – ما عدا الحنفية – إلى أن تزويج المرأة نفسها باطل، ولا ينعقد النكاح بعبارة النساء أصلاً، سواء زوجت نفسها أو بنتها، أو توكلت بالزواج من الغير.

وحجتهم الأساسية في ذلك حديث عائشـة رضـي ا عنها أن النبي صلى ا عليه وسلم قال.. "أيما امرأة نكحـت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل باطل باطل".. وقـد تـم تخريج هذا الحديث في مصادر حديثية كثيرة ليس من بينهـا البخاري ومسلم.. وحديث "لا نكاح إلا بولي" الذي أخرجـه

الحاكم في مستدركه والترمذي في سننه، والبيهقي في سـننه الكبرى.

وحديث "لا تزوج المرأة المرأة، ولا المرأة نفسها، فإن الزانية هي التي تنكح نفسها" وخرجه ابن ماجة فـي سـننه والدارقطني، والبيهقي في سننه الكبرى.

لكن إذا أراد فقهاء العصر أن يعرفوا: كيف أن مذهب أبي حنيفة في عدم اشتراطه الولي فـي عقـد الـزواج لـم يتعارض مع الحديث فليقرءوا ما كتبه أحد أئمة المذهب مـن ذلك، وهو الإمام الطحاوي في كتابه معالم الآثـار.. إن مـا ذهب إليه الحنفية هو.. أن لها أن تزوج نفسـها، وزواجهـا عندئذ صحيح، سواء كان الزوج كفئا أو غير كفء، إلا أنـه إن لم يكن كفئا فللأولياء حق الاعتراض. وحجة الحنفية فـي ذلك من القرآن والحديث والمعقول:

(أ) أما من القرآن فقوله تعـالى.. "فـلا جنـاح عليهن فيما فعلن في أنفسهن" وقوله تعالى.. "حتى تنكح زوجا غيره" وقوله تعـالى.. "أن ينكحن أزاوجهن".. حيث أضاف العقد إليهن

في هذه الآيات فدل على أنها تملك مباشـرة العقد.

(ب) وأما الحديث: (١) فقوله – صلى ا عليـه وسلم -: "الأيم أحق بنفسها من وليها" رواه الترمذي في سننه، والأيم اسم للمرأة التي لا زوج لها، بكرا كانت أو ثيبـا، وهـذا هـو الصحيح عند أهل اللغة وهو اختيار الكرخي إذ قال: الأيم من النسـاء كـالأعزب مـن الرجال. كما يقول الإمـام الطحـاوي فـي كلامه عن هذه المسألة في كتابـه المسـمى (شرح معاني الآثار).

٢- حديث الخنساء حيث قالت بين يدي الرسول – صلى ا عليه وسلم -: "أردت أن تعلم النساء أن ليس إلى الآباء مـن أمور بناتهم شيء".

٣- وقوله – صلى ا عليه وسلم – بخصوص الثيب "لـيس لولي مع الثيب أمرا" ورواه ابن حيان في صحيحه.

٤- وأنه لما خطب رسول ا – صلى ا عليه وسـلم – أم سلمة رضي ا عنها اعتذرت باعتذار من جملته أن أولياءها

غيب، فقال – صلى ا عليه وسلم - ليس من أوليائك من لا يرضى في ، قم يا عمر فزوج أمك من رسول ا – صـلى ا عليه وسلم – خاطب به عمر بن أبي سلمة، وكـان ابـن سبع سنين، لا ولاية له، ولما لم ينتظر النبـي – صـلى ا عليه وسلم – حضور أوليائها دل ذلك على أن أمرها إليهـا دونهم" فإن قيل: إن النبي – صلى ا عليه وسـلم – أولـى بكل مؤمن من نفسه – فلا يقاس عليه – قيل له: صدقت هو أولى به من نفسه يطيعه في أكثر مما يطيع نفسه، فأمـا أن يكون هو أولى به من نفسه في أن يعقد عليه بغير أمره مـن بيع أو نكاح أو غير ذلك فلا.

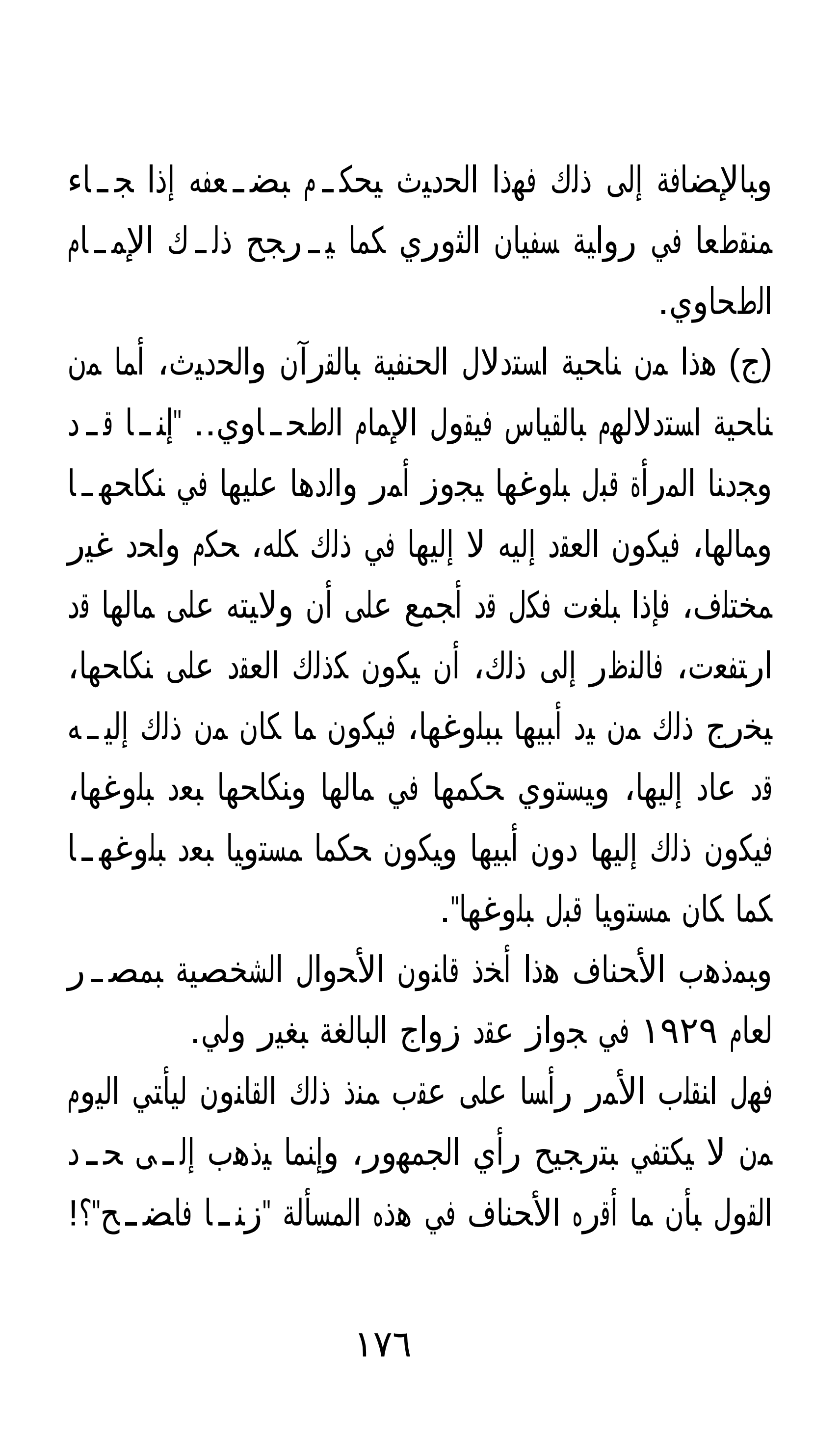
٥- وأنه – كما يقول الإمام الطحاوي – روي عـن عمـر وعلي وابن عمر رضي ا عنهم جواز زواج النكاح بغيـر ولي.

٦- وأن عائشة رضي ا عنها زوجت ابنة أخيها، حفصـة بنت عبد الرحمن، المنذر بن الزبير، وهو – أي أخوهـا – غائب، فلما رجع قال: أو مثلي يفتات عليه في بناته؟ فقالـت عائشة رضي ا عنها: أو ترغب عن المنذر؟ وا لتملكنـه أمرها.

وبهذا تبين للأحناف أن ما روى من حديث عائشة – الـذي ورد فيه (فنكاحها باطل) – غير صحيح، بناء على ما يقرره العلماء من أن فتوى الرواي وهو هنا عائشة رضي ا   عنها بخلاف الحديث دليل ضعف الحديث.

٧- وأن حديث عائشة المذكور رواه ابن جريج عن موسـى بن سليمان عن الزهري في جميع الروايات، ثم إن ابن جريج سأل الزهري عنه فقال: إنه لا يعرفه! وجوز النكـاح بغيـر ولي، يقول الإمام الطحاوي: (وعلمـاء الحـديث يسـقطون الحديث بأقل من هذا).

٨- وأما حديث "لا نكاح إلا بولي" فيحتمل أن يعم "الولي" هنا من له ولاية التزويج.. وهم والد الصغيرة، أو مولى الأمـة، أو البالغة الحرة لنفسها، ونظيره قوله تعالى.. "فليملل وليـه بالعدل" فولي الحق هو من له الحق، فإذا كان من له الحـق يسمى وليا كان من له التزويج يسمى وليا، والبالغـة الحـرة العاقلة واحدة من هؤلاء، فلا يصرف الولي إلى بعض أنواعه دون بعض.



وبالإضافة إلى ذلك فهذا الحديث يحكـم بضـعفه إذا جـاء منقطعا في رواية سفيان الثوري كما يـرجح ذلـك الإمـام الطحاوي.

(ج) هذا من ناحية استدلال الحنفية بالقرآن والحديث، أما من ناحية استدلالهم بالقياس فيقول الإمام الطحـاوي.. "إنـا قـد وجدنا المرأة قبل بلوغها يجوز أمر والدها عليها في نكاحهـا ومالها، فيكون العقد إليه لا إليها في ذلك كله، حكم واحد غير مختلف، فإذا بلغت فكل قد أجمع على أن ولايته على مالها قد ارتفعت، فالنظر إلى ذلك، أن يكون كذلك العقد على نكاحها، يخرج ذلك من يد أبيها ببلوغها، فيكون ما كان من ذلك إليـه قد عاد إليها، ويستوي حكمها في مالها ونكاحها بعد بلوغها، فيكون ذلك إليها دون أبيها ويكون حكما مستويا بعد بلوغهـا كما كان مستويا قبل بلوغها".

وبمذهب الأحناف هذا أخذ قانون الأحوال الشخصية بمصـر لعام ١٩٢٩ في جواز عقد زواج البالغة بغير ولي.

فهل انقلب الأمر رأسا على عقب منذ ذلك القانون ليأتي اليوم من لا يكتفي بترجيح رأي الجمهور، وإنما يذهب إلـى حـد القول بأن ما أقره الأحناف في هذه المسألة "زنـا فاضـح"؟!

فمن يملك اليوم دفن مذهب الأحناف، واجتهاده الواضح فـي فهم الأحاديث التي تدور حول الموضوع؟

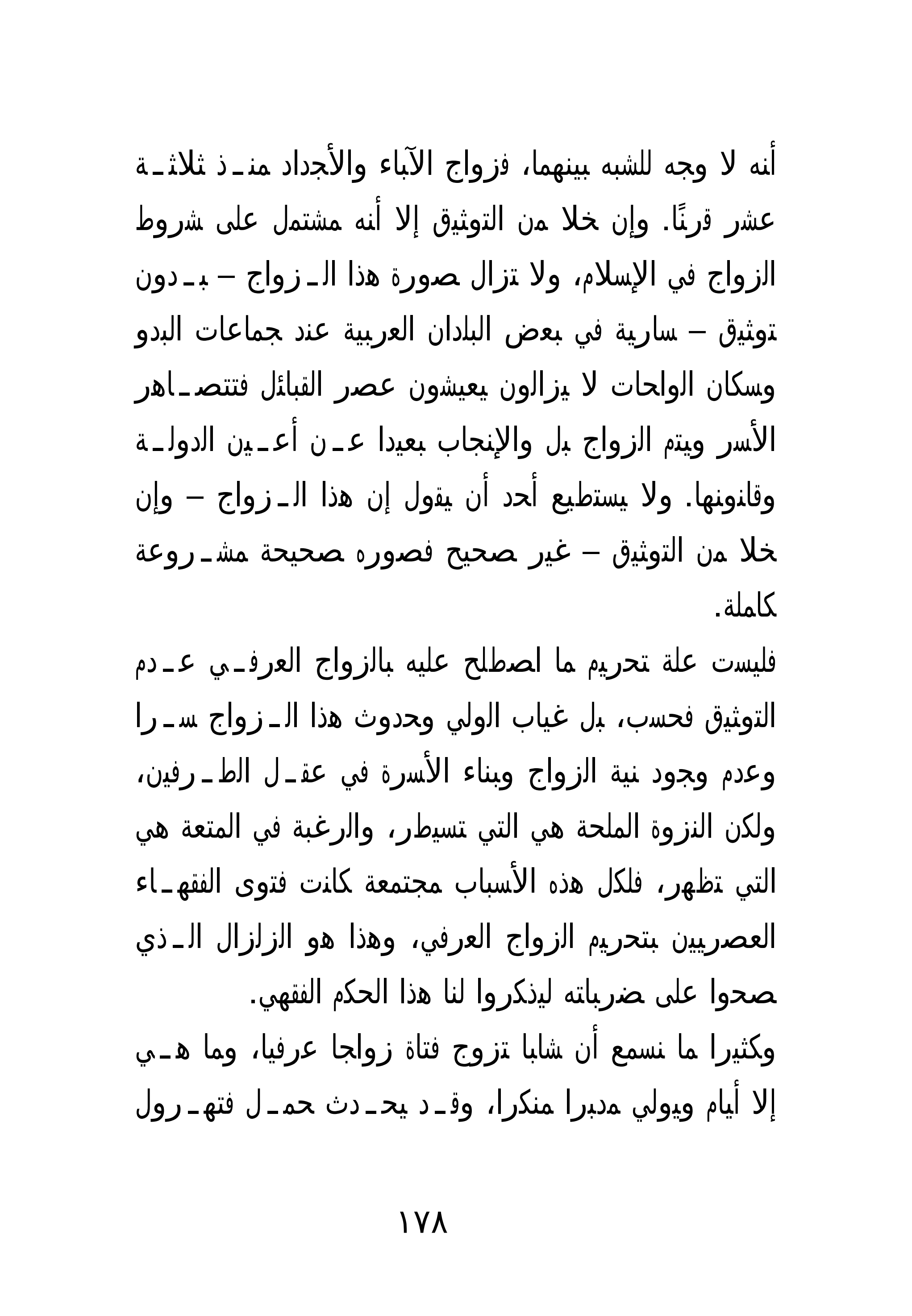
ذلكم تطرف صارخ، ومبالغة فاضحة.. وا أعلم.. ألا هـل بلغت اللهم فأشهد.

**.........................

ورد الدكتور عمر نجار علي عبد الحافظ على كل كلمة فـي المقال السابق وقال: منذ أن عملت بكلية أصول الدين بطنطا وأنا أسمع بعلم وفضل عميد الكلية الأسبق فضـيلة الأسـتاذ يحيى هاشم فاستقر في قلبي حبه وتقديره مع أنني لـم أحـظ بشرف رؤيته حتى الآن، إلا أنني فزعت إثر قراءة مقاله لأن المقال يتعلق بقضية معاصرة شائكة ألا وهي قضية الـزواج العرفي الذي إن استشرى قوض الأسرة المسلمة وهدد ركـن المجتمع.

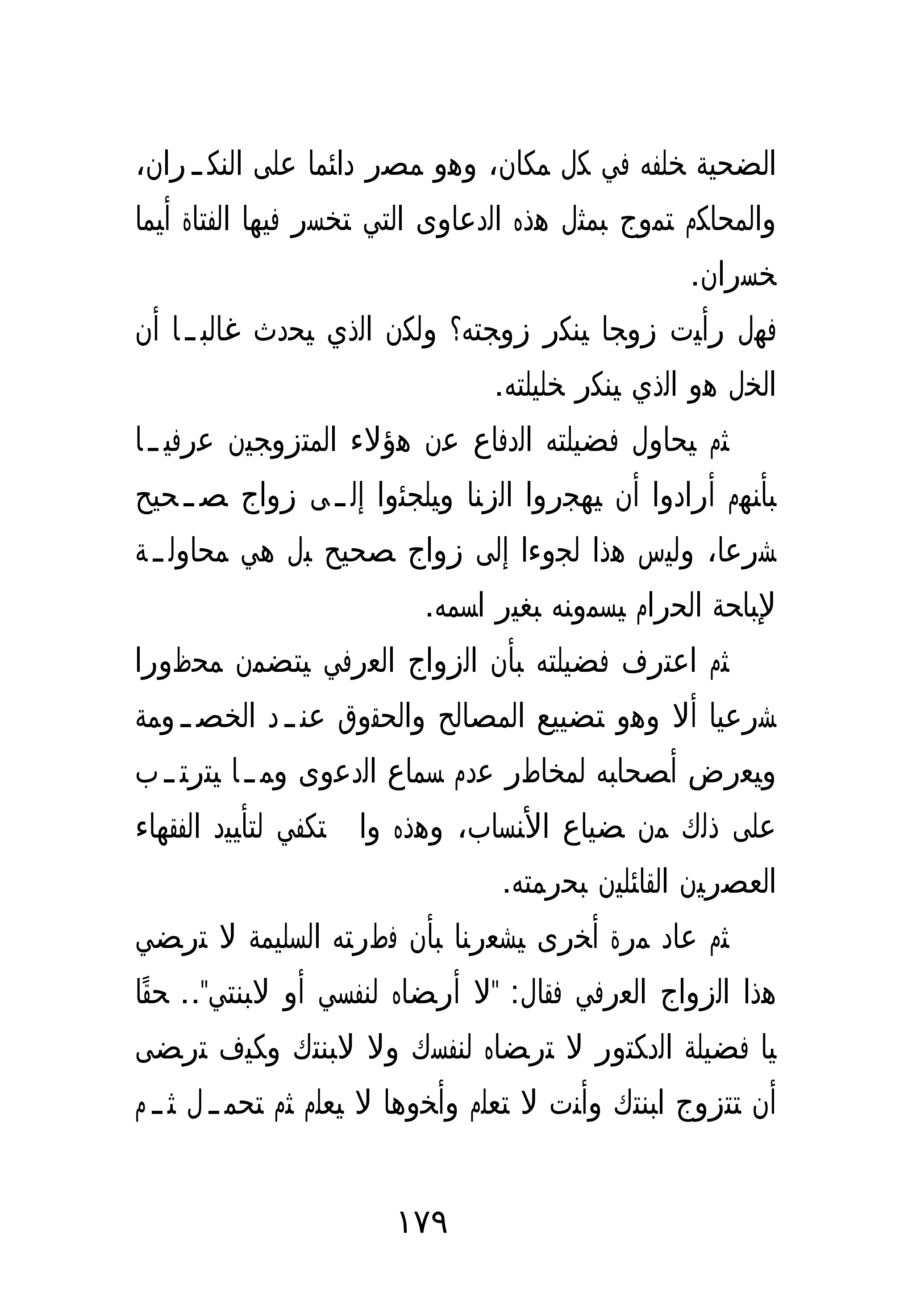
استهل فضيلته المقال بتوجيه اللائمة لفقهاء عصريين يدمغون ما عقد عليه الآباء والأجداد زواجهم بأنه زواج مشبوه وزنا فاضح لمحض أنه لم يوثق.

ولا أدري كيف جعل فضيلته فتوى الفقهاء العصريين بشـأن الزواج العرفي تسري على زواج الآباء والأجداد من قديم مع


أنه لا وجه للشبه بينهما، فزواج الآباء والأجداد منـذ ثلاثـة عشر قرنًا. وإن خلا من التوثيق إلا أنه مشتمل على شروط الزواج في الإسلام، ولا تزال صورة هذا الـزواج – بـدون توثيق – سارية في بعض البلدان العربية عند جماعات البدو وسكان الواحات لا يزالون يعيشون عصر القبائل فتتصـاهر الأسر ويتم الزواج بل والإنجاب بعيدا عـن أعـين الدولـة وقانونها. ولا يستطيع أحد أن يقول إن هذا الـزواج – وإن خلا من التوثيق – غير صحيح فصوره صحيحة مشـروعة كاملة.

فليست علة تحريم ما اصطلح عليه بالزواج العرفـي عـدم التوثيق فحسب، بل غياب الولي وحدوث هذا الـزواج سـرا وعدم وجود نية الزواج وبناء الأسرة في عقـل الطـرفين، ولكن النزوة الملحة هي التي تسيطر، والرغبة في المتعة هي التي تظهر، فلكل هذه الأسباب مجتمعة كانت فتوى الفقهـاء العصريين بتحريم الزواج العرفي، وهذا هو الزلزال الـذي صحوا على ضرباته ليذكروا لنا هذا الحكم الفقهي.

وكثيرا ما نسمع أن شابا تزوج فتاة زواجا عرفيا، وما هـي إلا أيام ويولي مدبرا منكرا، وقـد يحـدث حمـل فتهـرول

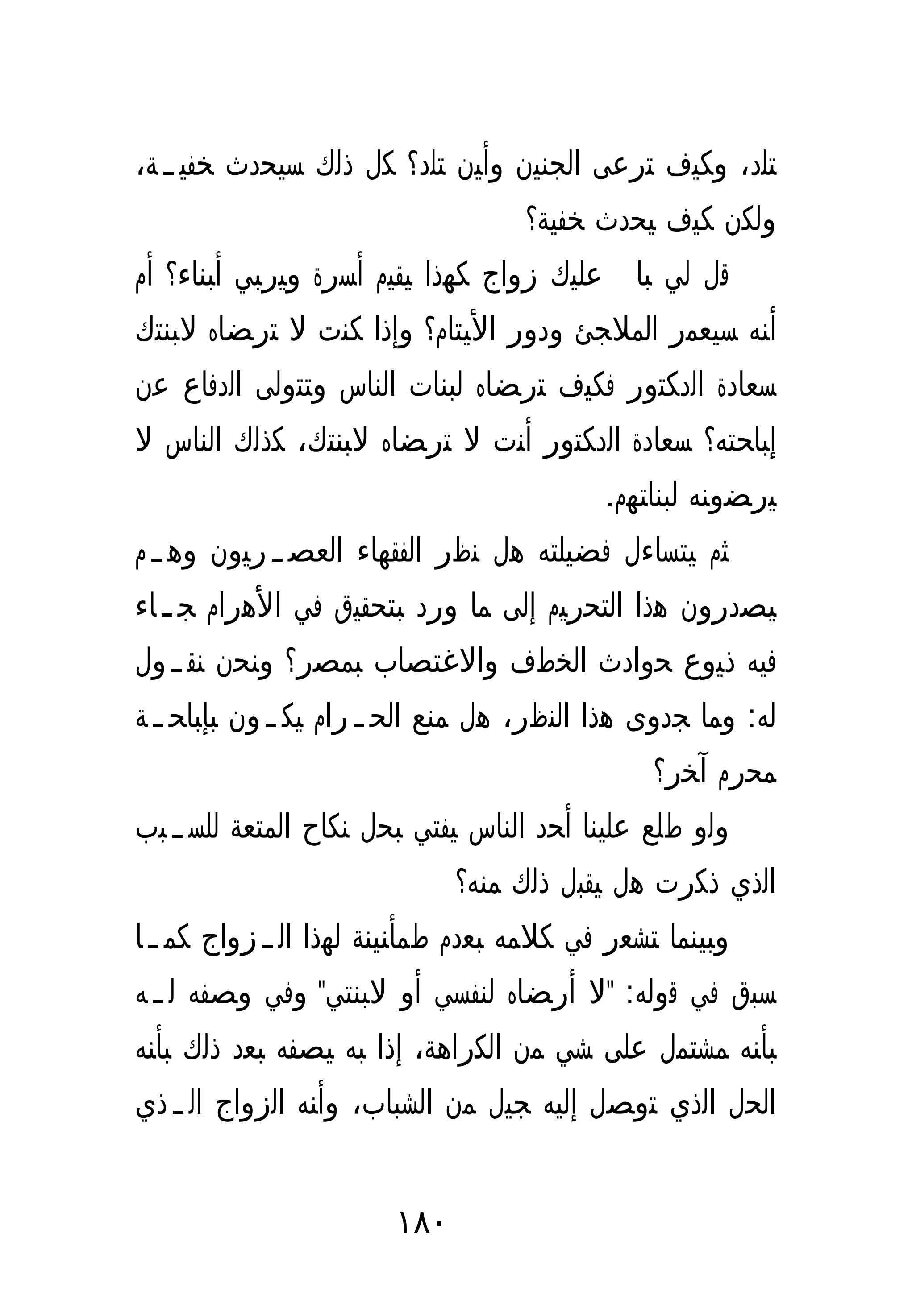

الضحية خلفه في كل مكان، وهو مصر دائما على النكـران، والمحاكم تموج بمثل هذه الدعاوى التي تخسر فيها الفتاة أيما خسران.

فهل رأيت زوجا ينكر زوجته؟ ولكن الذي يحدث غالبـا أن الخل هو الذي ينكر خليلته.

ثم يحاول فضيلته الدفاع عن هؤلاء المتزوجين عرفيـا بأنهم أرادوا أن يهجروا الزنا ويلجئوا إلـى زواج صـحيح شرعا، وليس هذا لجوءا إلى زواج صحيح بل هي محاولـة لإباحة الحرام يسمونه بغير اسمه.

ثم اعترف فضيلته بأن الزواج العرفي يتضمن محظورا شرعيا ألا وهو تضييع المصالح والحقوق عنـد الخصـومة ويعرض أصحابه لمخاطر عدم سماع الدعوى ومـا يترتـب على ذلك من ضياع الأنساب، وهذه وا تكفي لتأييد الفقهاء العصرين القائلين بحرمته.

ثم عاد مرة أخرى يشعرنا بأن فطرته السليمة لا ترضي هذا الزواج العرفي فقال: "لا أرضاه لنفسي أو لابنتي".. حقًا يا فضيلة الدكتور لا ترضاه لنفسك ولا لابنتك وكيف ترضى أن تتزوج ابنتك وأنت لا تعلم وأخوها لا يعلم ثم تحمـل ثـم



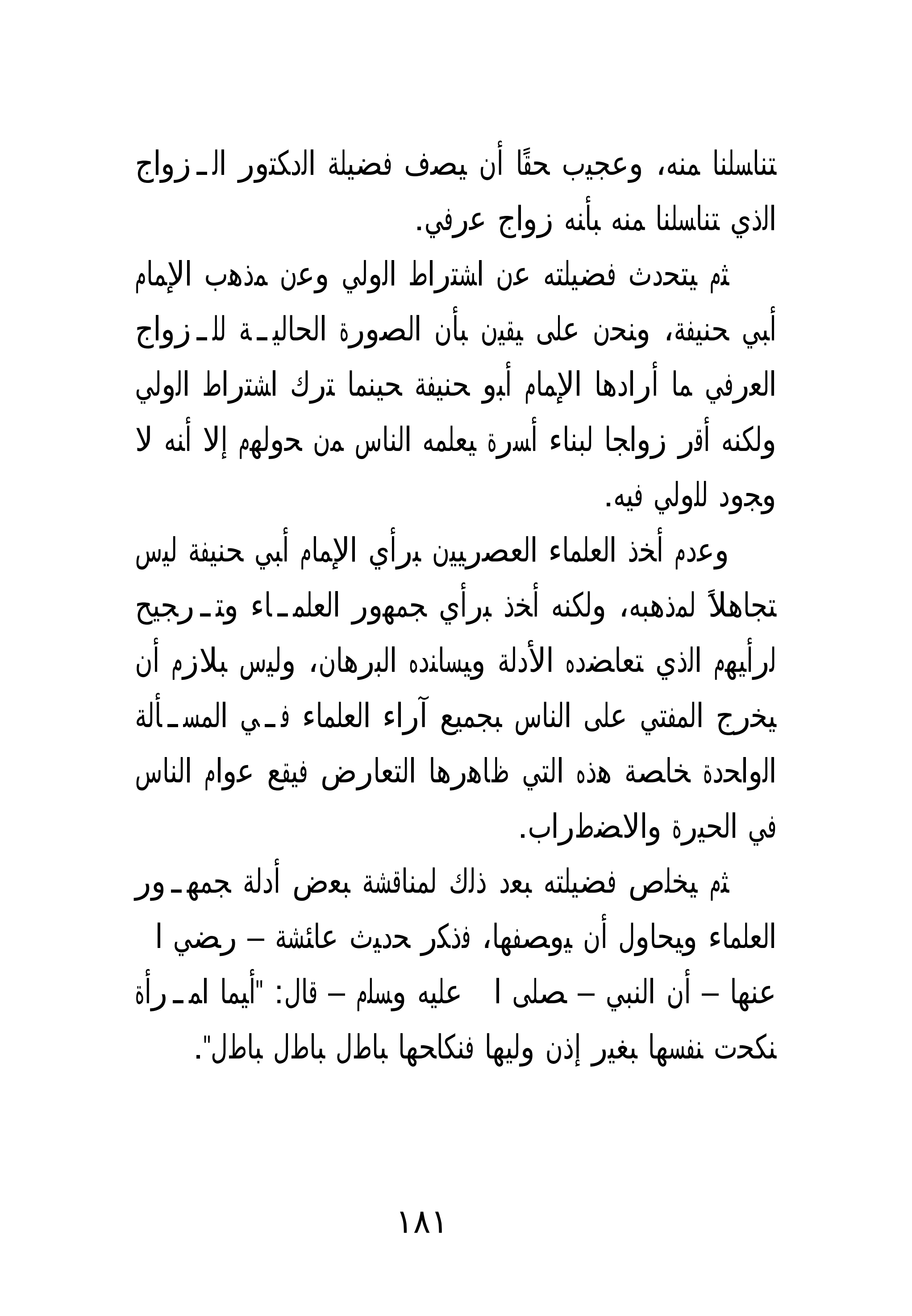
تلد، وكيف ترعى الجنين وأين تلد؟ كل ذلك سيحدث خفيـة، ولكن كيف يحدث خفية؟

قل لي با عليك زواج كهذا يقيم أسرة ويربي أبناء؟ أم أنه سيعمر الملاجئ ودور الأيتام؟ وإذا كنت لا ترضاه لابنتك سعادة الدكتور فكيف ترضاه لبنات الناس وتتولى الدفاع عن إباحته؟ سعادة الدكتور أنت لا ترضاه لابنتك، كذلك الناس لا يرضونه لبناتهم.

ثم يتساءل فضيلته هل نظر الفقهاء العصـريون وهـم يصدرون هذا التحريم إلى ما ورد بتحقيق في الأهرام جـاء فيه ذيوع حوادث الخطف والاغتصاب بمصر؟ ونحن نقـول له: وما جدوى هذا النظر، هل منع الحـرام يكـون بإباحـة محرم آخر؟

ولو طلع علينا أحد الناس يفتي بحل نكاح المتعة للسـبب الذي ذكرت هل يقبل ذلك منه؟

وبينما تشعر في كلامه بعدم طمأنينة لهذا الـزواج كمـا سبق في قوله: "لا أرضاه لنفسي أو لابنتي" وفي وصفه لـه بأنه مشتمل على شي من الكراهة، إذا به يصفه بعد ذلك بأنه الحل الذي توصل إليه جيل من الشباب، وأنه الزواج الـذي



تناسلنا منه، وعجيب حقًا أن يصف فضيلة الدكتور الـزواج الذي تناسلنا منه بأنه زواج عرفي.

ثم يتحدث فضيلته عن اشتراط الولي وعن مذهب الإمام أبي حنيفة، ونحن على يقين بأن الصورة الحاليـة للـزواج العرفي ما أرادها الإمام أبو حنيفة حينما ترك اشتراط الولي ولكنه أقر زواجا لبناء أسرة يعلمه الناس من حولهم إلا أنه لا وجود للولي فيه.

وعدم أخذ العلماء العصريين برأي الإمام أبي حنيفة ليس تجاهلاً لمذهبه، ولكنه أخذ برأي جمهور العلمـاء وتـرجيح لرأيهم الذي تعاضده الأدلة ويسانده البرهان، وليس بلازم أن يخرج المفتي على الناس بجميع آراء العلماء فـي المسـألة الواحدة خاصة هذه التي ظاهرها التعارض فيقع عوام الناس في الحيرة والاضطراب.

ثم يخلص فضيلته بعد ذلك لمناقشة بعض أدلة جمهـور العلماء ويحاول أن يوصفها، فذكر حديث عائشة – رضي ا عنها – أن النبي – صلى ا عليه وسلم – قال: "أيما امـرأة نكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل باطل".

وهذا الحديث أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وأخرجه ابن ماجة وصححه ابن حبان والحاكم والذهبي وآخرون من علماء الحديث ولكن فضيلة الدكتور لم يقبل الحديث بحجة أنه غير مخرج في البخاري ومسلم، وهذه ليست علة في الحديث كما هو معروف عن أهل هذا الشأن. فما هو ثابت عند المحدثين أن البخاري ومسلما لم يخرجا كل الأحاديث الصحيحة، وهناك أحاديث كثيرة صحيحة مخرجة من عند غير البخاري ومسلم.

وإن أراد فضيلته حديثًا مخرجا في البخاري يدل على اشتراط الولي فليراجع صحيح البخاري، كتاب النكاح باب من قال لا نكاح إلا بولي فأورد فيه حديث عائشة – رضي ا عنها – أن النكاح كان في الجاهلية على أربعة أنحاء، فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها، فدل قولها على اشتراط الولي في النكاح، ثم أورد الإمام البخاري أحاديث أخرى تحت هذه الترجمة تدل على اشتراط الولي في النكاح فليراجعها فضيلته إن شاء.

ثم ذكر شبهة أخرى يحاول بها تضعيف حديث عائشـة، وهي أن الحديث رواه ابن جريج عن موسى بن سـليمان – هكذا ذكر، وصوابه سليمان بن موسى – عن الزهري عنـه فقال: إنه لا يعرفه وجوز النكاح بغير ولي".

وهذه الحكاية عن ابن جريج لا تصح عن المحققين مـن المحدثين، قال الإمام الترمذي في السنن ٤١٠/٣ بعد ذكرها: "وذكر عن يحيى بن معين أنه قال: لم يذكر هذا الحرف عن ابن جريج لإسماعيل عن إبراهيم، قال يحيـى بـن معـين: وسماع إسماعيل بن إبراهيم من ابن جريج ليس بذلك، إنمـا صحيح كتبه على كتب عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبـي رواه ما سمع من ابن جريج، وضعف يحيى رواية إسماعيل بن جريج" وهكذا ضعف الترمذي هذه الحكاية وردها، وقال الحاكم عن حديث عائشة – محل النزاع -: فقد صح وثبـت بروايات الأئمة الأثبات سماع الرواة بعضهم من بعض فـلا تعلل هذه الروايات بحديث ابن علية وسؤاله ابن جريج عنـه وقوله: إني سألت الزهري عنه فلم يعرفه فقد ينسـى الثقـة الحافظ الحديث بعد أن حدث به، وقد فعله غير واحـد مـن حفاظ الحديث "المستدرك للحاكم ١٦٨/٢ وأعل هذه الحكايـة

أيضا ابن حبان وابن عدي وابن عبد البر كما في التلخـيص الحبير للحافظ بن حجر ١٨٠/٣.

مع مراعاة أن هذا الحديث لم يتفرد به سليمان بن موسى فقد تابعه جعفر بن ربيعة عند أحمد ٦٦/٦، وأبي داود برقم (٢٠٨٤) وحجاج بن أرطأة عن ابن ماجـة بـرقم (١٨٨٠) وأحمد ٢٥٠/١، وعبيد ا بن أبي جعفر عند الطحاوي٧/٣.

إذن فقد طاشت هذه العلة في ميزان المحدثين، ثم ذكـر أمر آخر يحاول به القدح في الحديث وهو أن عائشة رضي ا عنها زوجت ابنة أخيها وأخوها غائب فلما رجع قـال أو مثلي يفتات عليه في بناته فقالت عائشة – رضي ا عنه – أو ترغب عن المنذر وا لتملكنه أمرها.

وهذه الرواية أجاب عنها العلماء بـأن صـنيع عائشـة محمول على أنها مهدت أسباب التزويج. وأضـيف النكـاح إليها لاختيارها في ذلك وإذنها فيها، ثم أشارت على من ولي أمرها عند غيبة أبيها حتى عقد النكاح، ويدل على صحة هذا التأويل ما أخرجه عبد الرازق فـي المصـنف ٢٠١/٦ أن عائشة كانت إذا أرادت نكاح امرأة من نسائها دعت رهطـا

من أهلها فتشهده حتى إذا لم يبق إلا النكاح قالت: يا فلان أنكح فإن النساء لا ينكحن"..

ثم ذكر حديث "لا نكاح إلا بولي" وعزاه للترمذي والحاكم والبيهقي، وهو أيضا عند أبي داود وابن ماجة والدارقطني وآخرين، ثم حاول صرفه عن ظاهره باحتمالات لا دليل عليها، ثم عاد فحكم بضعف الحديث مقلدا الإمام الطحاوي مع أن للحديث طرقًا صحيحة وأخرى ضعيفة، وفي هذه الحالة لا يتأثر الصحيح بالضعيف، وقد حكم بصحته الحاكم في المستدرك ١٧٠/٢ ووافقه الذهبي، وصححه ابن حجر في فتح الباري ٨٩/٩.

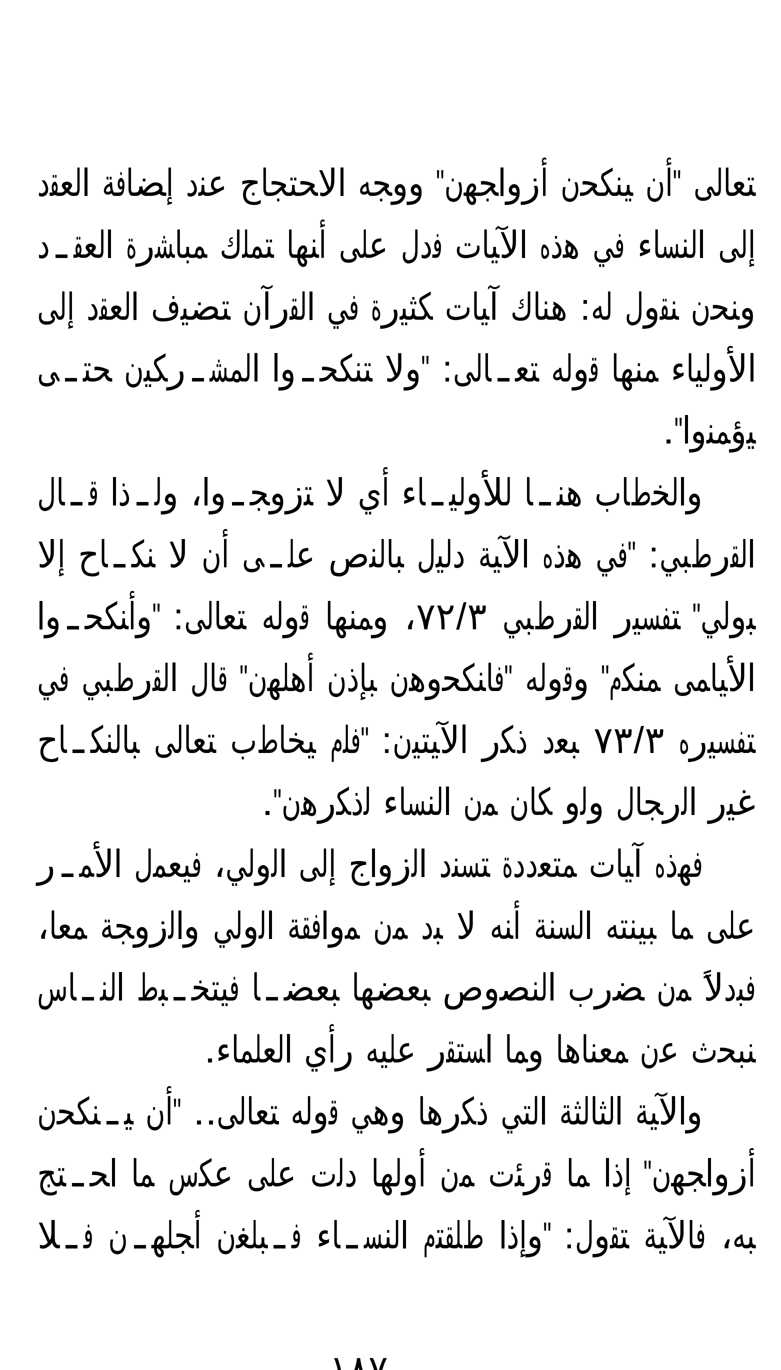
وقلد الإمام الطحاوي في أمر آخر غير صحيح وهو قوله: "روي عن عمر وعلي وابن عمر رضي ا عنهم جواز النكاح بغير ولي" وهذا القول – كما يعرف ذلك المتخصصون – مقدم له بصيغة التضعيف "روي" وهي تعني ضعف الخبر، وما بين يدي من مصادر يثبت عكس ذلك، فقد أخرج مالك في الموطأ ٥٢٥/٢ والدارقطني في السنن ٢٢٨/٣ بسنديهما عن عمر بن الخطاب قال.. "لا تنكح المرأة إلا بإذن وليها أو ذي الرأي من أهلها أو السلطان". وقد

أخرج عبد الرازق في المصنف ١٩٨/٦ بسنده أن عمر بن الخطاب رد نكاح امرأة نكحت بغير إذن وليها" فكيف نقول بعد ذلك إن عمر كان يرى جواز النكاح بغير ولي.

وليس هذا رأي عمر فحسب بل هو مذهب جمهور الصحابة والتابعين كما قال الشوكاني في نيل الأوطار ١٣٦/٦: "وقد ذهب إلى هذا – أي اشتراط الولي في الزواج – علي وعمر وابن عباس وابن عمر وابن مسعود وأبو هريرة وعائشة والحسن البصري وأن المسيب وأن شبرمة وابن أبي ليلى والعترة وأحمد وإسحاق والشافعي وجمهور أهل العلم فقالوا: لا يصح العقد بدون ولي، قال ابن المنذر: إنه لا يعرف عن أحد من الصحابة خلاف ذلك".

أما حديث: "لا تزوج المرأة المرأة ولا المرأة نفسها، فإن الزانية هي التي تنكح نفسها "فعزاه لابن ماجة والدارقطني والبيهقي، ولم يتعرض له عندما ناقش أدلة الجمهور.

وفضيلة الدكتور إذ حاول رد أحاديث الجمهور جاء بأدلة ظاهرها يؤيد القائلين بأنه يجوز نكاح بدون ولي، فقال.. أما من القرآن فقوله تعالى: "فلا جناح عليهن فيما فعلن في أنفسهن"، وقوله تعالى.. "حتى تنكح زوجا غيره". وقوله

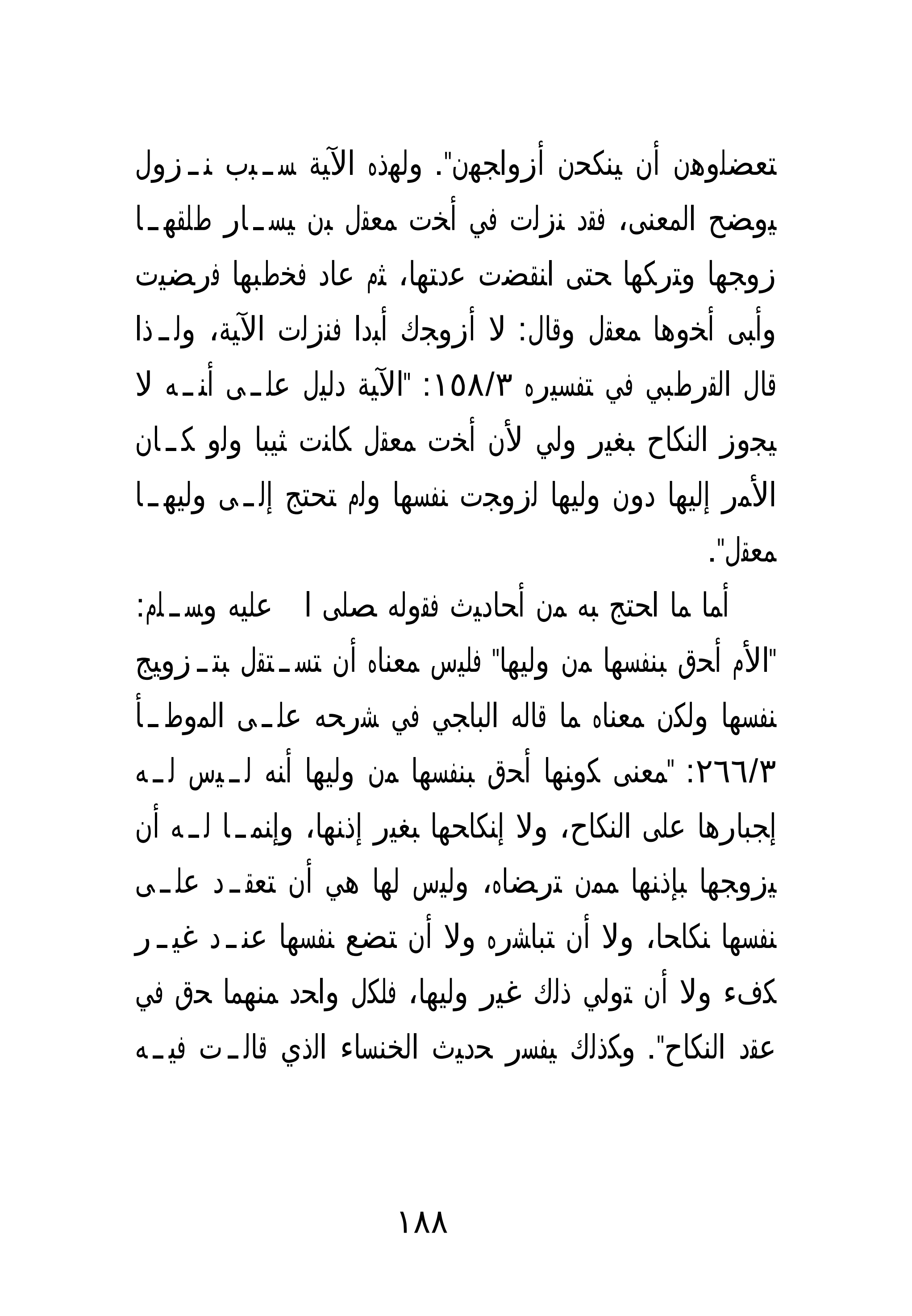


تعالى "أن ينكحن أزواجهن" ووجه الاحتجاج عند إضافة العقد إلى النساء في هذه الآيات فدل على أنها تملك مباشرة العقد ونحن نقول له: هناك آيات كثيرة في القرآن تضيف العقد إلى الأولياء منها قوله تعالى: "ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا".

والخطاب هنا للأولياء أي لا تزوجوا، ولذا قال القرطبي: "في هذه الآية دليل بالنص على أن لا نكاح إلا بولي" تفسير القرطبي ٣/٧٢، ومنها قوله تعالى: "وأنكحوا الأيامى منكم" وقوله "فانكحوهن بإذن أهلهن" قال القرطبي في تفسيره ٣/٧٣ بعد ذكر الآيتين: "فلم يخاطب تعالى بالنكاح غير الرجال ولو كان من النساء لذكرهن".

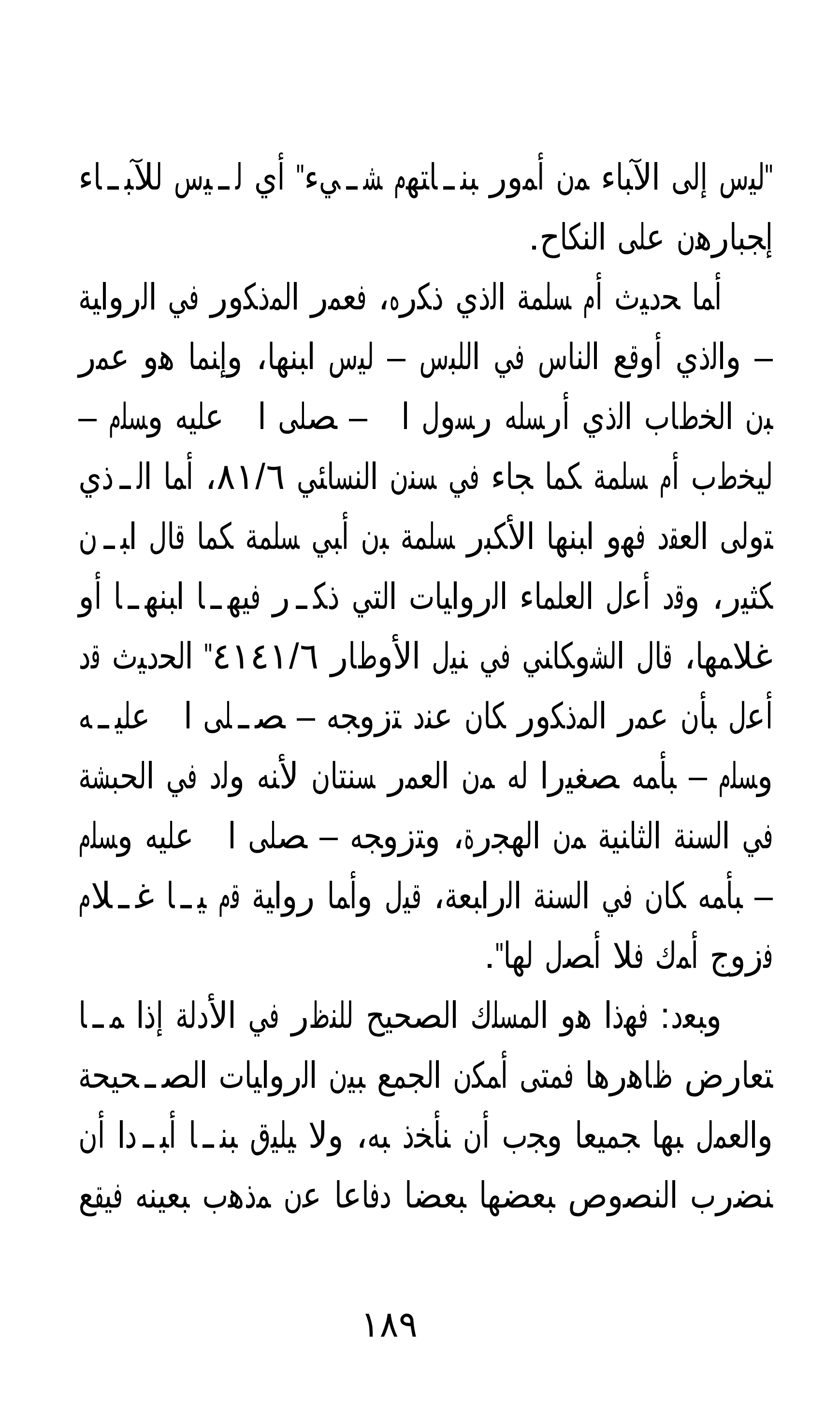
فهذه آيات متعددة تسند الزواج إلى الولي، فيعمل الأمر على ما بينته السنة أنه لا بد من موافقة الولي والزوجة معا، فبدلاً من ضرب النصوص بعضها ببعض فيتخبط الناس نبحث عن معناها وما استقر عليه رأي العلماء.

والآية الثالثة التي ذكرها وهي قوله تعالى.. "أن ينكحن أزواجهن" إذا ما قرئت من أولها دلت على عكس ما احتج به، فالآية تقول: "وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا



تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن". ولهذه الآية سـبب نـزول يوضح المعنى، فقد نزلت في أخت معقل بن يسـار طلقهـا زوجها وتركها حتى انقضت عدتها، ثم عاد فخطبها فرضيت وأبى أخوها معقل وقال: لا أزوجك أبدا فنزلت الآية، ولـذا قال القرطبي في تفسيره ١٥٨/٣: "الآية دليل علـى أنـه لا يجوز النكاح بغير ولي لأن أخت معقل كانت ثيبا ولو كـان الأمر إليها دون وليها لزوجت نفسها ولم تحتج إلـى وليهـا معقل".

أما ما احتج به من أحاديث فقوله صلى ا   عليه وسـلم: "الأم أحق بنفسها من وليها" فليس معناه أن تسـتقل بتـزويج نفسها ولكن معناه ما قاله الباجي في شرحه علـى الموطـأ ٢٦٦/٣: "معنى كونها أحق بنفسها من وليها أنه لـيس لـه إجبارها على النكاح، ولا إنكاحها بغير إذنها، وإنمـا لـه أن يزوجها بإذنها ممن ترضاه، وليس لها هي أن تعقـد علـى نفسها نكاحا، ولا أن تباشره ولا أن تضع نفسها عنـد غيـر كفء ولا أن تولي ذلك غير وليها، فلكل واحد منهما حق في عقد النكاح". وكذلك يفسر حديث الخنساء الذي قالـت فيـه



"ليس إلى الآباء من أمور بنـاتهم شـيء" أي لـيس للآبـاء إجبارهن على النكاح.

أما حديث أم سلمة الذي ذكره، فعمر المذكور في الرواية – والذي أوقع الناس في اللبس – ليس ابنها، وإنما هو عمر بن الخطاب الذي أرسله رسول ا – صلى ا عليه وسلم – ليخطب أم سلمة كما جاء في سنن النسائي ٨١/٦، أما الـذي تولى العقد فهو ابنها الأكبر سلمة بن أبي سلمة كما قال ابـن كثير، وقد أعل العلماء الروايات التي ذكـر فيهـا ابنهـا أو غلامها، قال الشوكاني في نيل الأوطار ٤١٤١/٦" الحديث قد أعل بأن عمر المذكور كان عند تزوجه – صـلى ا عليـه وسلم – بأمه صغيرا له من العمر سنتان لأنه ولد في الحبشة في السنة الثانية من الهجرة، وتزوجه – صلى ا عليه وسلم – بأمه كان في السنة الرابعة، قيل وأما رواية قم يـا غـلام فزوج أمك فلا أصل لها".

وبعد: فهذا هو المسلك الصحيح للنظر في الأدلة إذا مـا تعارض ظاهرها فمتى أمكن الجمع بين الروايات الصـحيحة والعمل بها جميعا وجب أن نأخذ به، ولا يليق بنـا أبـدا أن نضرب النصوص بعضها ببعض دفاعا عن مذهب بعينه فيقع

الناس في الحيرة والاضطراب، ولكن بالعلماء أن ينظروا في مجموع الآراء وفي كل الأدلة وأن يخرجـوا إلـى النـاس بالراجح الذي تطمئن إليه النفس.

بعد هذا البيان فضيلة الدكتور أذكـرك بعنـوان مقالـك "الرجوع إلى الحق فضيلة".

**.........................

وبعد كل هذا يبدو من السهل أن نفهـم: هـل الـزواج العرفي حلال أم حرام؟

وبعد كل هذا أيضا لا بد أن أقول أن على الكثيـرين أن يعيدوا النظر فيما أقدموا عليه، أو فيما سوف يقدمون عليه!. لأن المسألة لا تحتاج لجهد كبير لكي نكتشف من مجمل هذه الآراء أن الزواج العرفي بالصورة التي تتم الآن.. حرام.

الفصل السابع

حكايات وقصص
أغرب من الخيال

الدخول في عالم المتزوجين عرفيا.. خطوة جريئـة، وصعبة، ومحفوفة بالغرابة والإثارة!

الحكايات كثيرة ومتنوعة... وهي على كل لون ومـن كل مقاس!

هناك تجد جميع المستويات الاجتماعية.. وهناك أيضا جميع الشرائح الاقتصادية!

أبناء الصفوة – موجودون، وأبناء الطبقة الدنيا كذلك!

الأغنياء فعلوها.. والفقراء لم يكونوا أقل منهم!

الجميلات لم يمتنعن.. وما دونهن فعلن نفس الشيء!

في الجامعات الكبرى كانت البداية.. ومع الزمن زحف المد إلى الأقاليم!

ولأن المجتمـع نسـيج واحـد لا تفصـله بحـار أو محيطات.. لم يكن غريبا أن يصل هذا الزواج إلى المدارس ليصبح الصغار أعضاء في لعبة يفترض ألا يمارسها سـوى الكبار!

الغريب في الأمر كله أن الكثيرين لـم يجـدوا أدنـى مشكلة في الحديث عن هذا الزواج وكيـف حـدث؟ وكـان التحفظ الوحيد يتمثل في عدم رغبة من تكلمـوا فـي ذكـر

أسماءهم كاملة بشكل قد يؤدي إلى الاستدلال عليهم أو معرفة شخصيتهم، وهو ما يؤكد عمق إحساس أصـحاب التجربـة بأنهم أقدموا على تصرف خاطئ لا يقبله المجتمع.

وإذا كان قد حدث شيء من التطور في هـذا الاتجـاه بلجوء البعض إلى أقصى درجات "البجاحة" بذكر أسـماءهم كاملة والكليات التي ينتمون إليها، فإن هذا لـم يمنـع مـن حرص الغالبية على إخفاء كل ما يمكن أن يكشف للمجتمـع من هم باعتبار أن هذا يمكن أن يصبح الباب الذي تأتي منـه الريح.. أو المشاكل! وفي حقيقة الأمر أنهم يواجهـون هـذه المشاكل – دونما استثناء – بعد أن يتحقق الغرض الأصـلي من الزواج، وهو – بكل أسف – إشباع رغباتهم الجنسـية.. المتفجرة!

وهذه نوعية من حكايات لا تنتهي.. ولا تتوقف!

حكايات.. هي في واقع الأمر اعترافات كاملـة مـن أصحابها

**.........................

بطلة الحكاية فتاة فـي المرحلـة الثانويـة.. عمرهـا بالتحديد ١٦ سنة، وقد اكتفت بتعريف نفسها باستخدام حرفين

هما: ن. س!. الفتاة متزوجة من زميل لها فـي المدرسـة، ومضى على هذا الزواج كثير من الوقت. لم تفكر خلاله في الحديث عنه، أو البوح به لأحد، وأعتقد أن هذا يكفي للحكـم على أن صاحبة الشأن تعلم علم اليقـين أنهـا تفعـل شـيئًا مرفوضا اجتماعيا، ومحرم دينيا.

الفتاة.. أو المدام ن.س.. قررت أن تتزوج عرفيا بعد أن شعرت أنها تحب زميلها بشدة. ولم تجد في الأفـق مـا يبشر بإمكانية إتمام زواجهما رسميا.

حكاية التلميذ والتلميذة ظلت غير معروفـة بـالمرة. ولكن لا شيء يبقى في الخفاء دائما فقد سهر الاثنـين فـي صالة ديسكو بأحد الفنادق الكبرى، وحدث أن نسيت حقيبـة كانت تحملها في يدها. وعندما حضرت لاستلامها من أمانات الفندق – بعد الاتصال بها لتسلمها – اكتشفت أنهم علموا بما داخلها!

هل تعرفون ماذا كان بداخل الشنطة؟ - والسؤال مـن عندي – لقد كان هناك، والإجابة من داخل الشنطة.. قميص نوم.. وشريط حبوب منع الحمل.. ونوتة تليفونات مدون بها اسمها وعنوانها.

المدام ن. س قالت إنها شعرت بالخجل!! وإنه لم يكن أمامها سوى الاعتراف لهم – أو أمامهم – بأنهـا متزوجـة عرفيا من زميلها الذي كان بصحبتها في الديسكو!

المثير في الحكاية أن الزوج – أو التلميذ فـي واقـع الأمر – ظهر على حقيقته في أول مواجهة – وجاءت الإدانة من شريكته في مشروع الزواج العرفي التي قالت إنه تركها وحدها تواجه هذا الموقف وخرج مسرعا من الفندق بحجـة الاطمئنان على سيارته. وتضيف في نبرة لا تخلو من الندم: لقد أدركت في هذه اللحظة حجم الكارثة التي وقعـت فيهـا وحدي.. لمجرد إرضاء رغبة.

**.........................

وبطلة هذه الحكاية ترمز لنفسـها بحرفـي س. ص، وتقول إنها اعتادت على وجود زميلها في حياتها حيث إنـه يقضي معها كل الوقت في الجامعة ويقوم بتوصـيلها إلـى منزلها بسيارته. وكان الاعتياد مدخلاً للارتبـاط العـاطفي، ويوما بعد يوم تزداد حـدة الارتبـاط.. ويتضـاعف حجـم المشاعر. ولم يجد الاثنين حلاً سوى الزواج العرفي. أو تلك "العلاقة السرية".. كما وصفتها صاحبة الشأن!! الجديد فـي

هذه الحكاية أن البنت والولد لم يجدا مكان لممارسة "علاقتهما الخاصة" سوى السيارة التي تحولت بمفاهيم هذا الزواج إلـى المنزل الذي يحتضن ويشهد على كل لقاء.

وهذه حكاية أخرى.. لكنها تختلـف فـي كثيـر مـن التفاصيل.

المدام أول حرف من أسمها: ص. والأستاذ هو م. ف. كلاهما في بداية العشرينيات. وقصتهما أنهما ارتبطا بعلاقـة عاطفية. لم يتفهم الأهل قيمتها أو حجمها وكان رفضهم – أي الأهل – لفكرة الزواج الرسمي مبررا للجوء إلـى الـزواج العرفي.

المدام تقول إنهما – هي وهو – كانا يعيشان لعبة القط والفأر لممارسة حياتهما الجنسية. في مـرات كـان يـذهب لمنزلها عندما يحدث ويسافر الأهل. وفي مرات كان الأستاذ يقوم بحجز غرفة في أحد الفنادق لينتظر قدوم "المدام" إليه.

هي تقول إنها كانت تعيش في كل مـرة حالـة مـن الرعب والفزع عندما تتخيل افتضاح هذه العلاقة. وهي تقول أيضا إن تكرار الإحساس بهذا الرعب وهذا الفزع كان كافيا للتأثير بشدة على عواطفها، وخطوة خطوة بـدأت الرغبـة

تنزوي، وراحت المشاعر تنطفئ ووصل بهـا الأمـر إلـى اكتشاف تسرعها في التفكير.. وفي القرار.

وانتهى الموضوع.

**...............................

والحكاية هذه المرة ترويها ش. س في سطور معدودة وكلمات قليلة لكنها حافلة بالتفاصيل والمغالطات وتقول: أنـا طالبة في السنة الثانية في إحدى الكليات الجامعية، وهو فـي مرحلة البكالوريوس. تطورت العلاقة بيننا إلى درجة أصبح من الصعب معها أن نفترق.

نشأت فكرة الزواج العرفي بيننا حينمـا اكتشـفنا أن البديل هو الحرام.. هو يصلي ونشأ في بيئة دينيـة.. وأنـا كذلك لا أحب الحرام! فلماذا لا نتزوج الآن؟ وبعد التخـرج والحصول على عمل نعلنه خاصة أن العمل لن يتوفر قبـل ثلاث أو أربع سنوات.

انتهت الحكاية.. ولا تعليق!

**...............................

وإذا كانت حكايات المتزوجين عرفيا تبدو غريبة في جانب. فإن حكاية ل.ك: طالب السنة النهائية في كلية الآداب بجامعة عين شمس تبدو غريبة في كل الجوانب.

الطالب ل.ك: يمثل حالة من الممكن أن نصادفها في الحياة العادية. وهي حالة الرجل المزواج على سنة ا ورسوله. ولكنه "مزواج عرفي" ووصل رصيده الآن – اللهم لا حسد – إلى ٦ زيجات!!

والجديد والمثير أنه – وعلى لسانه – يؤكد بحثه عن الزوجة السابعة ويقول: أنا لا أقوم بإرغام أحد على الزواج العرفي. وقبل أن تحاسبوني ساعدوني على الحصول على الحلال. لو حدث وتقدم شاب لخطبة فتاة حولت أسرتها حياته إلى مأساة لأنه لن يستطيع الوفاء بمتطلبات الزواج الرسمي.

ل.ك: يزف إلينا نبأ سعيدا أعاد به الطمأنينة إلى نفوسنا عن مصير زوجاته الست وقال: لم أكن نذلا مع من تزوجت بهن. فقد تركت كل واحدة فيهن كما هي.. لأن زواجنا كان بريئًا!!

نتمنى فعلاً أن يكون.. بريئًا. لينطبق المثل القائل: يا دار ما دخلك شر!

والجديد في الحكاية التالية أن صاحبها الطالـب ع. ف لم يجد حرجا في إخراج الورقة التي تزوج بمقتضـاها مـن إحدى زميلاته.

ع. ف كان في منتهى الشهامة والمروءة!! حيث قـام بتحرير صورة واحدة من الورقة. وقام بالاحتفاظ بها لنفسـه حتى يمزقها ويتخلص منها في أي وقت يشاء.. وهو لا يفعل هذا الأمر وحده. بل يفعلـه الغالبيـة لأن الهـدف واضـح ومعروف. وعندما يتحقق لا تبدو هناك حاجة لبقاء الورقة.. ولا صاحبتها!

ع. ف الذي أخرج ورقة الزواج العرفـي للاطـلاع. مزق الورقة بعد ستة أشهر من الزواج.

**............................

الحكاية هذه المرة بين طالب وطالبـة أيضـا. ولكـن الجديد فيها هو الفارق في المستوى المادي.

هي من أسرة ثرية.. تعيش حياة ناعمة مرفهة لا تشعر معها بكل ما يعانيه الآخرون من متاعب وآلام.

وهو صاحب ظروف مادية صعبة. أسـرته بسـيطة الحال. وتعاني الأمرين من تحمل تكاليف دراسته الجامعية.

هو وهي – ورغم التفاوت المادي الشاسع – التقيا في "منطقة المشاعر" وتبادلا العواطف، وعندما وصلا إلى الجـد لم يجدا سوى الزواج العرفي حلاً. ولماذا العرفـي تحديـدا؟ لأن الفتاة تعلم أن أسرتها سترفض زواجها من شاب في مثل وضعه المادي والاجتماعي.

هو وهي تزوجا بشهادة من زملائهما، وقاما باستئجار شقة مفروشة لقضاء ساعات من يومهما "كمتزوجين".

بالطبع – كان من المنطقي أن تثمر "علاقـة الـزواج الكاملة" بين الاثنين عن ثالث. وهو ليس الشيطان – والعيـاذ با – لكنه جنين سوف يرى النور بعد شـهور! ولأن هـو وهي كانا يدركان أن ما يفعلانه كذبة كبيرة.. لم يكن غريبـا أن يجتهدا في التخلص من هذا الجنـين، ولكـن لـم تفلـح المحاولات. وعرف الجميع بما حدث وقررت أسـرة الفتـاة العمل على "إزالة آثار العدوان" وقدمت التنازل الأكبر الـذي لا يتوقعه أحد.

التنازل بالقطع لم يكن على طريقة "لا يسـلم الشـرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم"، ولكـن كـان

التنازل عبارة عن موافقة على زواج ابنتهم – هـي – مـن الأستاذ.. هو!

ولكن. هل تم الزواج؟ للأسف لم يتم! ولماذا لم يـتم؟ لأن الطالب رفض!! رفض لأن أسرته راحت تزرع الشـك في نفسه بأن الجنين ليس منه!

منتهى السخرية.. وقلة الأدب!

**..........................

والحكاية هذه المرة كتبتها فتاة بخط يدها وأرسلتها إلى جريدة الأهرام المسائي وروت فيها قصة تصلح أن تتحـول إلى فيلم سينمائي واقعي لا يقل عن واقعية المخـرج كمـال الشيخ في شيء.

وإليكم الحكاية التي وقعت عليها صاحبتها باسم: نادية أ. م – الإسكندرية.

أرجو أن تكون حكايتي التي أرويها في هذه الرسـالة عبرة لكل من هي في مثل عمري حتى لا تدفع الثمن غاليـا من كرامتها بل وكيانها كله حين تفقد ثقة أهلها فيهـا وتهـيم على وجهها بحثًا عن بصيص من أمل بعد أن فقدت الكثيـر بل والكثير جدا لولا رحمة من ا   وفضل منه.

مشكلتي أو مأساتي تعود إلى ست سنوات مضت ومازلت أعيش عذابها حتى الآن رغم أنني لم أتجاوز الحادي والعشرين من عمري. طالبة في السنة النهائية في إحدى الكليات الجامعية – والدي من الأثرياء وأنا وحيدته ولذلك لا أذكر يوما أنه رفض لي طلبا بل كانت كل طلباتي مجابة بلا قيد أو شرط.

بدأت مشكلتي وأنا في الإعدادية. أي في الرابعة عشرة من عمري حين تعرفت على شاب جامعي أوهمني أنه من عائلة ثرية وكان يردد على مسامعي ما لم أسمعه من قبل من عبارات الحب والهيام حتى وقعت في حبه ليبدأ في تنفيذ خطته المرسومة في استغلالي عاطفيا وماديا من خلال قصص وهمية تدفعني إلى مساعدته في أزمات مادية يتعرض لها ويزعم أنه لا يستطيع مصارحة أهله بها. وقد ابتزني كثيرا واضطرني إلى حد بيع ما أقتنيه من مشغولات ذهبية لتخليصه من ضوائقه المادية التي لا تنتهي وكنت أصدقه نظرا لعدم خبرتي ولصغر سني. وأقول بكل أسف إنه نجح في الزواج مني عرفيا حتى يستمر في ابتزاز أموال والدي حيث بعث إليه من يخبره بقصة زواجنا. وكانت

صدمة عنيفة جعلت والدي يبكي أياما عديدة دون أن يستطيع مصارحتي من فرط حبه لي، وأخيرا لجـأ إلـى أعمـامي ليتدخلوا ويقنعوا زوجي بإنهاء هذا الزواج العرفـي، لكنـه استغل الموقف وأخذ يسومني العذاب، ولأنني حملت منه فقد حاولت أن أتعامل معه بالحسنى وأطلب منه إعلان زواجنـا شرعا ثم الطلاق حتى أربي المولود تربية حسنة، وقد انتهى الأمر فعلاً إلى تسوية وحصلت علـى الطـلاق كمـا أردت وكانت تجربة العمر المريرة التي تسببت في إيلامي وعذابي سنوات طوالاً، ومازلت لا أستطيع التخلص منها حتـى الآن رغم أنني بعد الطلاق أكملت دراستي ودخلت الجامعة والآن وصلت إلى البكالوريوس وإلى جانبي طفلتي الجميلـة التـي تبلغ من العمر الآن ست سنوات، ولكني أصبحت عندي عقدة من الرجال، لا أستطيع أن أثق فيهم وأرفض اقترابهم منـي سواء كانوا من محيط الكلية أو الأسرة، فأنا دائما نافرة منهم وخائفة. ولقد حاول البعض أن يتقدم لـي ولكنـي أقـابلهم بالرفض مما يجعل أهلي يخافون علي ويحـاولون إقنـاعي بالعدول عن موقفي.

**....................

وحكاية نادية.. لا تبدو الأخيرة في مسلسـل هـروب "الأزواج العرفي". لأن حكاية ولاء – الطالبة في جامعة عين شمس – تنطوي على حالة هروب أخرى عنـدما لاح فـي الأفق مشهد قدوم طفل في الطريق.

ولاء تزوجت من شاب أقنعها بحبه الجارف لها، وهي من جانبها بادلته الحب. ومن هذا الحب أصبح مـن السـهل عليه أن يقوم "بغسل مخها" وأقنعها – من بين ما أقنعها به – بأن الأفراح والزفة والصخب والمعازيم مسألة شكليات فـي الزواج المهم فقط أن يرضى كل طرف بـالأمر. وبالفعـل تزوج الاثنين وعاشا سويا لمدة أربعة أشهر. وعندما شعرت ببوادر الحمل طالبته بالزواج بالطريقة التقليدية. فما كان منه إلا أن أخبرها بأنه مزق الورقـة.. أي طلقهـا. وعليهـا أن تتصرف وحدها. واختفى الشاب. ولم يعد للحـب والكـلام الجميل وجود. لأن مثل هذا الحب من السهل استهلاكه على الفراش – وبأسرع مما يتصور كل الأطراف!!

**.......................

وهذه حكاية أخرى. حكاية طالبة بمعهد التعاون ترمز لاسمها بثلاثة حروف:

هـ. ن. أ!

الحكاية ترويها صاحبة الشأن في رسالة كتبتها بخـط يدها إلى جريدة الأخبار تم نشرها يـوم ١٦ فبرايـر عـام ١٩٩٩ وتقول: تزوجت من زميل لي عرفيا منـذ سـنتين. وهذه الأيام تقدم لي عريس "لقطة" ومستعجل. وقد وافق أهلي عليه لأنه جاهز من مجاميعه!

زميلاتي ينصحنني بفسخ العقد العرفي. وإجراء عملية – تقصد جراحة لإصلاح ما أفسده الزوج العرفي – ولا من شاف ولا من دري! وينتهي الأمر قبل أن يضـيع العـريس اللقطة من يدي!!

هل هذا معقول؟ والسؤال من عندي.

نعم معقول وأكثر في قاموس "العرفي"!

وها هي نفس الحكاية تتكرر مع "نرمين" وبمزيد مـن التفاصيل!

نرمين وهي في الثامنة عشر، أو العشرين.. تعتبر فتاة عادية. فتاة تشعر مثل غيرهـا مـن الفتيـات بالرومانسـية الطاغية، وتحلم كل يوم أن تصادف الحب الذي سمعت عنـه كثيرا، وطويلاً من زميلاتها.

نرمين.. عند أول محطـة توقفـت لتركـب "قطـار العواطف السريع" وجاء الحب مندفعا دون سابق إنذار.. هي تعلقت به.. وهو وجد فيها كل ما يحلم به ويتمناه.

ومع استمرار تدفق العواطف – لم يعد شغل العاشقين الشاغل سوى الزواج؟! ولكن كيف يتزوجان؟ ومـن يوافـق على ارتباطهما في هذه السن؟ ثم من الذي سيتولى الإنفـاق عليهما؟ إذن لن يتحقق الحلم. ولن يكون هناك زواج مـا دام أنه زواج رسمي!

إذن ما الحل؟ الحل أن نتزوج عرفيا. قالها كل منهمـا في نفسه. ورددها الاثنان عندما جلسا يبحثان عـن مخـرج للمأزق الذي يعانيان منه.

وبالفعل تزوج الاثنان. وعاشا حياة الزوجين الكاملـة. وبعد أسابيع لا غير قرر الزوج فجأة عدم الاسـتمرار فـي اللعبة. قرر إنهاء كل شيء بمبادرة من طرف واحد! وحتـى يكون الرجل واضحا وصريحا، ومحددا حرص على أن يقوم في اللقاء الأخير بتمزيق الورقة التي كتبا عليها اتفاق الزواج الوهمي. مزقها قطعة قطعة حتى أحالها إلى أشلاء صغيرة لم يعد لأي منها قيمة أو معنى. وهنا اكتشفت نيرمين أنها لم تعد

زوجة. لا في الحقيقة. ولا على الورق! هنا فقط بات عليهـا أن تبدأ في استيعاب الموقف، وهو شيء صعب ويحتاج لجهد وعناء، ثم كان عليها أن تقوم فيما بعد بالانطلاق في عـلاج ما انكسر عند أي طبيب، وهو أمر شبه مستحيل حتـى وإن بات خداع الآخرين سهلا أو ممكنا، فهي لن تنسى أبدا أنهـا كانت أول من خدع نفسه، وأول وآخر من خسر في التجربة.

**..........................

الحكايات لا تنتهي.. وكل حكاية لها طبيعتها الخاصـة وتفاصيلها المتفردة.

والحكاية الآن حكاية منى.. وهي ليست طالبة جامعية ولا تلميذة في مدرسة بل هي موظفة ملتزمة معروف عنهـا الصراحة والوضوح والجدية. كل زملائها وزميلاتها يعلمون أنها صاحبة رأي واضح ومحدد في مسألة الزواج! الـزواج عندها زواج رسمي أمام المأذون وبموافقة الأهل وفي وجود الشهود.

منى كانت دوما تتهكم على فكرة الـزواج العرفـي، وعلى من يسقطون في شراك اللجوء إليه!

ودون ترتيب أو مقدمات فرضت ظروف عمل "منـى" أن تنتقل إلى إدارة جديدة يتولى رئاستها الأستاذ محمود، وهو رجل معروف بالوسامة والرقة في معاملة جميع مرءوسيه – وبالأخص الجنس اللطيف – ورغم كل التحذيرات التي تلقتها منى من زميلاتها لكي تنتبه وتحرص في تعاملاتها برئيسـها الجديد.. إلا أنها اندفعت في علاقتها بالرجل، وكانت البداية.. تبادل الحوارات الطويلة والمتكررة حول معاناة كل منهمـا.. هو يحكي عن مشاكله مع زوجته وحياته الصعبة معها. وهي تجتر أمنياتها التي لم تتحقق بقدوم فـارس الأحـلام علـى حصانه الأبيض الجميل.

وشيئا فشيئا.. تقارب الاثنان وجرت شلالات الحب في أوصالهما – أو هكذا يفترض – وكانت النهاية الاتفاق علـى الزواج العرفي، ولا شيء غيره لأنـه الأفضـل لكليهمـا.. الأفضل له لأنه رجل متزوج. والأفضل له لأنها لا تسـتطيع إعلان هذا الزواج أمام زملائها وزميلاتها، لا لشيء سـوى أن الرجل الذي اختارته متزوج وله أولادا! وكان الاتفـاق أن يكون هذا الزواج مرحلة مؤقتـة لحـين تغيـر الظـروف. فيتزوجا رسميا.

زواج منى ومحمود استمر ثلاث سنوات.. وهي فترة ليست بالقصيرة، فترة كانت كافية لإثارة القلق في نفس منى. ولهذا قررت أن تفاتح محمود في أمر الزواج الرسمي. فماذا كانت النتيجة؟ لقد انتهى كل شيء فلا الزواج العرفي تحـول إلى زواج رسمي. ولا الزواج العرفي نفسه بقي أو أستمر.. لقد انسحب "الأستاذ" من الساحة بـدعوى أنـه لا يسـتطيع مواجهة زوجته وأولاده بمسألة الارتباط بامرأة أخرى!

المشكلة لم تكن بالطبع في مسألة مواجهـة زوجـة أو أولاد. لكنها في حقيقة الأمر تعود إلى "هدف" كـان يسـعى إليه، وعندما تحقق لم تعد هناك حاجة إلى الزواج الرسـمي. ولا للزواج العرفي من الأصل!

لقد حصل على ما يريد. وربما أكثر مما يريد. وبعـد أن حصل انطفأ لهيب كل شيء.. وأي شيء!

**....................

وهذه حكاية أخرى برواية صاحبتها.. وبكل التفاصيل الدقيقة – دون ذكر حروف، أو أسماء – وتقول:

تزوجته بعد قصة حب تشبه قصة حب فيلم "تيتانيـك" في البداية طلب مني مصاحبته إلى شقة أحد زملائه، فوافقت

بعد طول رفض، وبعد أن وعدني بأنه لن يمس شعرة مني! وفي هذه الشقة تعددت اللقاءات ووصلت إلى حد ارتبـاطي وتعلقي الشديد به. كنت أرتمي في أحضانه وأتمنى ألا أفيـق من تلك اللحظات الجميلة المسروقة، ثم فجأة عـرض علـي الزواج العرفي. فوافقت فورا ودون أدنى تفكير في الأمـر. ولشهور طويلة كنا نتقابل سويا في شقة الحب إلى أن حـدث المحظور.. لقد أصبحت حاملاً!!.

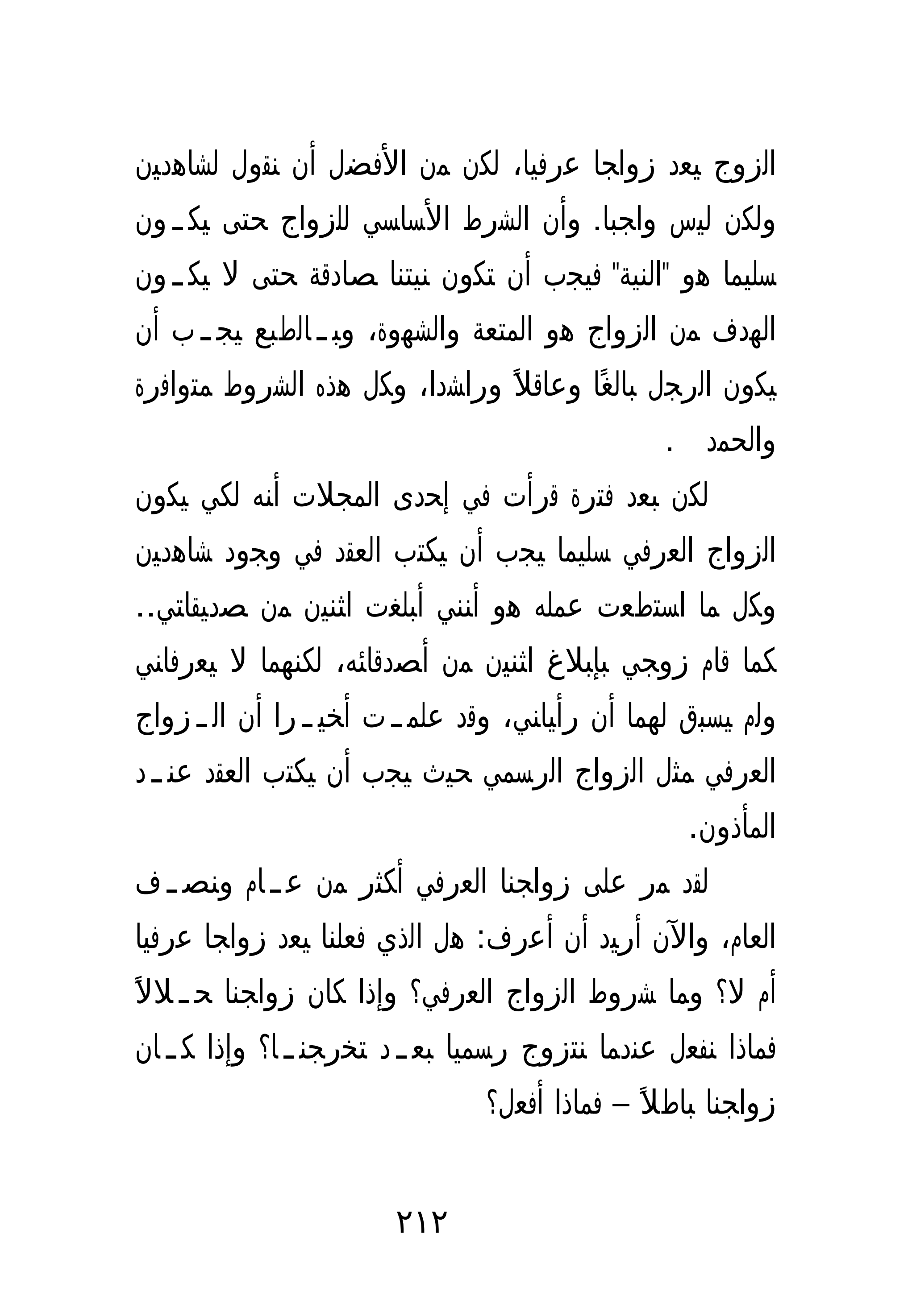
كان وقع الحدث عنيفًا. واهتز كل كياني له. وطبيعـي في مثل هذا الوضع أن أقوم بإبلاغه فذهبت إليه لأحكي لـه. وأرجوه أن يسرع في علاج المشكلة بأن يتقدم لخطبتي مـن أهلي رسميا. فما كان منه إلا أن ثار وتملكه الغضب ورفض الاعتراف بما أحمله في بطني بل وأنكر – وهو يكلمني أنا – صلته بي.. وقال: آسف أنا "ما اعرفكيش"!!

لم أجرؤ على الحديث عن المأساة مع أحد.. وبمـرور الوقت هداني تفكيري إلى الكـلام مـع شـقيقتي الكبـرى. وشرحت لها كل ما حدث. وبعد اللوم والعتاب ذهبت معـي إلى أحد الأطباء ليقوم بإجهاضي!

وانتهت الحكاية.. أو المأساة.

وهذه حكاية أخرى.. فمازال هناك المزيد والمزيد.

الحكاية ظهرت في رسالة كتبتها (أ.ب) إلى مجلة "نصف الدنيا" وتم نشرها في ٢٧ أغسطس عام ١٩٩٥ وتقول بالحرف: أكتب إليك بعد أن أتعبتني الحيرة. فأنا فتاة جامعية تعرفت على زميل لي منذ سنوات. تقدم لخطبتي ووافق أهلي عليه وقرروا أن يتم زواجنا بعد تخرجنا من الجامعة. ولأننا نحب بعضنا بطريقة جنونية ولا نطيق أن نفترق، وتقريبا نقضي طوال النهار داخل الجامعة، وفي المساء نلتقي كل ليلة، لم يعد يتصور أحدنا الحياة بدون الآخر، أصبحنا نحتاج إلى بعضنا بشدة لذلك قررنا الزواج حتى لا نخطئ سويا. ونحن نخشى ا سبحانه وتعالى ونخاف من عقابه، ونظرا لظروفنا التي لا تسمح بزواجنا رسميا، وكنا قد سمعنا أن الحل لأمثالنا أن نلجأ إلى الزواج العرفي، والذي نصحنا به بعض الزملاء، لذلك قررنا أن نلجأ لهذا الحل، ثم نتزوج رسميا أمام أهلنا بعد تخرجنا كما هو متفق عليه. كتبنا ورقة تشهد على زواجنا.. كتبنا فيها اسمينا وقلنا فيها.. إنه في يوم كذا تم زواج فلان على فلانة. ثم وقعنا الورقة. وقد أشار البعض على زوجي بأن هذا


الزوج يعد زواجا عرفيا، لكن من الأفضل أن نقول لشاهدين ولكن ليس واجبا. وأن الشرط الأساسي للزواج حتى يكـون سليما هو "النية" فيجب أن تكون نيتنا صادقة حتى لا يكـون الهدف من الزواج هو المتعة والشهوة، وبـالطبع يجـب أن يكون الرجل بالغًا وعاقلاً وراشدا، وكل هذه الشروط متوافرة والحمد .

لكن بعد فترة قرأت في إحدى المجلات أنه لكي يكون الزواج العرفي سليما يجب أن يكتب العقد في وجود شاهدين وكل ما استطعت عمله هو أنني أبلغت اثنين من صديقاتي.. كما قام زوجي بإبلاغ اثنين من أصدقائه، لكنهما لا يعرفاني ولم يسبق لهما أن رأياني، وقد علمـت أخيـرا أن الـزواج العرفي مثل الزواج الرسمي حيث يجب أن يكتب العقد عنـد المأذون.

لقد مر على زواجنا العرفي أكثر من عـام ونصـف العام، والآن أريد أن أعرف: هل الذي فعلنا يعد زواجا عرفيا أم لا؟ وما شروط الزواج العرفي؟ وإذا كان زواجنا حـلالاً فماذا نفعل عندما نتزوج رسميا بعـد تخرجنـا؟ وإذا كـان زواجنا باطلاً – فماذا أفعل؟

انتهت الرسالة!!

وانتهت الحكاية!

وليس لدي من تعليق سوى أن البعض يتـزوج. ثـم يسأل.. بعد أيام وشهور عما إذا كان هذا زواج أم لا؟ وعما إذا كان ما فعله حلالاً أم باطلاً؟ أليست هذه هي الرغبة فـي الجنس وليس الزواج؟

**.......................

الحكاية هذه المرة تثير الضحك.. وشر البلية – دائمـا – ما يضحك!

خلاف يحدث بين طالب وطالبة متزوجين عرفيا. الفتاة – أو الزوجة – لجأت إلى شاهد على العقد لكي يفض النزاع القائم بينها وبين الشاب – أو الزوج العرفي – وعندما تدخل الشاهد الوسيط لإصلاح ذات البين أسفرت المحاولات عـن إتمام عقد زواج عرفي جديد.

العقد لم يكن بين الطالـب والطالبـة الواقـع بينهمـا الخلاف. لكنه كان ببساطة بين الطالبة والشاهد.

الشاهد تحول إلـى زوج. والزوجـة تحولـت إلـى "مزواجة".

هل هناك عبث أكثر من هذا؟!

هل هناك أكثر من هذا اندفاع نحو "الجنس" دون حساب، ودون مجرد التفكير في دين.. أو أخلاق؟!

وهذه حكاية أخرى في نفس اتجاه العبث!

الحكاية يرويها شاب خريج معهد عال ويقول بكلمات عامية: كنت بحب بنت من أيام المعهد.. حب كبير جدا.. وكان كل اللي في المعهد عارفين إننا حنتجوز بعد ما نتخرج.. لكن بعد أول سنتين في المعهد أقنعت حبيبتي بظروفي الصعبة وأننا لا بد لنا من الزواج عرفيا حتى يتسنى لنا – بعد ما تتحسن الأحوال – الزواج الرسمي! لسه سنتين لما نتخرج.. وسنة جيش.. وسنة عقبال ما الاقي وظيفة، وعشرة عقبال ما أحوش وأشتري شقة.. وطبعا لو تقدمت دلوقت لأهلها حيرفضوني، وفعلاً تزوجنا عند محام صاحبي، وظللنا سنتين نتردد على بنسيون في الحسين لحد ما حدثت المفاجأة وأصبحت حاملاً لكنني استطعت أن أعثر على طبيب يقوم بإجراء عملية إجهاض.. وأوهمت هي أسرتها بقيامها برحلة تبع المعهد وفعلاً في هذا اليوم أجريت لها عملية الإجهاض وعلى آخر اليوم كانت قد استعادت وعيها..

واستطاعت صديقتها أن تقنع أسرتها بأنها متعبة من الرحلة، وبعد ذلك بشهرين فوجئت بانقطاع أخبارها عني، ثم اكتشفت أنها خطبت لمهندس سيتزوجها ويسافر لأحد الدول العربية.. ذهبت لأهلها وواجهتهم بورقة زواجي مـن ابنـتهم. لكـنهم طردوني وأنكروا معرفة ابنتهم بي.. وحتى الآن أنا في حالة من الذهول.. كيف أقدمت هي على ذلك الزواج وهي مازالت متزوجة مني.. وماذا ستفعل ليلة الزواج.. أكاد أجن فعـلاً.. فلا زلت أحبها حبا شديدا.

انتهت كلمات صاحب الحكاية..

انتهت الحكاية ومن مجمـل أحـداثها وتفاصـيلها لا تستطيع أن تمنع نفسك من ازدراء كل أبطالها هو.. وهـي.. والأسرة الكريمة التي اعتبرت تصرف ابنتها مسألة "حريـة جنسية"! وبالتالي لا بد من طرد هذا المتطفـل الـذي يريـد فرض نفسه – على صاحبة الصـون والعفـاف – "بورقـة عرفي"!

**.......................

الحكاية هذه المرة تأتي في شكل حوار طويل جـرى بين الكاتب الصحفي عزت السعدني وإحدى الفتيات اللاتـي

تكلمن معه عن الزواج العرفي، وتم نشر الحوار في صفحة تحقيق السبت بالأهرام يوم ٢٠ مايو ٢٠٠٠. وهذا هو نـص الحوار بالحرف الواحد ومنه تبدو أبعاد المأساة:

دخلت إلى حجرتي متثاقلة الخطى شـاحبة الملامـح زائغة النظرات.. تحبس شعرها بمنديل أبيض اللون مزركش بوردات حمراء وإن كانت خصلة كبيرة تتدلى مـن تحـت المنديل على جبينها. كانت ترتدي بنطلونًا أسود ضيقا فوقـه بلوزة تركواز طويلة.. انشغلت عنها بعض الوقت في أمـور إدارية وصحفية.. كانت خلالها تكتب في كراسة محاضرات فردتها أمامها..

لم أكن أعرف ماذا كانت تكتب... ولكن عندما انتبهت إليها قدمت لي كراستها وقالت في صوت ضعيف.. لقد كتبت قصتي كاملة هنا أرجو أن تقرأها.. فقد تخونني شجاعتي في بعض المواقف فلا أتكلم.

رحت أقرأ ما كتبت..

أنا فتاة في العشرين من عمري.. طالبة فـي إحـدى كليات القمة كما يطلقون عليها.. دخلت هذه الكلية بعد مجهود خرافي في المذاكرة وحبست نفسي بين أربعة جدران حتـى

أحصل على المجموع الذي يؤهلني لدخول هذه الكلية.. رغم ظروف حياتنا الصعبة..

أترك كراستها لأسألها هي: ظروف صعبة زي إيه؟

قالت: أنا من أسرة فقيرة الحال.. أب موظف على قد حاله.. يادوب مهيته توكلنا طول الشهر.. ولولا إننا سـاكنين في بيت جدتي في حي شعبي وهي تساعدنا باللي تقدر عليه من وقت لآخر لكنا شحتنا أنا وأخواتي الأربعة.

أكمل قراءة ما كتبت..

ورغم مظاهر الفقر التي كانت تبـدو فـي ملابسـي البسيطة التي لم أكن أغيرها كثيرا.. إلا أنني لفـت نظـره.. طالب مثلي في نفس السنة ولكنه متريش حبتين وابن نـاس هاي.. وأبوه صورته في الجرائد وعلى شاشة التليفزيـون.. وعنده عربية ستة أمتار.. ورايق وفايق وآخر حلاوة وشقاوة في نفس الوقت.. وبيأخذ السنة في سنتين موش مهم.. فهـو ليس محتاجا. بيصرف في ساعة زمن مرتب أبويا في شـهر بحاله..وكمان الوظيفة المحترمة مستنياه حتى قبل ما يتخرج السنة الجاية – إذا نجح يعني.. واللا مانجحش ما تفرقش مع اللي زيه.. لكن واحدة مثلي لازم تذاكر وتدح وتطلع عينيهـا

وعين اللي خلفوها كمان علشان تنجح وتتخرج علشان الشهادة والوظيفة.

تركت المذكرات وقلت لها: عاوزك تتكلمي إنت أفضل.

قالت.. باختصار عجبته وبقينا أصدقاء.. وتطور الأمر من الصداقة البريئة إلى حب عنيف زي أفلام السينما كده.. هو أنور وجدي وأنا ليلى مراد.. ولكن في فيلم "ليلى بنت الفقراء".

تضحك وأضحك معها لأن قصة هذا الفيلم قصة كل عصر وكل أوان رغم مرور أكثر من خمسين سنة على ظهور هذا الفيلم وغيره مثل "ليلى بنت الأغنياء" وهي قصص مكررة. بنت فقيرة تحب ولدا غنيا وابن ناس.. أو ابنة ناس تحب ولدا فقيرا دقة.. وفي الآخر يتجوزوا، كأن الفقر للبطل أو للبطلة موش عيب!

قلت: يعني عملتم فيلما سينمائيا في الكلية؟!

قالت أيوه.. وشفت اللي ما شفتوش في حياتي كلها.. فسح وجري ولعب وأكل حلو وأماكن عمري ما شفتها وفساتين وبنطلونات وهدايا وبارفانات ودهب.. ولم أجد في

نفسي ما أقاوم به هذا التيار من الرفاهية فانجرفت معـه إلا شيء واحد.. هو نفسي!

أسألها: يعني إيه؟

قالت: افتكر واضحة ومش عاوزه تفسير أكثـر مـن كده.

قلت: وآخر مقاومتك دي؟

قالت: قلت له عاوزني – تبقى تتجوزني في الحلال!

أسألها: وعمل إيه؟

قالت: عرض أن يتجوزني عرفي.. وقال لي إنه زواج حلال شرعا.. واتجوزنا عرفي.. ورقة وقع عليهـا اثنـان شهود من اصحابنا في الكلية!

قلت لها: أهلك عرفوا!

قالت: لأ طبعا..

قلت: يبقى جواز باطل وموش شرعي.. زي ما قـال لي فضيلة المفتي!

ضربت على صدرها بيدها وشهقت تماما كما كانـت تفعل ستي عندما تحل بها مصيبة أو داهية من دواهي الزمن

وقالت بصوت أشبه بالاستغاثة: يا خبر.. أمال اللي في بطني ده يبقى موش شرعي؟!

قلت لها وقد ألجمتني المفاجأة: انتي حامل كمان؟!

قالت: في ثلاثة أشهر.

قلت: وهو عارف.

قالت: أيوه وموش مصدقني وبيقول يا شـيخة بطلـي لعب عيال.

قلت: وهي دي لعب عيال يا شاطرة؟

بدأت تبكي بصوت مسموع وهي تقول: أهو دي اللـي حصل.

أسألها: معك ورقة الزواج العرفي؟

قالت: معايا شايلاها عندي في البيت.

قلت: وبتعمل إيه في البيت. وأهلك ما عندهمش خبـر بالمصيبة اللي حطيتي نفسك فيها دلوقت.

قالت: أقول لهم إيه بس.. دا كان أبويا يقع من طولـه ويطب ساكت لأن عنده تصلب شرايين وأمي نفس الشـيء السكر قاتلها خالص!

قلت لها: آدي نتيجة دلع البنات والبيت الســايب اللــي بيسمح للبنت تعمل اللي هي عايزاه دون أن يشعر أحــد إلا بعد أن تقع الفأس في الرأس.

قالت: يا فندم هو فيه حاجة البنت عاوزه تعملها ومــا تعملهاش حتى لو حبسوها داخل أربع حيطان.. البنات بتعمل كل حاجة دلوقت، وأمام أهلها زي القطط المغمضة ظريفــة واطيفة ومؤدبة وما بتطلعش منها العيبة!

قلت: طيب فهمنا.. انت ناوية تعملي إيه دلوقت؟

قالت: أمال أنا جايه لحضرتك ليه؟

قلت: ما فيش غير حل واحد.. أول شيء تقعدي مــع اسم النبي حارسه وتعرفيه أنه سوف يصبح أبــا بعــد ســتة أشهر..

قالت: وإذا طلب مني اننا نروح لدكتور وننزل العيل؟

قلت: خطر عليك.. وإذا الدكتور قال ممكن ما تعمليش العملية دي إلا إذا طلع صاحبك ده ندل وتخلى عنك في وسط الطريق.. يبقى تعملي العملية وتخلصي من شبكته وقرفــه! وإذا وافق وطلع كويس وابن حلال واتقدم لعائلتــك رســمي

يطلب ايدك ويكتب كتابه عليك أهلا وسـهلا.. وإذا تراجـع اعملي العملية إذا لم يكن فيها خطورة عليك.

وفي الحالتين لازم أهلك يعرفوا الحكايـة بالضـبط.. وبالتفصيل انك متجوزه عرفي حامل كمان.. وابدئي بأمـك احكي لها كل شيء وهي ستقف جانبك وما فيش أم في الدنيا تتخلى عن بنتها في الظروف اللي زي دي!

قالت في انكسار: وإذا تهرب مني كمـا يفعـل الآن.. ورفض أي شيء؟

قلت: ما فيش يا ابنتي أمامـك إلا المحكمـة وحسـب القانون الجديد للأحوال الشخصية فإنه يعترف قانونا بزواجك منه إذا ظهرت الورقة التي تثبت ذلك.

وأكثر من كده سوف يثبت بنوة طفلك.. وأنـه أبـوه شرعا بالضبط زي ما حصل في فيلم فاطمة لأنور وجـدي الشاب الغني وأم كلثوم الممرضة الفقيرة.. عندما وقفت أمام القاضي تحمل طفلها الرضيع وقالت له: سعادة البيه إذا كانت ورقة الجواز مزورة يبقى ده برضه مزور!

يا ابنتي البنت هي التي تدفع الثمن في النهايـة.. فـي الزواج العرفي.. والولد لا يهمه شـيء، يتمتـع ويفـرفش

ويعيش عريس شويه أيام دون أي مسئولية.. زي الطير اللي يقف على كل زهر شوية يأخذ رحيقها ويتركها لغيرها..

والبنات لا تتعلم أبدا.

والبيت المصري لا يدري شـيئًا.. والأولاد يعبثـون ويضحكون على البنات بورقة زواج عرفـي وهـو مـوش زواج.. بل معاشرة جنسية بورقة.. في ظـل أزمـة زواج مستحكمة.. وشباب لا يعمل.. وإذا عمل فالوظيفة لا تكفـي لفتح بيت وتربية أولاد.. وإذا أراد الـزواج فالشـقة تقطـم الوسط بخلاف تكاليف الفرح والعفش والذي منه والفرح لازم في فندق.. خمس نجوم، قائمة طويلـة لا يقـدر عليهـا إلا القادرون – المشكلة كبيرة وتحتاج إلى مؤتمر كبير يشـارك فيه كل العلماء مع رجال الدين وكبار المسئولين للخروج من نفق الأحزان الذي اسمه الهباب العرفي.!

**....................

وانتهى الحوار. ولا أحد يعلم مصير الفتاة. ولا مصير ما تكون في أحشائها! وفي كـل الأحـوال لا تخـرج كـل الاحتمالات عن شيئين. الأول: انتهاء علاقة الزواج الوهمية بانسحاب "البطل" والثاني: البحث عن طبيبين. أحدهما إجراء

عملية إجهاض والآخر لإجراء عملية ترقيع حتى تعود كـل الأمور لطبيعتها – في الوقت المناسب – عندما يأتي موعـد "الزواج الرسمي"!

بقيت هنا أربع حكايات لكل منها طبيعتها ومغزاها.

الحكايات الأربع ظهرت على صفحات بريد الجمعـة، الذي يعد أهم أبواب الصحافة المصرية في عرض المشكلات الاجتماعية والأسرية.

أصحاب الحكايات أرسلن إلى الكاتـب الكبيـر عبـد الوهاب مطاوع يروين معاناتهن ويبحثن عن الحل في كلماته

تقول الحكاية الأولى:

أكتب إليك لأستشيرك في أمر يشغلني ويملك علي كل فكري.. فأنا سيدة في السادسة والأربعين من عمري مازلت احتفظ بقدر كبير من جمالي ورشاقتي، كمـا أن شخصـيتي اجتماعية ومحبوبة من الآخرين.. ولقد تزوجت منذ ٢٢ عاما من إنسان تعرفت عليه في نطاق الأسرة وأعجبتني شخصيته وأحببته.. وأحبني، وتعاونا على إقامـة عشـنا المشـترك.. ووقفت وراءه في كل خطوة حققها فـي حياتـك العمليـة.. وأنجبنا بعد الزواج ابنتين وولدا.. وتخليت عـن طمـوحي

المهني من أجله ومن أجل أبنائي، فحصلت على أجازة بدون مرتب بعد الإنجاب لرعاية أطفالي الصغار، وتفرغت لهم وله، وتفننت في تجميل بيتنا وحياتنا، بموهبتي التلقائية في الديكور والتزيين. وأنفقت كل هبات أبي المالية لي بعد الزواج في إضافة الجديد من قطع الأثاث.. وتغيير الستائر.. وتركيب الباركيه.. حتى صار بيتي تحفة يفتخر بها زوجي ويدعو رؤساءه في الشركة التي يعمل بها للعشاء فيه في المناسبات وهو يزهو به وبإجادتي للطهي أمامهم.. وبعد أن استنفذت رصيدي من الإجازة بدون مرتب عدت للعمل في الهيئة الحكومية التي عينت بها بعد التخرج وعملت بضعة أعوام أخرى.. ثم عدت للتفرغ للأسرة مع بدء ابنتي الكبرى لمرحلة الثانوية العامة.. وبعد نجاحها بتفوق والتحاقها بالكلية التي رغبت فيها عدت للعمل لمدة عام آخر ثم تفرغت مرة ثالثة حين جاء دور الابنة الثانية مع مرحلة الثانوية العامة.. وهكذا وزوجي سعيد بي وبأبنائه وبيته ويشيد بأمومتي وعطائي له ولأبنائي.. في كل مناسبة.. وحياتنا تمضي سعيدة وزاخرة بالحب والود والصداقة والتفاهم، أما المشاكل العابرة التي لا يخلو منها أي بيت.. لقد كانت تعبر حياتنا

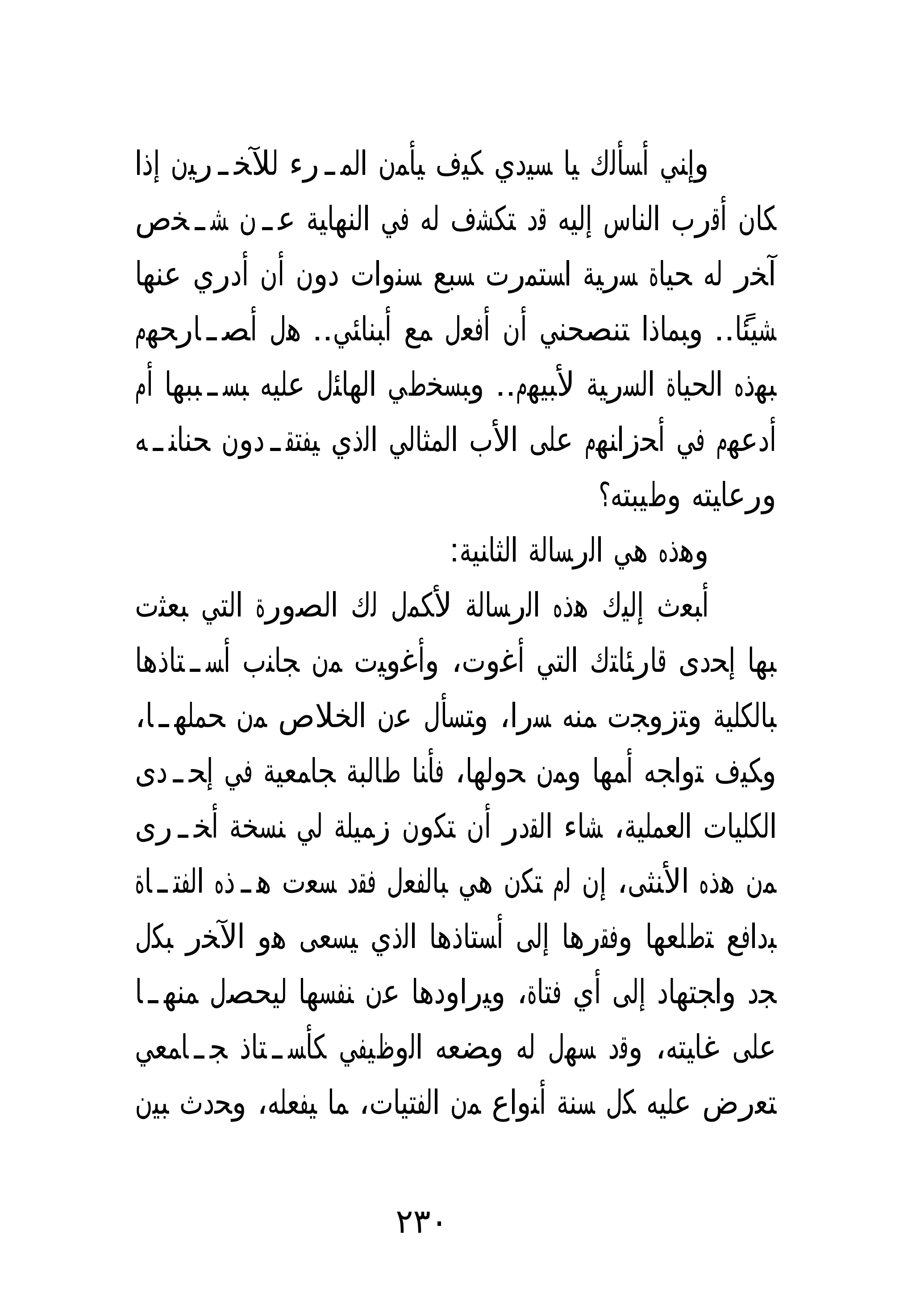
عبورا سريعا لا يترك أيـة مـرارة تـؤثر علـى علاقتنـا الحميمة.. وحافظنا دائما على علاقة المودة والحب والرحمة التي تجمع بيننا. ومنذ بضع سنوات رحل أبي عـن الحيـاة يرحمه ا وهو راض عني وعن زوجـي ويوصـيني بـه ويوصيه بي، وورثت عنه مبلغا من المال وضعته في وديعة بالبنك.. واستفدت بعائدها السنوي في التوسعة على أبنـائي ونفسي وزوجي، وأصبحت أمي بعد رحيـل أبـي لا تجـد راحتها إلا في بيتي.. بالرغم مـن إلحـاح إخـوتي عليهـا لاستضافتها عندهم.. فكانت تنتقل بين بيتها وبيوتهم.. وتستقر عندي لفترات أطول لحبها لي ولزوجي وأبنائي.. وفي غمرة سعادتنا بحياتنا وأسرتنا مرض زوجي فجأة مرضا شـديدا.. وتدهورت حالته الصحية خلال وقت قصـير وأنـا لا أكـاد أستوعب حقيقة ما يجري أمامي.. وتركت أبنائي في رعايـة أمي وانشغلت كلية برعاية زوجي والتنقل معه بين الأطباء.. ودخول المستشفى من حين لآخر، وأوفدته الشركة الكبـرى التي يعمل بها للعلاج في الخارج ولم يكن في قرار سفره بند لمرافق لأن طبيب الشركة يسافر مع مرضـاها المحتـاجين للعلاج في الخارج، فاقتطعت من وديعتي بالبنك مبلغا كبيـرا

وسافرت معه وأمضيت بالغربة شهرين كاملين تلقى خلالهما العلاج المكثف في أحد المراكز المتخصصة، ولاحت بشائر الأمل في تحسن حالته ورجعنا ونحن نتعلق بالأمل في الشفاء فلم تمض أسابيع حتى كان الداء قد هزمه.. ورحل عن الحياة وتركنا وأحسست بعد رحيله بأنني فقدت الأمان.. والإحساس بطعم الحياة. واستسلمت للحزن والاكتئاب.. وخيم الصـمت والظلام والكآبة على حياتنا، وأسدلت ستائر المسكن الجميـل الذي أثثناه معا قطعة قطعة على النوافذ وأبـواب الشـرفات كأنني لا أطيق أن يتسلل ضوء النهار إلى البيت الحـزين.. ورفعت فيشة أجهزة التليفزيون في غرفة المعيشة وغـرف النوم.. وغطيتها كلها بقطع من القماش.. وحرمت على نفسي وأبنائي سماع الموسيقى والغنـاء مـن الراديـو أو أجهـزة التسجيل بالرغم من إشفاقي عليهم من حزنهم وافتقادهم لأبيهم الحنون طيب القلب الذي كثيرا مـا غبطـت نفسـي عليـه وشكرت ا كثيرا أن أنعم به وبأبنائي علي ودعوت له ولهم كل يوم أن يحفظهم ربهم من كل سوء.. وواصلت الاستسلام لنوبات البكاء وأمي تلومني على اسـتغراقي فـي الحـزن والكآبة.. وتطلب مني التخفيف عن نفسي وعن أبنائي وفـتح

نوافذ المسكن ومساعدة أبنائي على تجاوز المحنة والخروج من البيت.. وقطع الأجازة والعودة للعمل لكي يشغلني عن أحزاني.. ومضت أسابيع ونحن على هذه الحال.. ثم بدأت أسمع غمغمة وكلاما مبهما ممن حولي.. وتكرر الكلام الغامض دون أن أفهمه.. إلى أن تخلص الأهل من الحرج وقالوها لي صراحة. وهي أن زوجي الحبيب الراحل الذي كان بالنسبة لي ككتاب مفتوح قرأت كل صفحاته، كان متزوجا زواجا عرفيا موثقا لدى المحامي من أرملة لها أبناء وتتقاضى معاشا عن زوجها الراحل ولولا ذلك لتزوجها زواجا رسميا وأن هذا الزواج السري تم منذ سبع سنوات وظل مستمرا حتى اللحظة الأخيرة دون أن أدري وقد تكشف لهم أمره بعد رحيله عن الحياة بأيام قليلة وصدمت في وفاء زوجي لي صدمة أذهلتني عن صدمة فقدي إياه وتملكني الذهول فترة طويلة.. وفقدت الثقة في نفسي وفي الحب والإخلاص والوفاء وكل القيم المثالية، وتعجب كيف تزوج هذه السيدة؟! ولماذا؟! ومتى تعرف بها؟! وأين؟! وكيف لم ألحظ علي شيئًا خلال سبع سنوات؟ وبعد فترة الذهول الأولى، فوجئت ببركان من الغضب ينفجر داخلي ونهضت

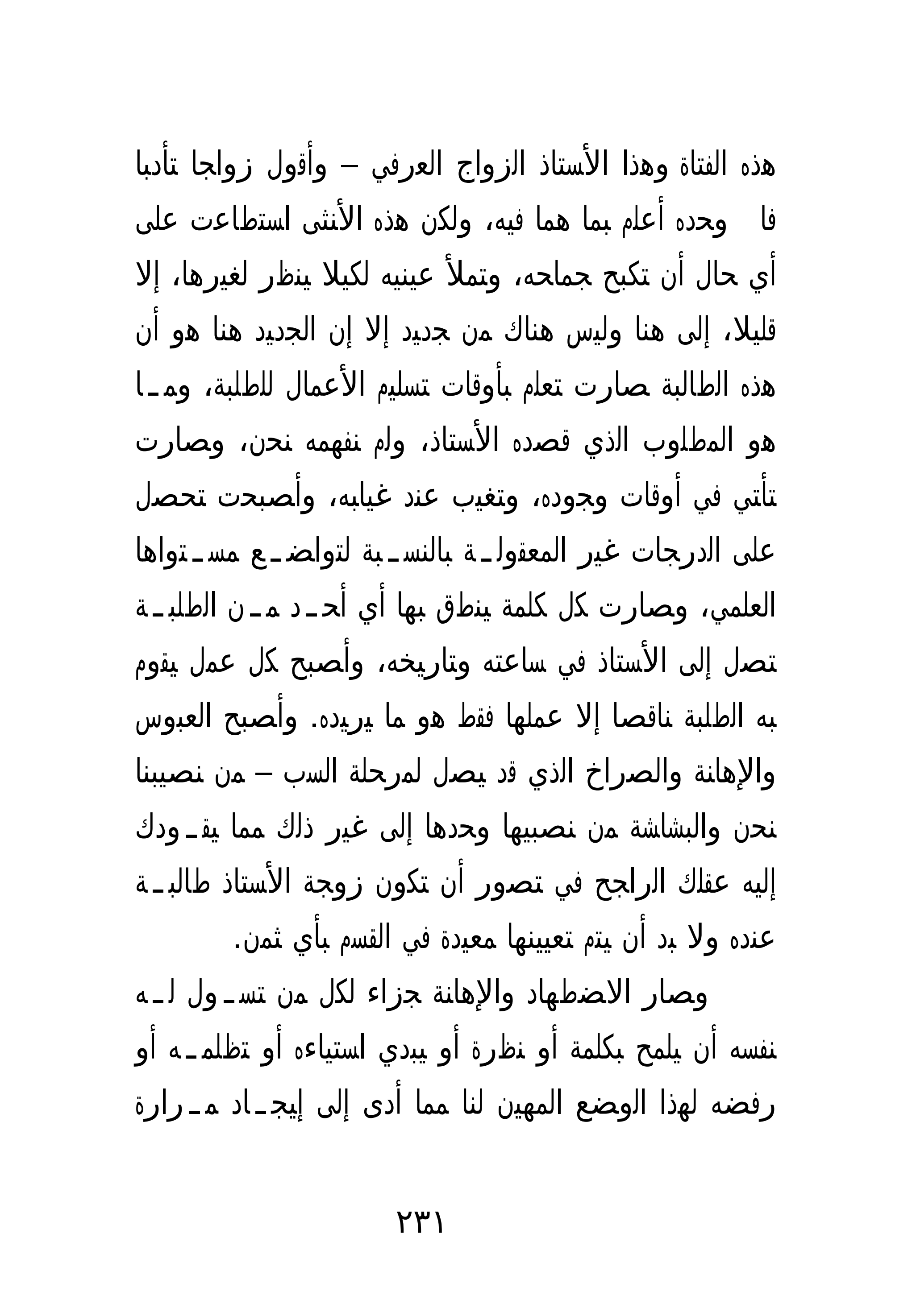
من نومي المتقطع في الصباح ذات يـوم فوجـدتني أفـتح الستائر المسدلة في كل نوافذ البيت.. ليدخل ضوء الشـمس إلى المكان.. وأرفع الغطاء عن أجهزة التليفزيون.. وأفتحها كلها وأخلع الملابس السوداء وأرتـدي الملابـس الرماديـة والزرقاء.. وأطب من البنتـين أن تخلعـا ملابـس الحـداد وترتديا ما تشاءان من الملابس الملونة ما عدا الحمراء منها وتتساءل الابنتان عن السبب في هذا الانقلاب فأشفق عليهمـا من الإجابة وأغير الموضوع.. وأتحمل نظرات اللـوم فـي عينيهما حين أخرج في زيارات عائليـة أو إلـى الأسـواق وأدعوهما للخروج معي للترويح عن نفسيهما وبالرغم مـن كل ما أحسست به من غيظ وقهر حين عرفت بأمر الزوجـة السرية لزوجي فلم أصارحهما بعد بسبب تغيـري. وخلعـي لملابس الحداد.. أما حيرة ابني الصغير لما طرأ علـي مـن تغيرات فلقد فسرتها له بأنني أريد مساعدتهم بذلك على عدم الاستسلام للحزن حتى لا تتأثر صحتهم ودراستهم.

وفي بعض الأحيان أستريح لما فعلـت.. ولالتزامـي الصمت مع أبنائي بشأن أبيهم. وفي بعض الأحيان يتملكنـي السخط والغيظ فأعتزم مصارحتهم بالسبب الحقيقي.

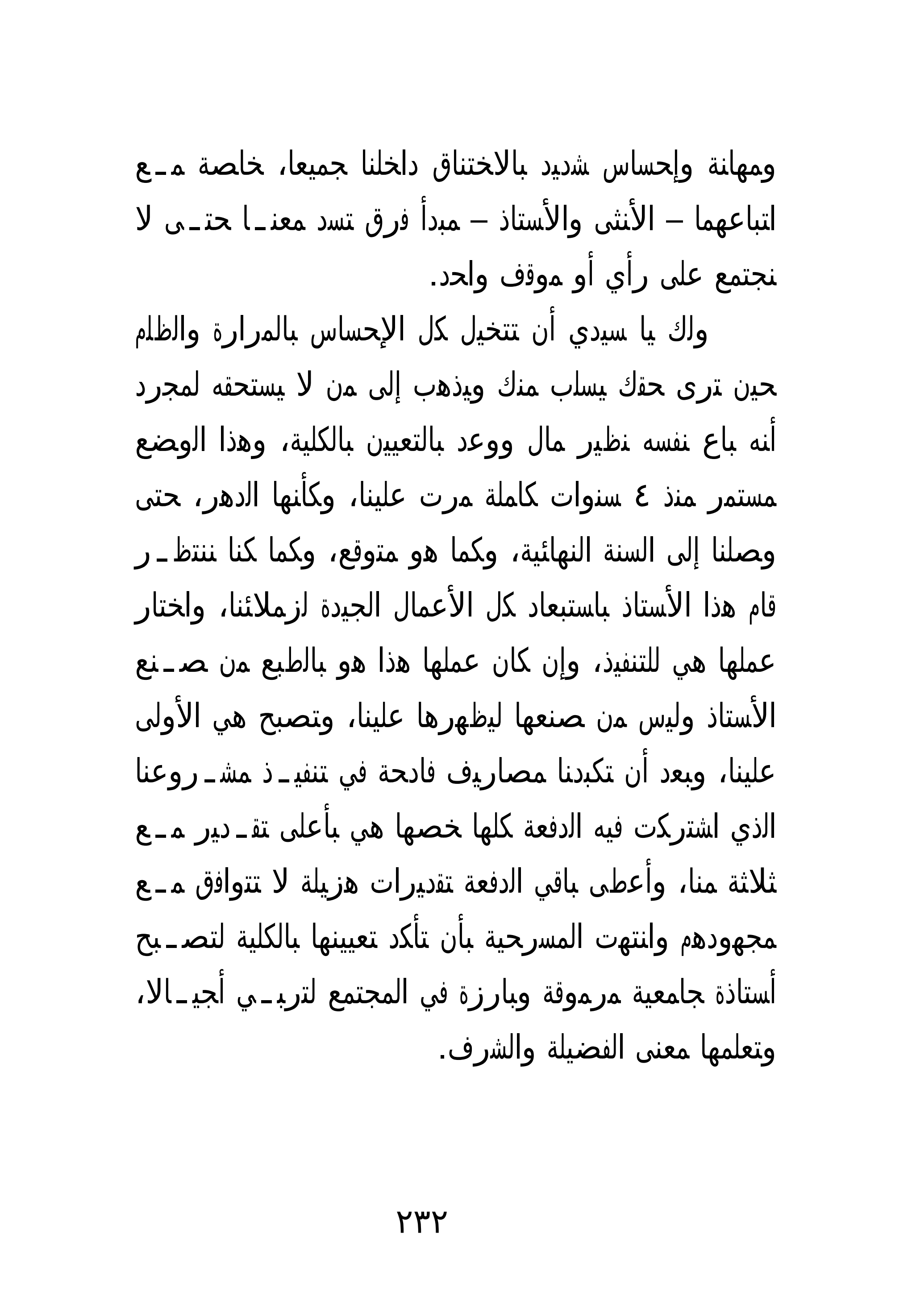

وإني أسألك يا سيدي كيف يأمن المـرء للآخـرين إذا كان أقرب الناس إليه قد تكشف له في النهاية عـن شـخص آخر له حياة سرية استمرت سبع سنوات دون أن أدري عنها شيئًا.. وبماذا تنصحني أن أفعل مع أبنائي.. هل أصـارحهم بهذه الحياة السرية لأبيهم.. وبسخطي الهائل عليه بسـببها أم أدعهم في أحزانهم على الأب المثالي الذي يفتقـدون حنانـه ورعايته وطيبته؟

وهذه هي الرسالة الثانية:

أبعث إليك هذه الرسالة لأكمل لك الصورة التي بعثت بها إحدى قارئاتك التي أغوت، وأغويت من جانب أسـتاذها بالكلية وتزوجت منه سرا، وتسأل عن الخلاص من حملهـا، وكيف تواجه أمها ومن حولها، فأنا طالبة جامعية في إحـدى الكليات العملية، شاء القدر أن تكون زميلة لي نسخة أخـرى من هذه الأنثى، إن لم تكن هي بالفعل فقد سعت هـذه الفتـاة بدافع تطلعها وفقرها إلى أستاذها الذي يسعى هو الآخر بكل جد واجتهاد إلى أي فتاة، ويراودها عن نفسها ليحصل منهـا على غايته، وقد سهل له وضعه الوظيفي كأسـتاذ جـامعي تعرض عليه كل سنة أنواع من الفتيات، ما يفعله، وحدث بين


هذه الفتاة وهذا الأستاذ الزواج العرفي – وأقول زواجا تأدبا فا وحده أعلم بما هما فيه، ولكن هذه الأنثى استطاعت على أي حال أن تكبح جماحه، وتملأ عينيه لكيلا ينظر لغيرها، إلا قليلا، إلى هنا وليس هناك من جديد إلا إن الجديد هنا هو أن هذه الطالبة صارت تعلم بأوقات تسليم الأعمال للطلبة، ومـا هو المطلوب الذي قصده الأستاذ، ولم نفهمه نحن، وصارت تأتي في أوقات وجوده، وتغيب عند غيابه، وأصبحت تحصل على الدرجات غير المعقولـة بالنسـبة لتواضـع مسـتواها العلمي، وصارت كل كلمة ينطق بها أي أحـد مـن الطلبـة تصل إلى الأستاذ في ساعته وتاريخه، وأصبح كل عمل يقوم به الطلبة ناقصا إلا عملها فقط هو ما يريده. وأصبح العبوس والإهانة والصراخ الذي قد يصل لمرحلة السب – من نصيبنا نحن والبشاشة من نصيبها وحدها إلى غير ذلك مما يقـودك إليه عقلك الراجح في تصور أن تكون زوجة الأستاذ طالبـة عنده ولا بد أن يتم تعيينها معيدة في القسم بأي ثمن.

وصار الاضطهاد والإهانة جزاء لكل من تسـول لـه نفسه أن يلمح بكلمة أو نظرة أو يبدي استياءه أو تظلمـه أو رفضه لهذا الوضع المهين لنا مما أدى إلى إيجـاد مـرارة



ومهانة وإحساس شديد بالاختناق داخلنا جميعا، خاصة مـع اتباعهما – الأنثى والأستاذ – مبدأ فرق تسد معنـا حتـى لا نجتمع على رأي أو موقف واحد.

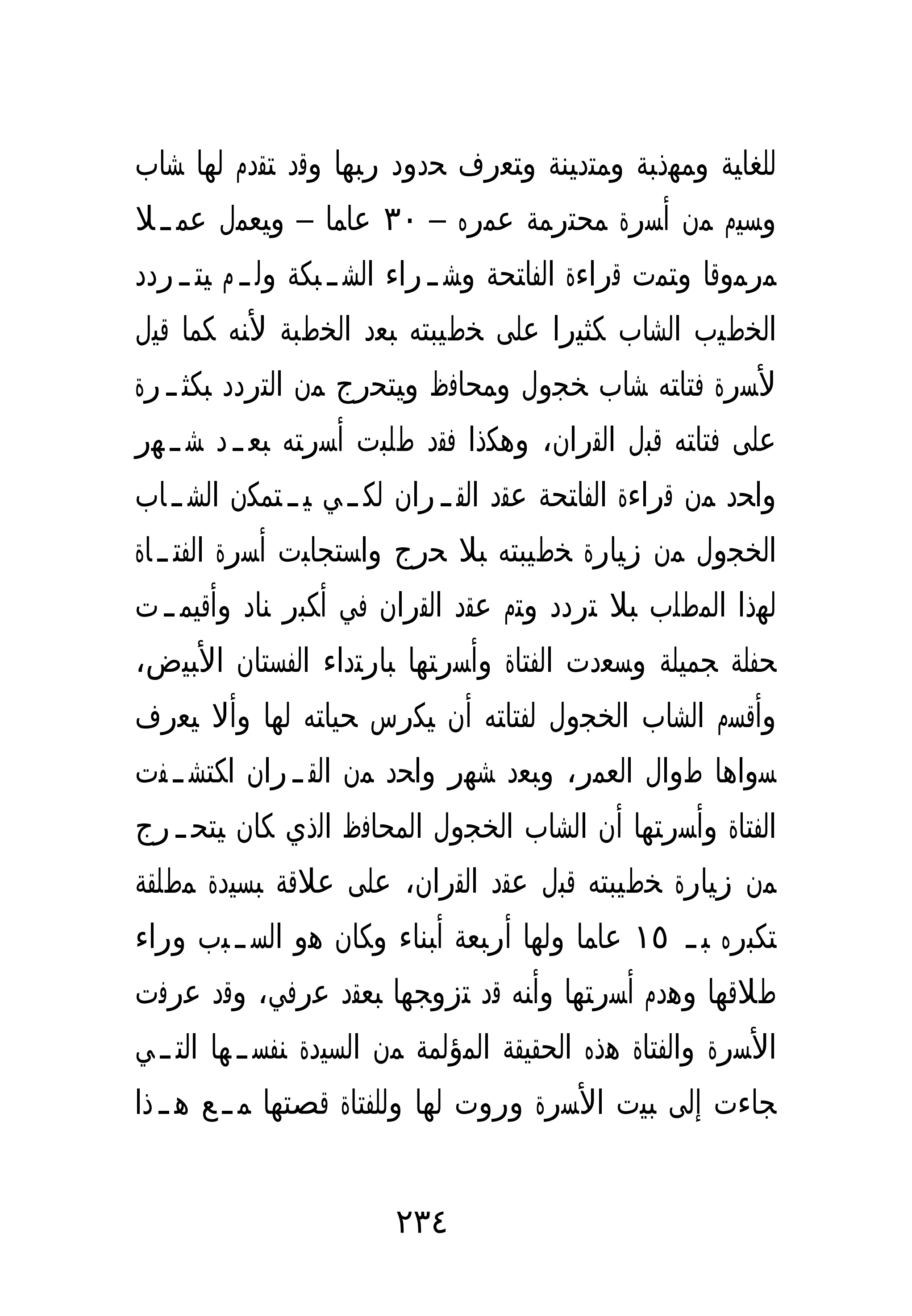
ولك يا سيدي أن تتخيل كل الإحساس بالمرارة والظلم حين ترى حقك يسلب منك ويذهب إلى من لا يستحقه لمجرد أنه باع نفسه نظير مال ووعد بالتعيين بالكلية، وهذا الوضع مستمر منذ ٤ سنوات كاملة مرت علينا، وكأنها الدهر، حتى وصلنا إلى السنة النهائية، وكما هو متوقع، وكما كنا ننتظـر قام هذا الأستاذ باستبعاد كل الأعمال الجيدة لزملائنا، واختار عملها هي للتنفيذ، وإن كان عملها هذا هو بالطبع من صـنع الأستاذ وليس من صنعها ليظهرها علينا، وتصبح هي الأولى علينا، وبعد أن تكبدنا مصاريف فادحة في تنفيـذ مشـروعنا الذي اشتركت فيه الدفعة كلها خصها هي بأعلى تقـدير مـع ثلاثة منا، وأعطى باقي الدفعة تقديرات هزيلة لا تتوافق مـع مجهودهم وانتهت المسرحية بأن تأكد تعيينها بالكلية لتصـبح أستاذة جامعية مرموقة وبارزة في المجتمع لتربـي أجيـالا، وتعلمها معنى الفضيلة والشرف.

إن الزوجة الأولى لمثل هذا الأسـتاذ وأولاده ليسـوا الأولى بالشفقة في هذه القصة، وإنما نحن الأولى بها لما وقع علينا من ظلم، وضياع حق ولا نستطيع الصراخ والشـكوى لأنه لا رقيب على الأستاذ الجـامعي إلا ضـميره، ولأنـك مطالب بدليل مادي لإثبات ما تقول كشهادة زواج، إن كـان لها وجود.

إنني لا أبعث إليك خطابي هذا لتواسيني فمـا أنـا إلا واحد من ٢٠ طالبا وطالبة تعرضوا لهذا الظلـم ولا لتوجـه كلمة إلى هذا الأستاذ لأنه لو كان ذا ضمير لمنعه من ظلمـه لنا، وإنما أكتب هذا الخطاب لأسألك: ألا من سبيل ينهي مثل هذه المهازل، وإلى من نشكو أمرنـا بعـد ا . ويمكنـه رد اعتبارنا، ولو على الأقل بعدم تعيين هذه الأنثى لكيلا يصبح هذا الطريق الخاطئ هو طريق الوصول لتحقيق الأهداف؟

وهذه هي الرسالة الثالثة:

أكتب اك للمرة الثالثة وأرجو أن تهتم برسالتي لأنهـا مهمة للغاية وليس لي وإنما لابنة صديقتي العزيزة وزميلتـي في العمل، فهذه الفتاة تبلغ من العمر عشرين عامـا وهـي طالبة في السنة النهائية بكلية جامعية مرموقة، وفتاة جميلـة



للغاية ومهذبة ومتدينة وتعرف حدود ربها وقد تقدم لها شاب وسيم من أسرة محترمة عمره – ٣٠ عاما – ويعمل عمـلا مرموقا وتمت قراءة الفاتحة وشـراء الشـبكة ولـم يتـردد الخطيب الشاب كثيرا على خطيبته بعد الخطبة لأنه كما قيل لأسرة فتاته شاب خجول ومحافظ ويتحرج من التردد بكثـرة على فتاته قبل القران، وهكذا فقد طلبت أسرته بعـد شـهر واحد من قراءة الفاتحة عقد القـران لكـي يـتمكن الشـاب الخجول من زيارة خطيبته بلا حرج واستجابت أسرة الفتـاة لهذا المطلب بلا تردد وتم عقد القران في أكبر ناد وأقيمـت حفلة جميلة وسعدت الفتاة وأسرتها بارتداء الفستان الأبيض، وأقسم الشاب الخجول لفتاته أن يكرس حياته لها وألا يعرف سواها طوال العمر، وبعد شهر واحد من القـران اكتشـفت الفتاة وأسرتها أن الشاب الخجول المحافظ الذي كان يتحـرج من زيارة خطيبته قبل عقد القران، على علاقة بسيدة مطلقة تكبره بـ ١٥ عاما ولها أربعة أبناء وكان هو السـبب وراء طلاقها وهدم أسرتها وأنه قد تزوجها بعقد عرفي، وقد عرفت الأسرة والفتاة هذه الحقيقة المؤلمة من السيدة نفسـها التـي جاءت إلى بيت الأسرة وروت لها وللفتاة قصتها مـع هـذا

الشاب وكيف أنه تزوجها بمقتضى هذا العقد العرفـي، أمـا تاريخ هذا العقد العرفي فهو للدهشة عقب عقد قرانـه علـى هذه الفتاة الجميلة الطيبة بأسبوع واحد.

وأصيبت الأسرة والفتاة بصدمة هائلة واستدعى والـد الفتاة خطيب ابنته وواجهه بما عرفه عنه، فإذا به يعترف به ببساطة ويدافع عن نفسه بأنه خطأ قد وقع فيـه واسـتدرجته إليه هذه السيدة ولن يكرره مرة أخرى ويطلب العفو عنه.

ولدهشة الجميع، فلقد أعتبر الأب هذا الاعتراف تسليما بالخطأ وتعهدا بإصلاحه، وبالتالي فلقد تجاوز عنه قـائلا: إن ا غفور رحيم، ومؤكدا أن الشاب سوف يقطع علاقته بهذه السيدة ولن يرجع إلى الخطأ مرة أخرى وهـدأت الزوبعـة بعض الشيء وانتظم ومضت فترة قصيرة من الـزمن فـإذا بالأسرة تكتشف أن علاقته بتلك السيدة لم تنقطع يوما واحـدا وأنه قد اصطحبها في رحلة إلى بورسعيد لمـدة أسـبوعين وكان مصدر الخبر هو هذه السيدة نفسها، التي قالت لأسـرة الفتاة إنها تحبه وهو يحبها ولا يستطيع الاستغناء عنها أبـدا، وإنه لم يعقد قرانه على هذه الابنة إلا طلبا للحسب والنسـب اللائقين به فقط أما قلبه فهو لها دون غيرهـا وهـو شـديد

الارتباط بها لأنه يحب السهر والفرفشة والرقص والمتعـة، وهي تقدم له كل ذلك في حين أن خطيبته متدينة ومتحفظـة ورفضت خلع الحجاب استجابة لطلبه وبعد أن تأكدت الأسرة من كل ذلك استدعى والد الفتاة خطيب ابنتـه مـرة أخـرى وطالبه بالحسنى بطلاق ابنته، فإذا به يرفض الطلاق ويؤكـد أنه متمسك بخطيبته لأخلاقها وتدينها ولن يتنازل عنها.

وليست هذه هي المشكلة الحقيقية، التي أكتب اك عنها لأطاب مشورتك فيها وإنما المشكلة الأكبر هو أن هذه الفتـاة الطيبة نفسها ترفض الطلاق هي الأخرى بالرغم من حزنهـا الشديد وبكائها المستمر ولسبب عجيب هو خوفهـا مـن أن تتعرض سمعتها للأذى إذا طلقت من هذا الشـاب وتسـاءل الناس لماذا طلقها قبل أن يدخل بها، ولهذا فهي تفضل عـدم الطلاق حفاظا على سمعتها وليس تمسكا بهذا الشاب الـذي تعرف جيدا أنه لا يصلح لها، ووالدتها تحاول إقناعها بكـل السبل بأن هذا الزواج لن يعدها سوى بالعنـاء وأنـه مـن الأفضل لها أن تحصل على الطلاق الآن بدلا من أن تتزوج وتتعذب بخيانات زوجها وتعجز عن احتمـال الحيـاة معـه فترجع إلى أسرتها ومعها طفل وليد.

لكن الفتاة تجيب على كل هذه المحاولات وهي تبكـي الدموع الغزيرة أن الطلاق هو أبغض الحلال عنـد ا وأن هذا هو قدرها ونصيبها وعليها أن تتحملـه راضـية، لقـد شاركت والدتها صديقتي محاولة إقناع هـذه الفتـاة الطيبـة بإنهاء هذه القصة قبل أن يتفاقم الخطأ ولكـن دون جـدوى، فهل تشاركنا في إقناعها بما فيه خيرها ومصلحتها؟

وهذه هي الرسالة الرابعة:

أنا فتاة(•) في الثالثة والعشرين من عمري.. نشأت بين أبوين يسود بينهما الحب والتفاهم ومع إخـوة أحبـاء مـن الجنسين لكل منهم حياته الخاصة الموفقة، وقد بدأت قصـتي التي دفعتني للكتابة إليك منذ ٣ سنوات وأنا في بداية دراستي الجامعية فلقد تعرفت على شاب يقاربني في العمر ويـدرس بإحدى كليات القمة وشعرت تجاهه بالاحترام والتقدير ثم لـم ألبث أن شعرت بعد فترة قصيرة من تعارفنا بقلبـي يخفـق تجاهه وكانت المرة الأولى التي يخفق فيها لأحد.. ولم يمض وقت طويل حتى صارحني بمشاعره وارتبط كل منا بالآخر وازداد عمق العلاقة بيننا ومضى عام على هذا الارتباط، ثم

• ٢٨ يناير ٢٠٠٠.

حدث أن حضرنا معا احتفالا صغيرا لزواج أحد الأصـدقاء عرفيا من زميلة لنا.. فطرأت الفكرة على ذهن كل منا فـي وقت واحد تقريبا.. لماذا لا نفعل ما فعلاه وبالطريقة نفسها؟

وخلال أيام أبدى كل منا رغبته في أن نتزوج زواجـا عرفيا لا يعلم به أحد من الأهل.. ولكن بشـرط أن أحـتفظ بعذريتي وكان دافعي إلى ذلك هو أن يطمئن قلبـي إلـى أن ارتباطنا سيصبح بذلك أبديا وحتى نهاية العمر، وبالطريقـة نفسها التي تم بها زواج الصديقين أتممنا زواجنا عنـد أحـد المحامين وأعطاني فتاي مهرا وشهد على العقد شاهدان مـن أصدقائه. وعلم به بالفعل بعض الأصدقاء المحدودين علـى سبيل الإشهار وعشنا بضعة أشهر تمـلأ السـعادة والحـب والاحترام حياتنا إلى أن جاء يوم والتقيـت بـه فـي شـقته الخاصة تلبية لرغبته ولكـي أرى "عـش الزوجيـة" الـذي سأصبح ملكته المتوجه بعد التخرج كما قال لي، وباختصـار فلقد خرجت من مسكنه تلك الليلة وأنا "سـيدة" ومشـاعري متضاربة بين الخوف والقلق والترقب، وتوقفت عن الاتصال به لمدة يومين كنت خلالهما أراجع نفسي فيما انتهـى إليـه أمري وأحاول تبين موضع قدمي، فاتصل بي هو معبرا لـي

عن سعادته بأنني قد أصبحت زوجته بالفعل.. ومؤكدا لي أن علينا أن نستمتع بحياتنا الزوجية الكاملة خلال فترة الانتظار إلى أن نتخرج ويتمكن من تحويل الزواج العرفي إلى زواج رسمي.. ولم أكن أملك سوى إطاعته في كل شيء وعشـنا عاما آخر كاملا على هذا النحو لمست خلاله في "زوجي" كل معاني الرجولة والإخلاص وكان "الجانب السيئ" الوحيد في ذلك هو أنني كنت أشعر في داخلي بـأنني "لصـة" أسـرق الوقت الذي أذهب فيه لزوجي لتلبية احتياجاته.. وأسرق من أبي وأمي عمرهما الذي أضاعاه في تربيتي ورعايتي وتوفير كل مطالبي وأحترف الكذب عليهما وأخـون ثقتهمـا التـي أعطياها لي بلا حدود، وشق علي تحمل هذا الوضع لفتـرة أخرى فصارحت زوجي بأفكاري وطالبته بأن يتقدم لخطبتي خاصة أنني قد رفضت أكثر من خاطب مناسب دون إبـداء أي أسباب.. فكانت الصاعقة التي أصابتني في مقتـل حـين رفض التقدم لطلب يدي وتخلى عني متعللا بأنه لن يـتمكن من إقامة بيت وتكوين أسرة قبل عشر سنوات.. ولأنه سوف يظلمني بزواجه مني لأن حبي له أكبر من حبه لي!

وتجلت الحقيقة المؤلمة أمامي.. وانهرت نفسيا وصحيا وذبل جمالي وماتت الضحكة في وجهي.. وتساءلت لماذا فعل بي ذلك؟ أليس لأنني قد تساهلت معه على طول الخط؟

أو ليس معنى هذا أنه وبعد أن أخذ مني كل شيء يريد لنفسه الآن فتاة أكثر حرصا على نفسها لكي يعطيها اسمه؟ ومرت بي أيام عصيبة إلى أن تمالكت نفسي وطلبت منه الانفصال على أمل أن يرجع عن رأيه السابق.. فإذا به بعد قليل من التردد يوقع الطلاق.. وإذا بي أرى الدنيا كلها أمامي سوداء وأكره نفسي وكل الرجال.

وعشت فترة من أسوأ فترات عمري.. أشعر بخوف قاتل من مواجهة كل من هم حولي وأحس بنظرات الناس جميعا لي وأنا في الطريق وكأنها تتهمني في شرفي وتلومني على ما فعلت بنفسي وحياتي وأسرتي.. وظللت هكذا إلى أن تقدم لي شاب لم أستطع رفضه وهتف بي هاتف في قلبي أن أقبل به خاصة أن بعض صديقاتي قد طمأنني على إمكان "إصلاح" الخطأ الذي تورطت فيه!

وتمت الخطبة وفوجئت خلال تعاملي مع خطيبي بنوع لم آلفه من البشر فهو شاب ممتاز وأخلاقه كريمة وقلبه

طيب للغاية ويزداد حبا لي يوما بعد يوم. فبدأت أسأل نفسي ما ذنب هذا الشاب الطيب في أن ينخدع في؟ لماذا لم ألتق به قبل خطيئتي الفاجعة؟.. وبعد تفكير غير قصير قـررت ألا أتحمل وزر خديعة هذا الشاب المخلص ويكفيني ما تحملتـه من أوزار في الفترة السابقة، وصارحته بعجزي عن إتمـام الزواج وقدمت له وثيقة الزواج العرفي.. فقرأها وغرق فـي صمت عميق لعدة دقائق ثم غادر بيتنا بلا سلام.

ومضى يومان شعرت خلالهما – علـى الـرغم مـن الأسى – بأنني قد "تحررت" من بعض الذنب الذي يثقل على صدري.. ثم اتصل بي قائلاً إن لكل إنسان خطأ مخجلا فـي حياته وإنه على الرغم من فداحة خطئي الذي لا يغتفر، فإنني كنت أستطيع خداعة وإتمام الـزواج منـه دون أن يكتشـف الحقيقة، وأن عذري الوحيد فيما فعلت أنه كان "زواجا" حتى ولو كان عرفيا.. ولم أكن قد التقيت به بعد. وبالتـالي فهـو يصفح عما جرى ويرغب في إتمـام الارتبـاط. فشـعرت بالخجل من نفسي أكثر وأكثر، ومزقنا معا ورقـة الـزواج الملعون.. واتفقنا على أن نبدأ صفحة جديدة في حياتي خالية من الأخطاء.. وخلال ذلك إذا ببركان من الحنـق والغـيظ

والغضب ينفجر في قلبي تجاه فتاي الأول.. وإذا بي أتمنـى أن يأتي اليوم الذي يشعر فيه بخطئه الفادح ويأتي لكي يطلب مني الصفح والعفو عنه.. أو أن يتزوج وينجب بنات يخدعهم شباب مثله بالكلام المعسول المخادع ويتخلون عـنهن كمـا تخلى عني..

إنني أكتب لك هذه الرسالة لكي أحذر كل فتاة في مثل عمري ألا تنخدع بوهم الحب الزائـف وخديعـة "الـزواج العرفي" التي يتحايل بها بعض الشباب على الفتيـات لكـي ينالوا منهن ما يريدون، ثم يلقون بهن وراء ظهـورهم كمـا حدث معي.. أرجو أن تؤكد هذا المعنى كما تفعل كثيرا وأن تكتب كلمة لفتاي السابق تذكره فيها بأن في السماء ربا يمهل ولا يهمل، ولن ينجو من عقابه عما فعل بي.. أما أنـا فـإن الإحساس المرير بالذنب يقتلني وأستغفر ربي ليلا ونهـارا.. وأتساءل هل أتمم زواجي من خطيبي الحالي بعد كـل مـا جرى.. خوفا من أن يعيرني به في المستقبل بعد الزواج.. أم أتركه لمن هي أفضل مني.. وأنتظر شخصا آخـر لا يعلـم شيئًا عما حدث وأخدعه بالطهر والعفاف المزيفين كما تفعـل بعض الفتيات؟

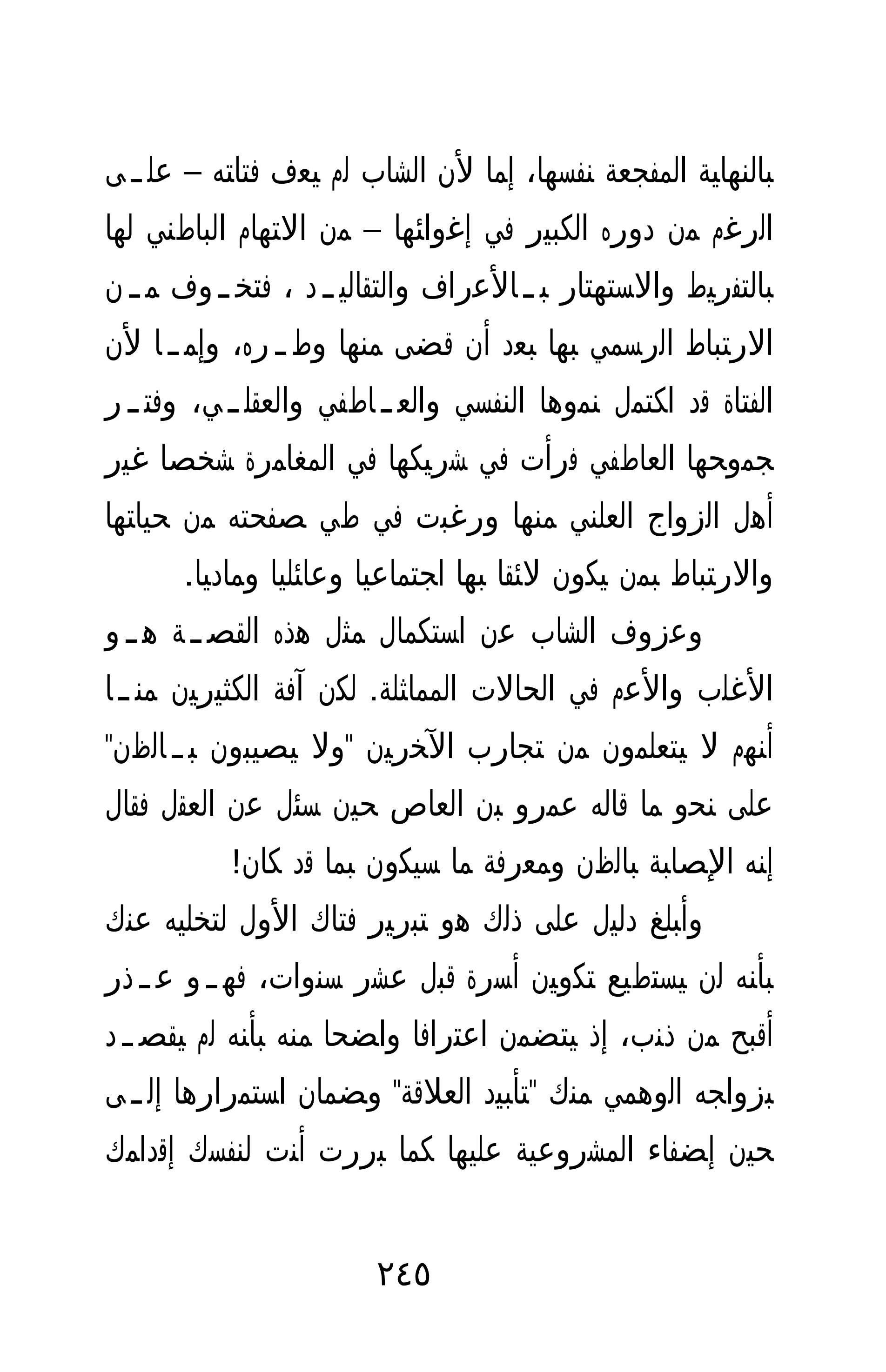
وقد رد الكاتب الكبير عبد الوهاب مطاوع على الرسالة ردا بليغا تعرض فيه لكل ما يتعلق بالزواج العرفي ومشاكله وقال:

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

"الجوانب السيئة" في قصتك هذه كثيرة وليست جانبا واحدا كما تقولين في رسالتك.. ولن أحدثك فقط عن خيانتك لثقة أبويك فيك وهما اللذان أفنيا عمريهما في رعايتك وتلبية احتياجاتك ومنحاك ثقتهما المطلقة بلا حدود.. وإنما سأحدثك أيضا عن الاندفاع والتهور والاجتراء على كل الأعراف والتقاليد بإقدامك على الزواج العرفي السري من شاب يقاربك في العمر ويدرس معك بالجامعة نفسها، وأنت في الثالثة والعشرين من عمرك ودون التوقف لحظة واحدة للتساؤل عن مدى مشروعية هذا الزواج.. وجديته وحله أو حرمته في غياب الأهل وأولياء الأمر.. وهل هو الطريق الصحيح إلى الزواج المشروع العلني فيما بعد أم أنه مجرد حيلة "قانونية" لإضفاء مشروعية كاذبة على علاقة خاصة.. والتعلل بها لاستباحة الأعراض والاغتراف من اللذة المؤقتة، إلى أن يزهد فيها أحد الطرفين ويصحو من غفلته؟

بل ودون التوقف للتساؤل عن أثر مثل هـذا الـزواج "المزعوم" – حتى ولو كان قد تم في مكتب محام ووقع عليه شاهدان و"علم" به بعض الأصدقاء على سبيل الإشهار كمـا تقولين – على حياة الفتاة التي تتورط فيه في المستقبل أو إذا تراجع "الزوج" عن الوفاء بعهده لمن أوقعها في حبائل هـذا الشرك الخداعي ولم يتقدم لأسرة فتاته ويدخل البيـوت مـن أبوابها لطلب يدها من أبويها كما فعل معك فتاك الأول؟

ولو أنك حين "انبهرتما" بتجربة زواج عرفي مماثل تم بين بعض الأصدقاء، وأغراكما ذلك كما تفعل القدوة السـيئة غالبا بتقليد التجربـة بـدعوى "تأبيـد" العلاقـة وضـمان استمرارها، لو أنك قد حاولت حينـذاك استقصـاء أو تتبـع مصير بعض حالات الزواج العرفي التي تمت بـين طلبـة وطالبات جامعيين أو فتية صغار خارج دائرة الأهل وبهـذا المبرر المزعوم نفسه.. لتعرفي كم منها قد حقـق الغـرض المنشود من ورائها.. وتخرج الطرفـان وتوجـا قصـتهما بالزواج الرسمي، وكم منها قد انتهـى بالخـذلان والخيبـة والغدر بالعهود، لأدركت عمق الهاوية التي تنحرفين إليها من البداية، وعرفت أن معظم هذه الزيجات قـد انتهـى تقريبـا



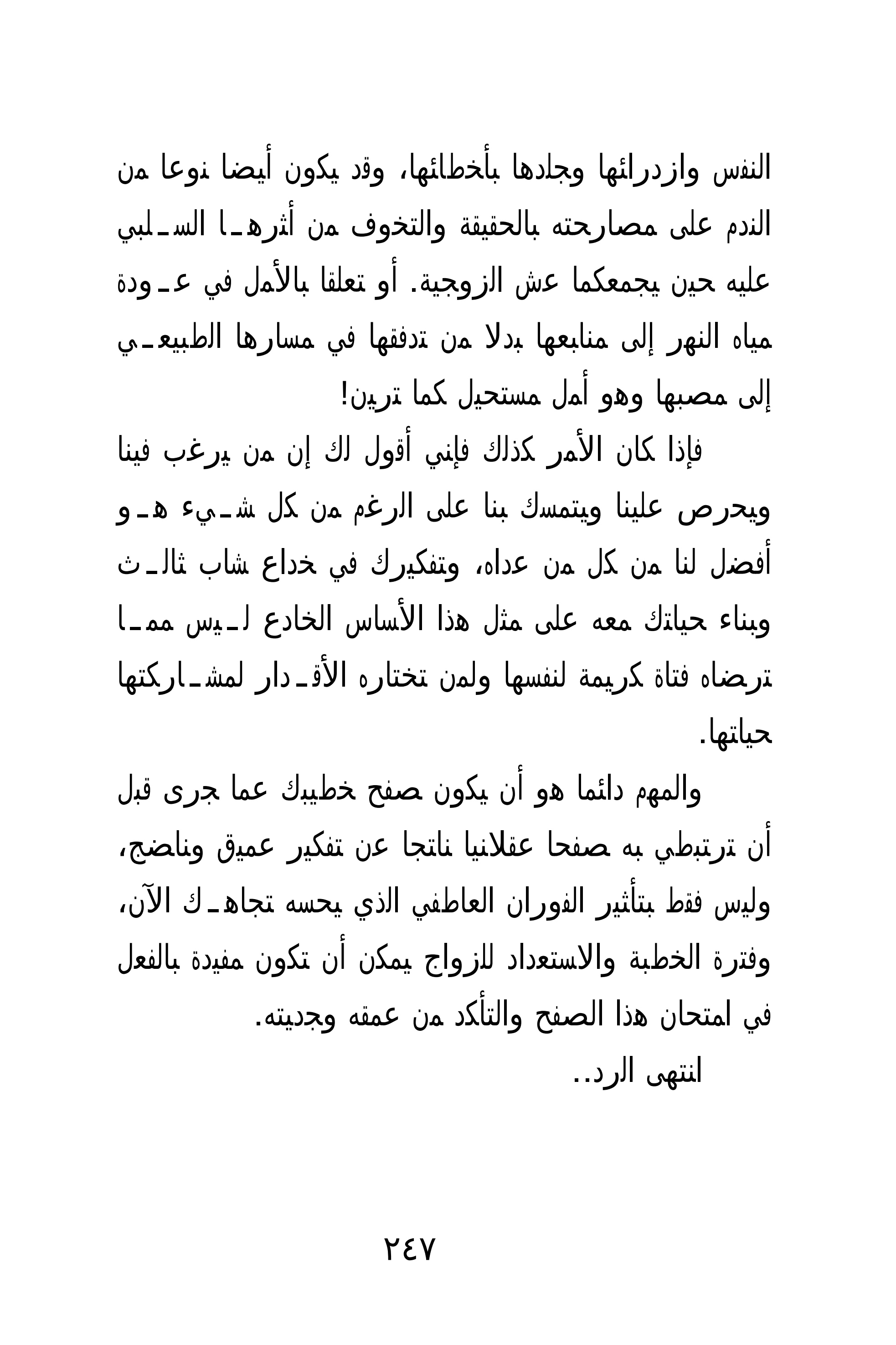
بالنهاية المفجعة نفسها، إما لأن الشاب لم يعف فتاته – على الرغم من دوره الكبير في إغوائها – من الاتهام الباطني لها بالتفريط والاستهتار بالأعراف والتقاليد ، فتخوف من الارتباط الرسمي بها بعد أن قضى منها وطره، وإما لأن الفتاة قد اكتمل نموها النفسي والعاطفي والعقلي، وفتر جموحها العاطفي فرأت في شريكها في المغامرة شخصا غير أهل الزواج العلني منها ورغبت في طي صفحته من حياتها والارتباط بمن يكون لائقا بها اجتماعيا وعائليا وماديا.

وعزوف الشاب عن استكمال مثل هذه القصة هو الأغلب والأعم في الحالات المماثلة. لكن آفة الكثيرين منا أنهم لا يتعلمون من تجارب الآخرين "ولا يصيبون بالظن" على نحو ما قاله عمرو بن العاص حين سئل عن العقل فقال إنه الإصابة بالظن ومعرفة ما سيكون بما قد كان!

وأبلغ دليل على ذلك هو تبرير فتاك الأول لتخليه عنك بأنه لن يستطيع تكوين أسرة قبل عشر سنوات، فهو عذر أقبح من ذنب، إذ يتضمن اعترافا واضحا منه بأنه لم يقصد بزواجه الوهمي منك "تأبيد العلاقة" وضمان استمرارها إلى حين إضفاء المشروعية عليها كما بررت أنت لنفسك إقدامك

عليه.. وإنما قصد به التمتع مؤقتًا بفتاة ملبية ومخدوعة بوهم هذا الزواج المزيف.. أما خشيته عليك من أن "يظلمـك" إذا تزوجك لأن حبك له أكبر من حبه لك فهـو مبـرر لا يقـل بشاعة عن سابقه.. لأنه قد ظلمك بالفعل حين استدرجك لهذا الشرك. وكان من واجبه أن يرفع عنك هذا الظلم بوفائه لـك بالعهد لا أن يضـاعف منـه بالغـدر والخـذلان وبركـان الغضب.. والحنق الذي يتفجر في أعماقك تجاهه له مبرراته المفهومة، أما ما هو ليس مفهوما حقا لهو ما يـراودك مـن أمنيات مكتومة في أن "يجئ" ذات يوم ليطلب منك صـفحك عنه. وكذلك مناشدتك لي أن أذكره برب السماء الذي يمهـل ولا يهمل ولا يبدل القول لديه، إذ ماذا يهمك من أمره وقـد انطوت صفحته الكريهة من حياتك إلى غير رجعة؟ ولمـاذا تنشغلين بعقاب السماء له ومستقبل "بناته" والانشغال نوع من الاهتمام لا يستحقه.

إن من يستحق الانشغال به حقا هو هذا الشاب الأمين الذي قدر لك مصارحتك له بحقيقة أمرك بدلا من خديعتـه، ولم يتخل عنك ورغب في إتمام الزواج منك.. وتفكيرك في التخلي عنه لمن هي أفضل منك قد يكون نوعا مـن عقـاب



النفس وازدرائها وجلدها بأخطائها، وقد يكون أيضا نوعا من الندم على مصارحته بالحقيقة والتخوف من أثرهـا السـلبي عليه حين يجمعكما عش الزوجية. أو تعلقا بالأمل في عـودة مياه النهر إلى منابعها بدلا من تدفقها في مسارها الطبيعـي إلى مصبها وهو أمل مستحيل كما ترين!

فإذا كان الأمر كذلك فإنني أقول لك إن من يرغب فينا ويحرص علينا ويتمسك بنا على الرغم من كل شـيء هـو أفضل لنا من كل من عداه، وتفكيرك في خداع شاب ثالـث وبناء حياتك معه على مثل هذا الأساس الخادع لـيس ممـا ترضاه فتاة كريمة لنفسها ولمن تختاره الأقـدار لمشـاركتها حياتها.

والمهم دائما هو أن يكون صفح خطيبك عما جرى قبل أن ترتبطي به صفحا عقلانيا ناتجا عن تفكير عميق وناضج، وليس فقط بتأثير الفوران العاطفي الذي يحسه تجاهـك الآن، وفترة الخطبة والاستعداد للزواج يمكن أن تكون مفيدة بالفعل في امتحان هذا الصفح والتأكد من عمقه وجديته.

انتهى الرد..

حكايات الزواج العرفي لن تنتهي. وسيأتي كل صباح بمزيد من الحكايات حكايـات قـد تختلـف فيهـا الأسـماء والتفاصيل والوقائع.. لكنها تتفق علـى شـيء واحـد هـو "الجنس"!

**.........................

كل الحكايات السابقة – وما في حكمها – تبدو مقبولـة وعادية لأنها دارت في إطار سلمي وودي.. المشكلة الحقيقية تأتي من حكايات الزواج العرفي الدموية، التي تحولت فـي لحظة إلى محضر في القسم، أو تحقيق أمام وكيل النيابة.

الفصل الثامن

البداية جنس..
والنهاية في القسم

ليس شرطًا في كل الأحوال أن ينتهي الزواج العرفـي بفتاة تفقد كرامتها وكبريائها وبكارتها. أو بطفل لا يعرف ما هو المصير، أو بجنين لا يرى النور بسبب عملية إجهاض. أو بزوج يهرب في اللحظة المناسبة، الحكاية قد تنتهي أحيانا بجريمة وضحايا ودماء تسيل هنا أو هناك!

البداية في الغالب معروفة.. وتكاد تكون واحدة!

نظرة .. فابتسامة .. فلقاء.. ثـم حـب وعواطـف.. وأخيرا الزواج العرفي على أي ورقة ملقاة في أقرب مكان!

والتفاصيل تكاد هي الأخرى أن تكون واحـدة. وفـي تطابق شديد!

يذهب الاثنان – هو وهي – إلى أي مكـان يحتضـن لقاءاتهما الجنسية، ويتوهم كل واحد فيهما أنه يعـيش أسـعد لحظات الحياة!

وتتكرر اللقاءات.. ويعتاد كلاهما الأمر، والاعتياد هو الخطوة الأولى نحو "الملال" وكلمة "الملال" ليسـت شـائعة الاستخدام، لكنها بالغة التعبير عن الحالة التي يصل إليها من يرتبطا بعلاقة جنسية خارج إطار الزواج الرسمي الشرعي. واعترف أن هذه الكلمة استوقفتني كثيرا عندما قرأتهـا فـي

كتاب الكاتب الكبير يحي حقي – خليها علـى ا – الـذي روى فيه سيرته الذاتية، وكان في موضع منه يصف فتـرة وجوده في كلية الحقوق، وقصة اليوم الذي اصـطحبهم فيـه أستاذ القانون الجنائي ليشهدوا قضية ويتعلموا كيف تجـري المحاكمة.. ويقول: هي جريمة قتل – ولذلك فهـي أشـهى للنفس ! – ضحيتها امرأة من بائعات الهوى.. إنني لم أنـس هذه الجريمة، أفتش اليوم في قلبي عن الأسباب فأتبينها بغير جهد..

سائق ترام له عشقية تسكن في الدور الأرضي بأحـد المنازل (علشان الدفن مش ح نروح بره)..

وجاء اليوم – وهو يجئ دائما – حين ينقلب الحب إلى ملال، والملال إلى كره وبغضاء. ووثق الرجل أنهما ماداما على قيد الحياة فلا مهرب لأحدهما من الآخر..

ولما كان عاجزا عن الانتحار، لـم يبـق لـه إلا أن يقتلها.. ولكنها كانت امرأة ضخمة الجثة، جرمة عفية، وكان هو رجلاً قصيرا نحيفا.. فماذا يفعل؟.. ذهب إلـى صـديق وقال له: أنت صديقي، قاصدك في معـروف، والأصـحاب لبعض.

- أنا تحت أمرك

- بس لازمني مساعدة في مسألة.

- أنا خدامك. إيه هي ؟ قول..

- بدي أخلص على واحدة أعرفها – مش قادر أموتها لوحدي لازم أجيب خبرها قبل ما تجيب خبري – لازمنـي زي مانت شايف مساعدة

- بسيطة! أنا تحت أمرك.. فين هي؟.. ياللا بينا

وذهب الاثنان، وشرب الثلاثة خمرا، وأمسك الصديق بذراعي المرأة وخنق السائق عشيقته، فعضته في إصبعه..

وبعد ساعات قلائل من اكتشـاف الجريمـة، بعـد أن فاحت الرائحة، ضبط البوليس القاتل وهو يسوق الترام بيـده إصبع ملفوف في قطعة من قميص القتيلة – ففرملوه قبل أن يفرمل هو ترامه.

**..............

وهكذا.. لا بد أن تأتي النهاية.

وتحدث الكراهية والنفور.. بعد الحب والهيام!

تتولد الرغبة في الخلاص.. بعد طوفان الاندفاع نحـو الارتباط!

النهاية في حالات كثيرة يسيل فيها الـدماء.. وتزهـق بسببها أرواح والبسيطة منها تعرف طريقها فقط إلى أقسـام البوليس، والنيابة والمحاكم.

أنا أتكلم الآن عن النهاية المأساة المفجعة، التي تتـرك من خلفها الحزن، والندم، والدموع، والفضيحة!

وهذه هي الحكايات.

**.........................

شاب تزوج بالفتاة التي يحبها. وكان الزواج – بالطبع – عرفيا، لأن أسرته تعارض زواجه منها.

الشاب اجتهد في الضغط على فتاته لكي تقتنع وتوافق، وبالفعل وافقت وتزوجا لمدة سنة. اكتشف خلالها الشاب أنها إنسانة غير التي عرفها، وأحبها وأن أهله كانوا علـى حـق عندما رفضوا ارتباطه بها رسميا.

الزواج العرفي أثمر طفلاً. ومع ذلـك قـرر الشـاب الانفصال. وبعد ثلاث سنوات كاملة فوجئ بما لم يكن يتوقعه أو ينتظره فوجئ بأنها ترسل لـه ثـلاث شـهادات مـيلاد منسوبين إليه.

أصاب الشاب الفزع. فقد بات أبا لثلاثة أولاد لم يسبق له رؤيتهم "ولا ذنب له فيهم"!! وقد يصـبح مسـئولا عـن الإنفاق عليهم وعن مشاكلهم وهمومهم!! وسارع برفع دعوى إنكار النسب. ومرت على القضية سنوات ومازالت منظورة أمام القضاء بعد أن استغرقت من صاحبها الكثير من الوقت والجهد والإرهاق النفسي والمادي.

**.........................

هي طالبة جامعية – وبالتحديد في كلية التجارة جامعة الأزهر ولأنها بنت ذوات فقد كانت تذهب إلى كليتها بسيارة خاصة بسائق خصوصي.

ارتبطت بعلاقة سرية مع سائقها الخصوصـي الـذي يكبرها لسنوات كثيرة بعد أن فشلت في احتـواء أنوثتهـا.. تزوجته سرا وطبيعيا أن يكون الحمل.

وداخل الأسرة العريقة كانت المحاكمة حيث أقر الأب والأشقاء على ضرورة أن يقـوم السـائق بتطليـق ابنـتهم الأرستقراطية بعد أن كشفت لهم عن زواجها السري. لكـن الأخير رفض فكان البلاغ أمام نيابة باب الشعرية([1])!!

---

[1]) جريدة الأحرار : ١٩٩٥/٩/١٨.

**...................

نادية فتاة ريفية جميلة من الزقازيق ارتبطـت بشـاب يكبرها بعامين من القاهرة وتعدد لقاءاتها به خارج المنزل.. كانت تعرف نهاية حبه لها وهو الرفض القاطع من الأسـرة لوجود خلافات بين الأسرتين.. هداها شيطان تفكيرها إلى أن تسير معه في طريق الوحل وهربت من مدينتها الريفية إلـى حيث يقيم فتاها في شقة بمفرده بالقاهرة وطلقت أهلها ثلاثا.. وعندما شعرت بالجنين يتحرك بين أحشائها طالبته بـالزواج السري خوفا من بشط أسرتها..

أنجبا طفلا، وبعدها اختلفت مع فتاها "زوجها" السـري ووصلت الخلافات إلى الشرطة فكانـت الاعترافـات علـى لسانها داخل قسم شرطة المنشية ([1])!!

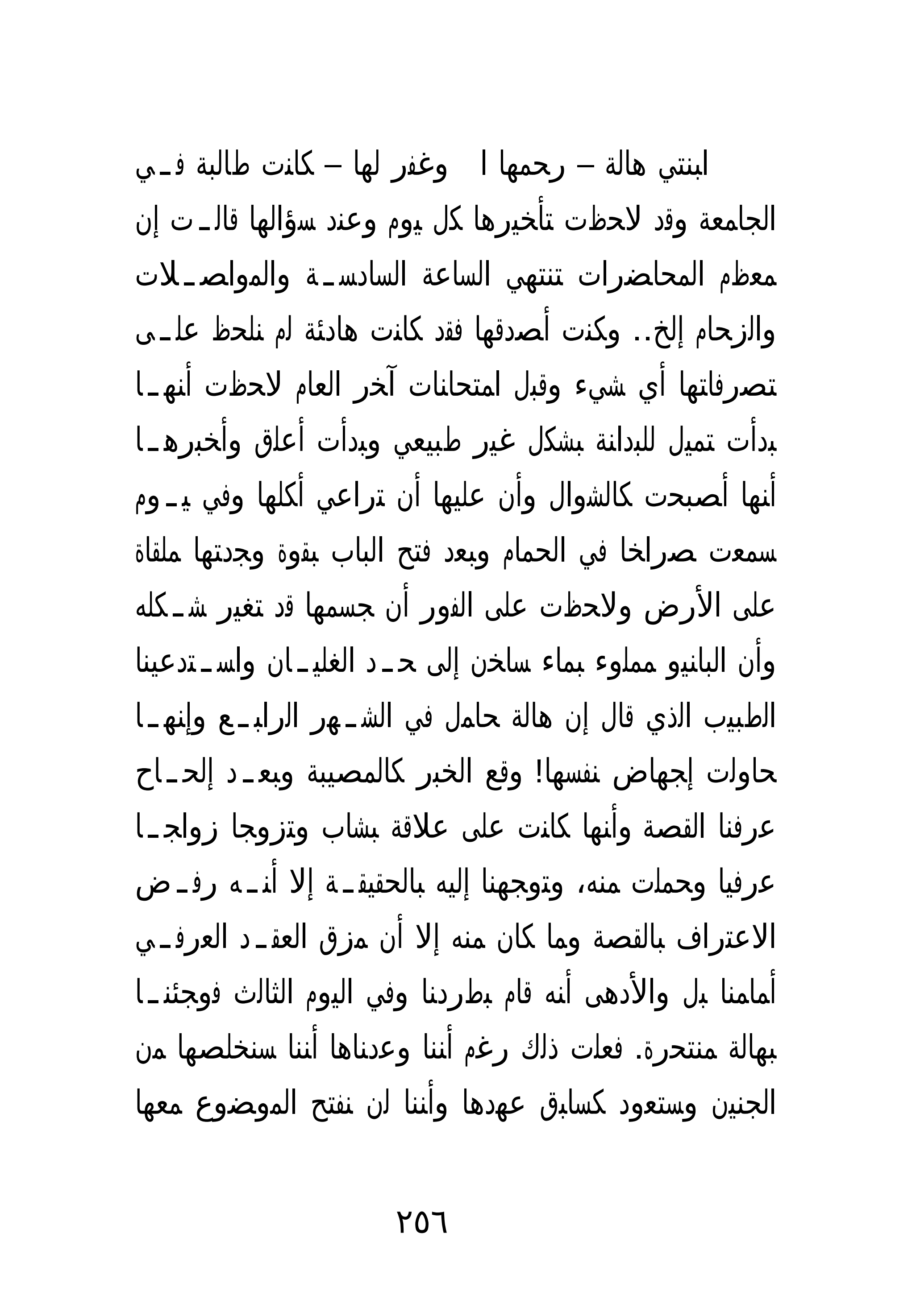
**...............................

الحكاية هذه المرة على لسان أم. لم تذكر اسمها. لكنها ذكرت اسم ابنتها.

الحكاية مؤثرة مؤلمة. نهايتها درامية وتفاصيلها برواية الأم تقول الآتي:

---

[1]) جريدة الأحرار، ١٩٩٥/٩/١٨.



ابنتي هالة – رحمها ا وغفر لها – كانت طالبة فـي الجامعة وقد لاحظت تأخيرها كل يوم وعند سؤالها قالـت إن معظم المحاضرات تنتهي الساعة السادسـة والمواصـلات والزحام إلخ.. وكنت أصدقها فقد كانت هادئة لم نلحظ علـى تصرفاتها أي شيء وقبل امتحانات آخر العام لاحظت أنهـا بدأت تميل للبدانة بشكل غير طبيعي وبدأت أعلق وأخبرهـا أنها أصبحت كالشوال وأن عليها أن تراعي أكلها وفي يـوم سمعت صراخا في الحمام وبعد فتح الباب بقوة وجدتها ملقاة على الأرض ولاحظت على الفور أن جسمها قد تغير شـكله وأن البانيو مملوء بماء ساخن إلى حـد الغليـان واسـتدعينا الطبيب الذي قال إن هالة حامل في الشـهر الرابـع وإنهـا حاولت إجهاض نفسها! وقع الخبر كالمصيبة وبعـد إلحـاح عرفنا القصة وأنها كانت على علاقة بشاب وتزوجا زواجـا عرفيا وحملت منه، وتوجهنا إليه بالحقيقـة إلا أنـه رفـض الاعتراف بالقصة وما كان منه إلا أن مزق العقـد العرفـي أمامنا بل والأدهى أنه قام بطردنا وفي اليوم الثالث فوجئنـا بهالة منتحرة. فعلت ذلك رغم أننا وعدناها أننا سنخلصها من الجنين وستعود كسابق عهدها وأننا لن نفتح الموضوع معها

وأنه عليها بعد ذلك أن تحتاط، إلا أنها لم تحتمل الصدمة في الشاب الذي توسمت فيه الإخلاص ولا الفضيحة أمام أبيهـا وأخواتها وضاعت هالة إلى الأبد بهذا العقد الملعون.

وهذه حكاية تبدو مختلفة لكنها تمضي في نفس الاتجاه لتكون مادة في صفحات الحوادث.

هي سيدة مصرية تدعى أماني – عمرهـا ٢٢ سـنة وربة منزل – حدث أن سافرت إلى إحدى الـدول العربيـة وتعرفت هناك على شاب مصـري يعمـل تـاجرا هنـاك وتوطدت العلاقة بينهما وتزوجت منه واستمر هذا الـزواج لمدة أربع سنوات وعندما أيقنت السيدة بعدم قـدرة زوجهـا على الإنجاب طلقت منه وتعرفت على عامل مصري آخـر يعمل طباخًا بالبلاد العربي وتزوجت منه بعقد عرفي وأنجبت منه طفلين. ونظرا لأن زواجها منه كان عرفيا قامت بنسـب طفليها إلى طليقها الأول وقامت باستخراج شـهادتي مـيلاد لهما لإثبات نسبهما إليه.

وعندما علم الزوج الأول بالأمر قام بإبلاغ السـلطات المصرية وقدم مجموعة من الأوراق تفيد عدم قدرته علـى

الإنجاب. واتهمت الزوجة بالتزوير. وأصـبحت فـي نظـر القانون متهمة.

**....................

ومن صفحة الحوادث كانت هذه الحكاية أيضا.

هو طالب جامعي فشل في دراسته في كلية الحقـوق. والده موظف كبير في مدينة طنطا. وحضـر إلـى مدينـة الإسماعيلية، التي شهدت جريمته – قبل عامين مـن وقـوع الجريمة - .

في الإسماعيلية تعرف على فتاة وتزوجهـا عرفيـا، ولأنه لم يتعلم ولم يحصل على شهادة ولم يلتحق بأي عمـل، فقد وجد ضالته في سرقة السيارات لكي يتمكن مـن تلبيـة مطالب زوجته.

الطالب الفاشل كان يحاول في إحدى الليالي المظلمـة فتح إحدى السيارات. ولكن يشاء حظه العـاثر أن يشـاهده محاسب في إحدى الشركات الخاصة خلال وقوفه في شـرفة منزله. فقام على الفور بإبلاغ الشرطة لأن السـيارة كانـت تخص أحد جيرانه. ويتم القبض على الطالب متلبسا ليصـبح مستقبله مجرد رقم في قضية تنظرها المحاكم!

وهذه حكاية أخرى.. بدأت بالجنس وانتهت في القسم.

تقول الحكاية: فتاة تحمل ملامح رقيقة تبهر كل من يراها.. كل شباب المنطقة التي تسكن فيها وقفوا أمام باب بيتها ليقابلوا والدها طالبين يدها، ولكنه لم يوافق على أي منهم.. ورفضهم دونما استثناء! الأب يحلم للابنة بالكثير.. زوج ثري، وحياة ناعمة، وطبقة غير الطبقة التي تنتمي إليها.

الأب يعلم جيدا قدر ما لدى ابنته من جمال، وهو يريد لمن يتزوجها أن يكون قادرا على دفع ثمن هذا الجمال ! الابنة شديدة الاعتزاز بنفسها. وتتعالى على من يحاول الاقتراب منها أو طلب يدها وتنتظر بثقة حتى يأتي العريس المناسب الذي يتوافق مع الشروط!

الابنة تفعل كل هذا تلبية لنصائح أبيها الذي دائما ما يطلب منها ألا تقع أبدا فريسة للحب والعواطف.

وبمرور الوقت، وبفعل الزمن.. بدأت إيمان تدخل مساحة الرفض والتمرد على تعليمات أبيها.

مشاعرها تتحرك، وأحاسيسها تتفتح، وكل شيء يتغير من حولها، ومع ذلك هي لا زالت لم تعرف الحب بعد.

وتلعب الأقدار لعبتها. ويهبط الحب بالباراشوت على قلب الفتاة، ولكن من تسبب في هذا الحب – بكل أسف – لم يكن مليونيرا ولا صاحب أعمال.. لم يكن ثريا ولا صاحب أطيان، الحبيب مجرد بائع بأحد محال بيع أدوات الصرف الصحي بوسط البلد.

بائع فعلاً. لكنه وحده الذي حرك كل الأشياء.. فتح قلبها المغلق، وحرك رومانسيتها المتجمدة.

كان هو عندها فارس الأحلام المنتظر. وكانت معه رواية من روايات الغرام الملتهبة.

الحبيبان قررا اتخاذ أهم خطوة في حياتهما واختارا الزواج رغم أنف الجميع، ومادام الأمر على غير رغبة البعض كان من الطبيعي أن يكون الزواج ناقصا، أو لعله فاسدا، ولهذا لم يكن هناك سوى الزواج العرفي.

الاثنان كان بإمكانهما الزواج لدى المأذون. ولكن لأن شيئًا على الدوام يبقى مفقودا في مثل هذه العلاقات، تم اللجوء دائما إلى الأبواب الخلفية. أبواب الزواج العرفي.. حجة الشاب والفتاة كانت تتمثل في أن زواجهما لدى المأذون

قد يؤدي إلى وصول الخبر إلى والد الفتاة فيسعى إلى تفريقهما!

وبالفعل تزوج الاثنان عرفيا.. وكانت علاقتهما لا تتجاوز ساعات قليلة تعيشها في شقته في منطقة عين شمس.

ثم تتدافع الأحداث بسرعة.. المدام حامل! المدام تزف الخبر إلى الأستاذ! المدام تطلب الإسراع بإتمام الزواج الرسمي! ويحدث الرفض من جانب الأستاذ. لكنه يوافق على شيء غريب وهو كتابة ورقة يعترف فيها بأبوته للطفل المنتظر.

ويأتي المولود بنتا.. وتقرر المدام الهروب من بيت أسرتها لأنها لم تعد قادرة على مواجهة أبيها. ويتنكر لها الأستاذ ويطالبها صراحة بالخروج من حياته وأعطى لها حرية التصرف في الطفلة بالطريقة التي تراها، أي طريقة مهما كانت إلا أن تربطها باسمه!

وعلى الفور تتجه المدام إلى قسم الشرطة لتقدم بلاغًا رسميا في الزوج مدعوما بورقتين موقعتين منه. الأولى ورقة الزواج العرفي. والثانية ورقة الاعتراف بالأبوة!!

وهكذا يتكشف الوجه الحقيقي للزواج. الـذي لا هـو زواج ولا يحزنون، بل مجرد رغبات جنسية جامحة تصرخ من أجل علاجها حتى لو كان علاجها تحت لافتـة "الـزواج العرفي" .

**..................

هذه الحكاية كانت حديث الناس في كل مكان قبل مـا يقرب من أربعة أعوام.

هي حكاية عن الزواج العرفي عندما يتسبب في القتل وسفك الدماء.

الضحية طالب في معهد طيران – عمره ١٩ سـنة – دفع حياته ثمنًا للزواج من زميلته في الجامعة.

والزميلة هذه ابنة لواء شرطة سابق!

طالبة الجامعة تزوجت من زميلها دون علم والـدها. ولكن كان من الغريب أن الأم تعلم بما أقدمت عليـه ابنتهـا لمدة تزيد عن العام.

الأب عندما علم بالعلاقة تفجرت المشاكل وتطـايرت الاتهامات والمحاضر في كل اتجاه ثم حدث أن التقى اللـواء

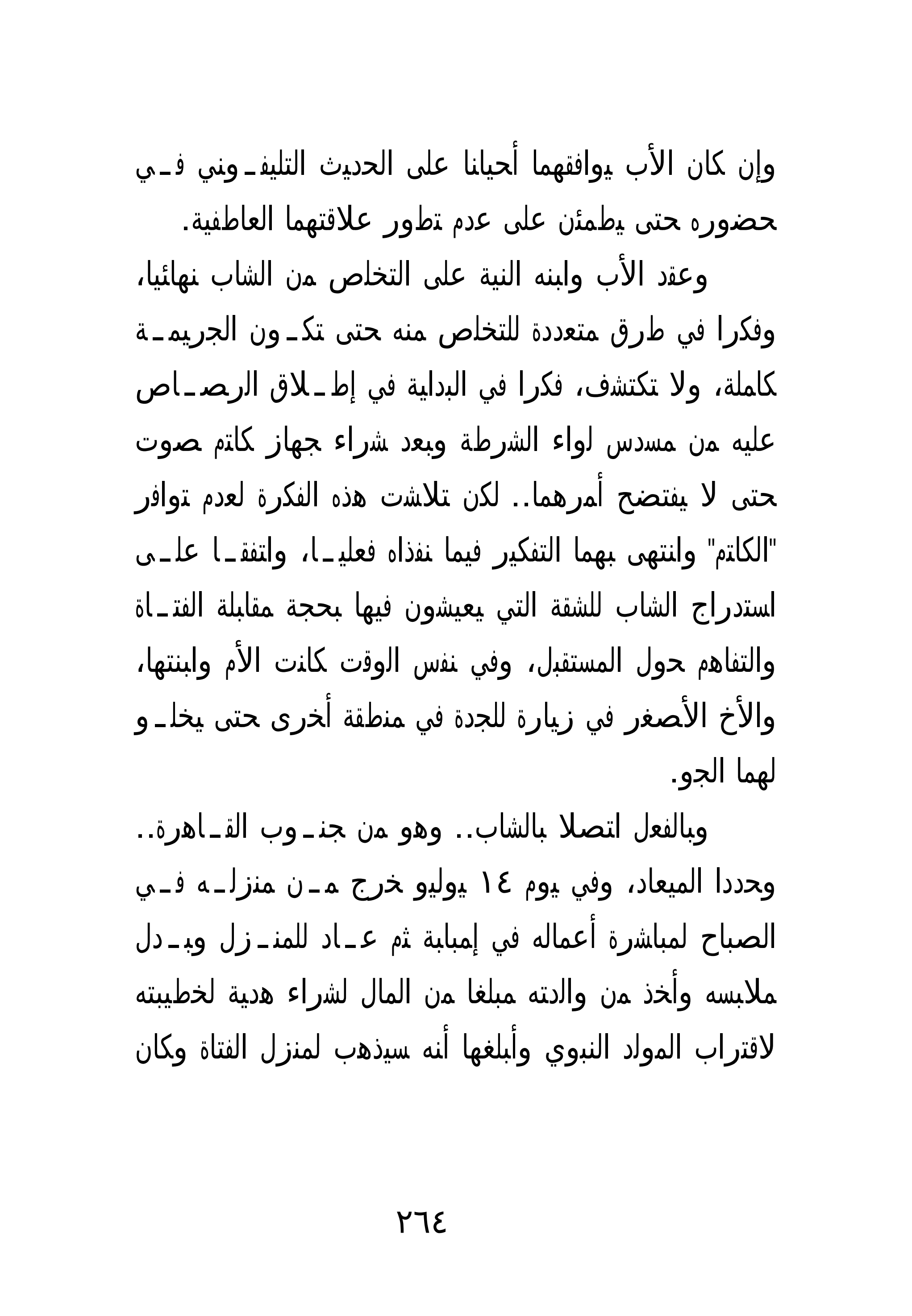
مع أهل الشاب واتفقوا على الطلاق لأن الأب لا يرضى عن الطريقة التي تم بها الزواج واعتبرها إهانة بالغة في حقه!

وهكذا جاءت الأحداث فيما بعد حتى وصلنا إلى نقطة وقوع الجريمة الكاملة وإليكم التفاصيل([1])

تم تحرير عقد طلاق بالفعل، سلمت منه نسـخة لكـلا الطرفين وتسبب هذا في تأثر الفتاة نفسـيا لشـدة ارتباطهـا عاطفيا بالشاب، وأكدت لأسرتها أنها لن تتزوج مـن أحـد غيره، وأعتقد والدها أن الشاب "سـحر" لابنتـه واسـتدعى دجالاً، وقرأ لها تعاويذ للقضاء على السحر وإبعاد ابنته عـن هذه العلاقة التي تسببت في ارتباك الأسرة بأكملها.. وعاشوا فترة زمنية عصيبة مليئة بالقلق والتوتر ونصـحه الـدجال بإنهاء الموضوع تدريجيا.. وعدم نهرها ومسـايرتها قـدر الإمكان حتى لا تأتي بنتيجة عكسية، ويزداد تشـبثها بـه.. واضطرته النصيحة لعقد حفل خطوبة لهما بمنزله في شرق القاهرة، حضره الأهل والأقربون من كلتا الأسرتين فقط، ولم يسمح للشاب بمقابلة الفتاة سواء في المنزل أو غير ذلـك..

---

[1]) روزا اليوسف ١٩٩٧/٨/٢٥ – عدد ٣٦١١.



وإن كان الأب يوافقهما أحيانا على الحديث التليفـوني فـي حضوره حتى يطمئن على عدم تطور علاقتهما العاطفية.

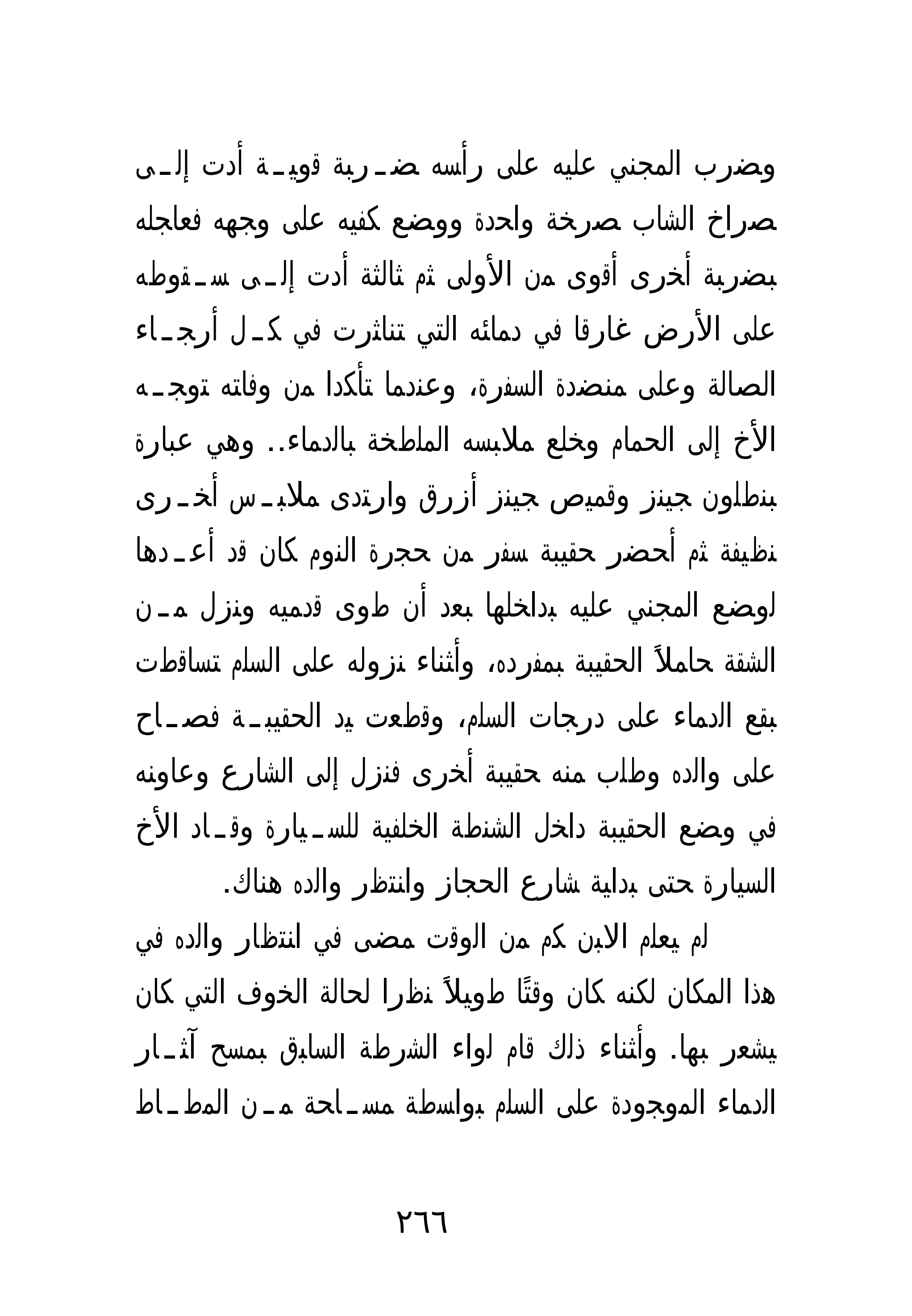
وعقد الأب وابنه النية على التخاص من الشاب نهائيا، وفكرا في طرق متعددة للتخاص منه حتى تكـون الجريمـة كاملة، ولا تكتشف، فكرا في البداية في إطـلاق الرصـاص عليه من مسدس لواء الشرطة وبعد شراء جهاز كاتم صوت حتى لا يفتضح أمرهما.. لكن تلاشت هذه الفكرة لعدم توافر "الكاتم" وانتهى بهما التفكير فيما نفذاه فعليـا، واتفقـا علـى استدراج الشاب للشقة التي يعيشون فيها بحجة مقابلة الفتـاة والتفاهم حول المستقبل، وفي نفس الوقت كانت الأم وابنتها، والأخ الأصغر في زيارة للجدة في منطقة أخرى حتى يخلـو لهما الجو.

وبالفعل اتصلا بالشاب.. وهو من جنـوب القـاهرة.. وحددا الميعاد، وفي يوم ١٤ يوليو خرج مـن منزلـه فـي الصباح لمباشرة أعماله في إمبابة ثم عـاد للمنـزل وبـدل ملابسه وأخذ من والدته مبلغا من المال لشراء هدية لخطيبته لاقتراب المولد النبوي وأبلغها أنه سيذهب لمنزل الفتاة وكان

مقررا عودته بعد ذلك إلى عمله مرة أخرى لمحاسبة العمال.. إلا أن القدر لم يسعفه لفعل ذلك.

وللإعداد للجريمة أحضر ابن اللواء شاكوشا من المطبخ لاستخدامه في قتل المجني واشترى ١٥ لتر بنزين من محطة بالقرب من العباسية ووضعها في ثلاثة جراكن على المقعد الخلفي للسيارة التي تمتلكها أخته وإطار كاوتشوك.. في اليوم السابق كان الابن قد توجه إلى طريق مصر الإسماعيلية لمعاينة منطقة بدائرة قسم السلام للتخلص من الجثة فيها وجرب الدخول في سيناريو مشابه حوالي الساعة ١٠ مساء في اليوم السابق على التنفيذ.

وصل الشاب إلى شقة لواء الشرطة في تمام الساعة ٩,٣٠ مساء يوم ١٩٩٧/٧/١٤ وجلس (حسب الاتفاق على شكل الجريمة) على مقعد بجانب منضدة السفرة بالصالة واختبأ شقيق الفتاة داخل إحدى الحجرات حتى لا يشعر به أو يشاهده المجني عليه عند خروجه منها، وتساءل الشاب عن باقي أفراد الأسرة فقال له الأب – كذبا – إن زوجته وابنته بحجرة النوم و"أخاها" خرج في نزهة مع أصدقائه. وفي أثناء الحديث خرج الأخ بخفة من الحجرة حاملاً الشاكوش



وضرب المجني عليه على رأسه ضـربة قويـة أدت إلـى صراخ الشاب صرخة واحدة ووضع كفيه على وجهه فعاجله بضربة أخرى أقوى من الأولى ثم ثالثة أدت إلـى سـقوطه على الأرض غارقا في دمائه التي تناثرت في كـل أرجـاء الصالة وعلى منضدة السفرة، وعندما تأكدا من وفاته توجـه الأخ إلى الحمام وخلع ملابسه الملطخة بالدماء.. وهي عبارة بنطلون جينز وقميص جينز أزرق وارتدى ملابـس أخـرى نظيفة ثم أحضر حقيبة سفر من حجرة النوم كان قد أعـدها لوضع المجني عليه بداخلها بعد أن طوى قدميه ونزل مـن الشقة حاملاً الحقيبة بمفرده، وأثناء نزوله على السلم تساقطت بقع الدماء على درجات السلم، وقطعت يد الحقيبـة فصـاح على والده وطلب منه حقيبة أخرى فنزل إلى الشارع وعاونه في وضع الحقيبة داخل الشنطة الخلفية للسـيارة وقـاد الأخ السيارة حتى بداية شارع الحجاز وانتظر والده هناك.

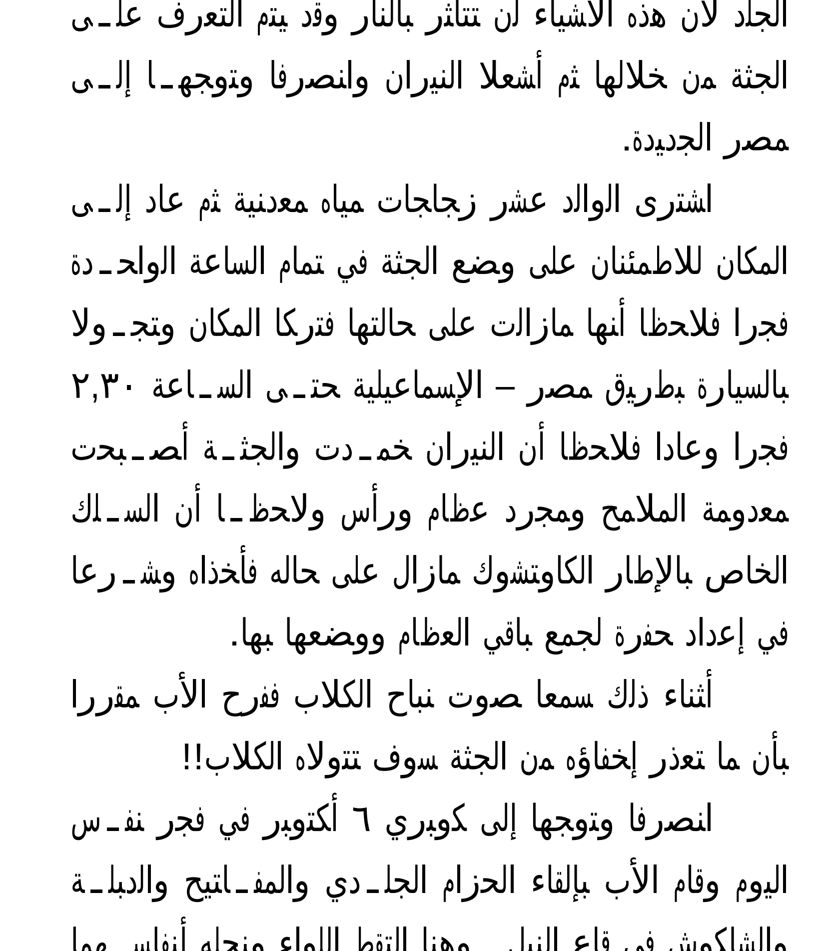
لم يعلم الابن كم من الوقت مضى في انتظار والده في هذا المكان لكنه كان وقتًا طويلاً نظرا لحالة الخوف التي كان يشعر بها. وأثناء ذلك قام لواء الشرطة السابق بمسح آثـار الدماء الموجودة على السلم بواسطة مسـاحة مـن المطـاط

وامتدت هذه البقع الدموية من بداية الطابق الثالث حيث شقة اللواء وحتى مدخل العقار، وقام بغسل أرضية الشقة بمـواد مطهرة نفاذة الرائحة ورش معطرا بها.

بعدها حضر الأب مستقلا سيارة أجرة ومعه حقيبة بها الشاكوش والملابس الملوثة بالدماء الخاصة بالشاب ومفرش منضدة السفرة الملطخ بالدماء وانطلقا إلـى طريـق مصـر الإسماعيلية.

كانت الساعة ١١ مساء تقريبا وسأل الابن والده عـن سبب التأخير فأجاب بأنه كان ينظف الصالة من الدم وجمـع أدوات الجريمة وإزالة آثار الدماء.

ودخلا بالسيارة منطقة جمعية أحمد عرابـي بالسـلام وقطعا مسافة ٢ كيلومتر تقريبا ثم تركا السيارة ودخلا إلـى الصحراء يسارا لمسافة قطعت في خمـس دقـائق تقريبـا ومعهما الجثة والأدوات ثم غمرا الجثة بـالبنزين ووضـعا إطار الكاوتشوك عليها والقيا الملابس الملوثة بالدماء وقبـل إشعال النيران قام لواء الشـرطة السـابق بتفتـيش القتيـل واستولى على دبلته الذهبية والمكتـوب عليهـا اسـم ابنتـه وميدالية مفاتيحه من الفضة عليها حرف من اسمه والحـزام



الجلد لأن هذه الأشياء لن تتأثر بالنار وقد يتم التعرف على الجثة من خلالها ثم أشعلا النيران وانصرفا وتوجها إلى مصر الجديدة.

اشترى الوالد عشر زجاجات مياه معدنية ثم عاد إلى المكان للاطمئنان على وضع الجثة في تمام الساعة الواحدة فجرا فلاحظا أنها مازالت على حالتها فتركا المكان وتجولا بالسيارة بطريق مصر – الإسماعيلية حتى الساعة ٢,٣٠ فجرا وعادا فلاحظا أن النيران خمدت والجثة أصبحت معدومة الملامح ومجرد عظام ورأس ولاحظا أن السلك الخاص بالإطار الكاوتشوك مازال على حاله فأخذاه وشرعا في إعداد حفرة لجمع باقي العظام ووضعها بها.

أثناء ذلك سمعا صوت نباح الكلاب ففرح الأب مقررا بأن ما تعذر إخفاؤه من الجثة سوف تتولاه الكلاب!!

انصرفا وتوجها إلى كوبري ٦ أكتوبر في فجر نفس اليوم وقام الأب بإلقاء الحزام الجلدي والمفاتيح والدبلة والشاكوش في قاع النيل.. وهنا التقط اللواء ونجله أنفاسهما وأسدلا الستار على تلك القصة التي سببت لهما كما من الإزعاج والقلق والتوتر طيلة الفترة السابقة.

هذا ما جاء على لسان الابن في اعترافاته وأكـد أنـه غير نادم على فعله لأن المجني عليه أهان والـده وأسـرته ووضع رءوسهم في الطين وأن والده كان يخشى عليهم مـن هذا الشبح "الشاب" الذي أثار الذعر في الأسرة، وكان والـده متأكدا أنه سيكون مصدر إزعاج وقلق مستمرين للأسرة بعد وفاته وقرر لابنه بأن لن يستطيع مواجهته بمفرده لذا اتفـق معه على التخلص منه.

بعد اختفاء الابن انزعجت الأم وتقدمت بـبلاغ لقسـم شرطة السيدة زينب بغياب ابنها عن المسـكن منـذ تـاريخ ١٩٩٧/٧/١٥ وبلاغ آخر تتهم فيه والد البنـت بأنـه وراء اختفاء ابنها، وذلك لوجود خلاف سابق بينهما بسـبب زواج ابنها من كريمته على غير رغبته زواجا عرفيا وباسـتدعاء اللواء أنكر صلته بالواقعة وتم صرفه من سراي النيابة.

منذ اختفاء الابن في ١٩٩٧/٧/١٥ بـدأت التحريـات وجمع الأدلة والملابسات لكن الجريمة كشفت في ٩٧/٨/٢٠ واعترف الابن (٢٣ سنة) بالجريمة في محضـر الشـرطة وكذلك تحقيقات النيابة.

**....................

بالقطع ليس هناك أسوأ من هذا. لقد نشر الزواج العرفي تأثيره في كل اتجاه!

وها هو شاب يموت مقتولا وبأبشع طريقة!

وها هي أم تفقد ابنها وهو في مقتبل العمر. ويكون فقدانه بإزهاق روحه بالشاكوش والحرق بالنار!

وها هو شاب آخر يضيع مستقبله بسبب جريمة وجد نفسه شريكا فيها ومنفذا لها.

وها هو رجل محترم عاش كل عمره يلقى التقدير والاحترام من الناس ثم يجد نفسه في النهاية متهما بعد أن كان موجها للاتهام!

وها هي أسرة بأكملها ستعيش والحزن والعار يطاردها طول العمر بسبب ما جرى وما كان من الأب والابن.. وبطلة حكاية الزواج!

من المؤكد أن أي حكاية أخرى مهما كانت تفاصيلها لن ترقى أبدا إلى مستوى حكاية ابنة اللواء في قسوتها وصعوبة ما حدث فيها.

ومع هذا.. هناك حكايات غريبة ومثيرة فـي علاقـة الزواج العرفي بأقسام البوليس، وسـراي النيابـة وقاعـات المحاكم.

قصة عابرة بتفاصيل قليلة تقول إن فتاة وهي طالبـة بكلية الفنون الجميلة تزوجت من مهندس عرفيا وبعد شـهور ظهرت عليها علامات الحمل، وعلى الفور قام المهندس بأخذ ورقة الزواج العرفي مدعيا توثيقها في الشهر العقاري..

واختفى! ثم أنكر معرفته بالطالبة وراح يـدعي أنهـا سيئة السمعة وأنه اضطر لمسايرتها بسبب تهديدها بالانتحار وفضحه أمام الناس.

وعندما علم شقيق الطالبة بالحكايـة حـاول إصـلاح الأوضاع وقابل "الباشمهندس" المحترم. لكنه سـبه وشـتمه فلجأت الزوجة للنيابة لإثبات الزواج ونسب الطفل من خلال شهادة الجيران ومجموعة صور تجمعها مع الرجـل الـذي عاشرها إلى جانب شهادة من قرية سياحية بالغردقـة تفيـد إقامتهما معا في غرفة واحدة لعدة أيام مـن خـلال ورقـة الزواج العرفي.

انتهت الحكاية!

وهذه حكاية أخرى سريعة!

فتاة – وهي طالبة جامعية – تعرفت على طالب بكلية أخرى في نفس الجامعة. واتفقا – كما هـو معتـاد – علـى الزواج العرفي لحين الإعداد للزواج رسميا.

الفتاة هربت من منزل عائلتها وفي اليوم الـذي كـان الأب يتقدم فيه ببلاغ عن اختفاء ابنته. صـنعت الصـدفة – التي لا تتكرر كثيرا بهذه الصورة - مشهدا دراميـا حـين فوجئ الأب بدخول ابنته إلى القسم ذاته لتقـدم بلاغًـا فـي زوجها العرفي.

هل تعرفون ما هي نوعية البلاغ؟! لقد كان البلاغ ضد الطالب زوجها الذي كان يدفعها دفعا إلى السهرات الحمـراء وممارسة الجنس مع أصدقائه. لكنها كانت ترفض، وعنـدما ازداد تبجحه وإصراره قررت الهروب واللجوء إلى الشرطة.

قلة أدب بكل المقاييس.. والكل متهمون!

وهذه حكاية أخرى..

دكتور تزوج من آنسة زواجا شرعيا.. وبعد فترة من الحياة الجميلة فوجئ الزوج.. وهو طبيب – بشخص يلتقـي به ويقول له إنه زوج "مراته"! وقبل أن ينفعل الطبيب وقبـل

أن يتملكه الغضب أخرج الزوج المزعوم كمية مـن الأوراق والمستندات وقـدمها للطبيـب. وكـان مـن بـين الأوراق والمستندات عقد زواج عرفي، وشريط كاسيت يحوي وقـائع الزواج تفصيليا، وعدد غير قليل من الصور "المعبرة" عـن عمق وحميمية العلاقة بين المدام وزوجها العرفي!

باقي تفاصيل الحكاية تقول: إن المـدام وعـدت مـن تزوجته عرفيا بترك زوجها الطبيب لأنها تحبه – أي تحـب زوجها العرفي – ولكنه عندما اكتشف أنها أنجبت طفلاً مـن زوجها الطبيب تصور أن هذا الطفل ابنه، فقرر على الفـور تفجير القضية بهذه الصورة المثيرة. وأصبح الموضوع كلـه في يد جهات التحقيق للفصل فيه!

الحكاية أكبر وأصعب من أي تعليق – لكنهـا – مـع كثير غيرها – تكشف مدى "العك" الذي وصلت إليه العلاقات الجنسية بسبب الزواج العرفي.

**..................

الحكاية هذه المرة عن جريمة أخرى تقع بسبب الزواج العرفي.

وإذا كانت جريمة طالب معهد الطيران تمثل وقوع ضحية في جانب الجنس الخشن. فإن الضحية هذه المرة في جانب الجنس اللطيف.

والضحية في حقيقة الأمر ليست واحدا فقط بل ضحيتين. لأن الحكاية ليست واحدة بل حكايتين!

الحكاية الأولى بطلتها فتاة سكندرية لم تكمل بعد العشرين من عمرها. الكل من شباب الحي الذي تسكن فيه يعترفون بأنها الأكثر جمالاً بين من هن في مثل سنها على الإطلاق. الكل يسعى لكسب ودها والتقرب منها. لكن واحدا فقط كان الأكثر إصرارا عليها. في كل مكان يلاحقها. وفي كل خطوة يتتبعها. وفي النهاية حدث اللقاء. وبدأ التقارب، وتولدت العواطف. ثم كان قرار الزواج دون علم أحد لأن الشاب فقير لا يملك شيئًا والفتاة طالبة لازالت تدرس.

ورغم معارضة الفتاة للفكرة في البداية إلا أنهما وصلا إلى مرحلة تحرير ورقة أقنعا نفسيهما بأنها تكفي لكي يكونا زوجين أمام ا .

ومضت الشهور هادئة مستقرة حتى أخذت أم الفتاة تلاحظ – كامرأة – بعض التغيرات التي طرأت على البنت.

آلام في البطن.. وصداع لا ينقطع.. واختلاف واضح في مقاييس جسمها، وعلى الفور قررت الضغط عليها لمعرفة السر. وبعد شد وجذب ومحاولات تعترف البنت لأمها بأنها متزوجة عرفيا من شاب.

وأسقط في يد الأم.. وباتت في حيرة لا تدري ماذا تفعل أمام هذه الفضيحة؟ ثم كان قرارها الفاصل بالتخلص من أصل الفضيحة. ونزعت الأم كل مشاعرها واستعدت للحظة التنفيذ.. وقامت بصعق ابنتها بالكهرباء لتموت على الفور ضحية لورقة تافهة.. ورغبة عابرة!

الحكاية الثانية بطلتها تلميذة.. نعم تلميذة في المرحلة الإعدادية كل عمرها ١٥ سنة لا غير.

التلميذة ارتبطت عاطفيا بابن الجيران. ولأن الخبرة لا تتوافر أبدا في مثل هذا السن كان قرار الاثنين الطائش هو الهروب بعيدا عن المنغصات وعن كل العوائق والبشر الذين يعترضون طريق الرغبة التي تأتي محمولة على أجنحة طائر الحب المحلق دوما في السماء.

هربت التلميذة وابن الجيران وتزوجا عرفيا.

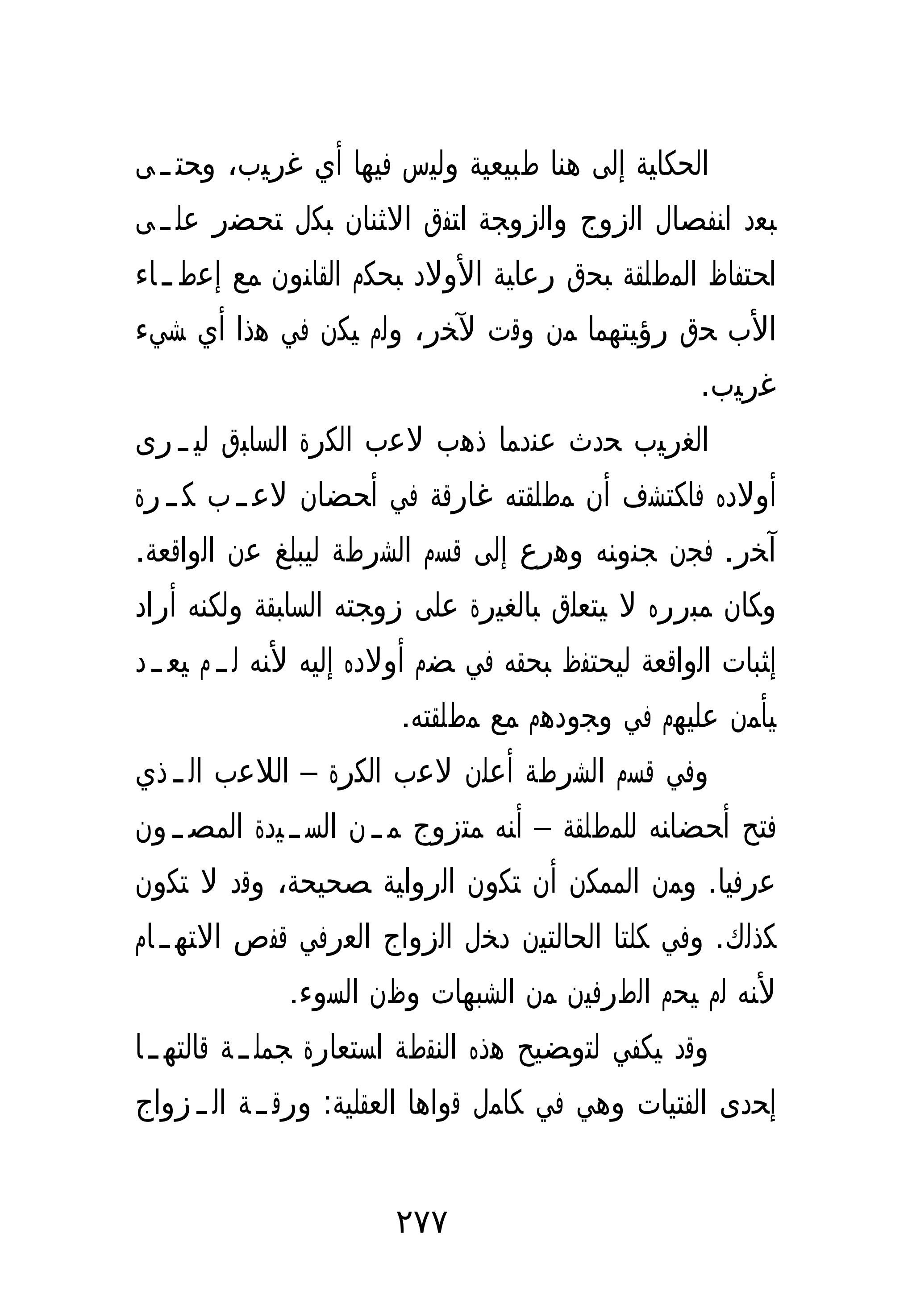
وراحت أسرتا الاثنين تبحثان عنهما، وكانـت أسـرة التلميذة الأسرع في التقاط الخيط الذي كشف كل الأسـرار. لقد حكت لهم إحدى صديقات البنت أنها هربـت مـع ابـن الجيران وتزوجا سرا بعيدا عن مشورة الكبار.

وقبل أن تبدأ رحلة البحث عن الفتاة. جاءت الصـدفة لتصنع لقاء بينها وبين أخيها في أحد الشـوارع. وتعتـرف الفتاة بحكاية الزواج ويقرر الأب حبسها في البيت لحين وأد الفضيحة بأي شكل وأي طريقة. وقبل أن يصل أحـد إلـى الشكل والطريقة كانت صرخات مدوية تـرن فـي أرجـاء المكان. وعندما يهرع الأب والأم لاستطلاع الأمر يهزهمـا المشهد البشع. لقد أشعلت الفتاة النار في نفسها. ونجحت في محاولة الانتحار من أول مرة، والبقاء .

**...............

الحكاية وأبطالها. وأيضا تفاصيلها شـديدة الاخـتلاف هذه المرة.

والحكاية أن لاعب كرة قدم معـروف اعتـزل منـذ سنوات أقدم على طلاق زوجته وأم أولاده بعد أن فشلا فـي حل حياتهما معا.



الحكاية إلى هنا طبيعية وليس فيها أي غريب، وحتـى بعد انفصال الزوج والزوجة اتفق الاثنان بكل تحضر علـى احتفاظ المطلقة بحق رعاية الأولاد بحكم القانون مع إعطـاء الأب حق رؤيتهما من وقت لآخر، ولم يكن في هذا أي شيء غريب.

الغريب حدث عندما ذهب لاعب الكرة السابق ليـرى أولاده فاكتشف أن مطلقته غارقة في أحضان لاعـب كـرة آخر. فجن جنونه وهرع إلى قسم الشرطة ليبلغ عن الواقعة. وكان مبرره لا يتعلق بالغيرة على زوجته السابقة ولكنه أراد إثبات الواقعة ليحتفظ بحقه في ضم أولاده إليه لأنه لـم يعـد يأمن عليهم في وجودهم مع مطلقته.

وفي قسم الشرطة أعلن لاعب الكرة – اللاعب الـذي فتح أحضانه للمطلقة – أنه متزوج مـن السـيدة المصـون عرفيا. ومن الممكن أن تكون الرواية صحيحة، وقد لا تكون كذلك. وفي كلتا الحالتين دخل الزواج العرفي قفص الاتهـام لأنه لم يحم الطرفين من الشبهات وظن السوء.

وقد يكفي لتوضيح هذه النقطة استعارة جملـة قالتهـا إحدى الفتيات وهي في كامل قواها العقلية: ورقـة الـزواج

العرفي مجرد تأمين لي من الفضيحة إذا داهمـت المباحـث المكان الذي ألتقي فيه مع حبيبي!!

منتهى الاستهتار.. ومنتهى الإسفاف!

واحدة تستخدمه لتأمين نفسها من الجانب القانوني!

وواحدة تأخذه ستارا لممارسة الجنس دون الإحسـاس بوخز الضمير!

وواحدة تستند إليه في تبرير خلع هدومها من أجل من أحبته!

وواحدة تعتبره سترا شرعيا في مواجهة تعاليم الـدين ومنظومة العادات والتقاليد!

رغم كل ذلك يبقى الأصل أن هذه وهذه وتلك انـدفعن في هذا الطريق بحافز واحد وسبب وحيـد هـو.. الرغبـة الجنسية!

الفصل التاسع

مشقة الحل..
وضرورة العلاج

من السهل أن تجتهد في البحث عن حل لأي مشكلة في الحياة، ومن السهل جدا أن تجد الحل المناسب.

الحل جاهز وموجود مادامت المشـكلة تمـس موقفـا محددا أو شخصا بذاته.

ولكن من الصعب – وأحيانا من المستحيل – أن تصل إلى علاج لمشكلة أو لظاهرة اجتماعية كبيرة يعيش تفاصيلها الآلاف .. ولا أريد أن أقول الملايين!

والحقيقة أن ظاهرة الزواج العرفي تبدو بالغة الانتشار خاصة في ظل السرية والكتمان اللذان يغلف بهما أصـحاب التجربة ما أقدموا عليه. فلا أحد – أبدا – يعترف بأنه تزوج زواجا عرفيا، ولا يوجد فـي الـدنيا مـن امتلكـت جـرأة الاعتراف بأنها تركت الزواج على يـد المـأذون وذهبـت للتزوج على ورقة رخيصة تجعل هذا الرباط الجميـل مثـل السرقة من وراء ظهر الناس وفي أي مكـان يتـوافر فيـه الظلام!!

إن كل ما أتيح من قصص وحكايات ومآسي وتجارب الزواج العرفي انكشف بحكم رواية أصحابه عن التجربة لهذا السبب أو ذاك، وبحكم اختلاف طرفي الزيجة في جانـب أو

آخر وبات من الضروري وقتها تدخل طرف ثالـث ليعـالج خللا، أو يعيد حقا، أو يعاقب طرفا!

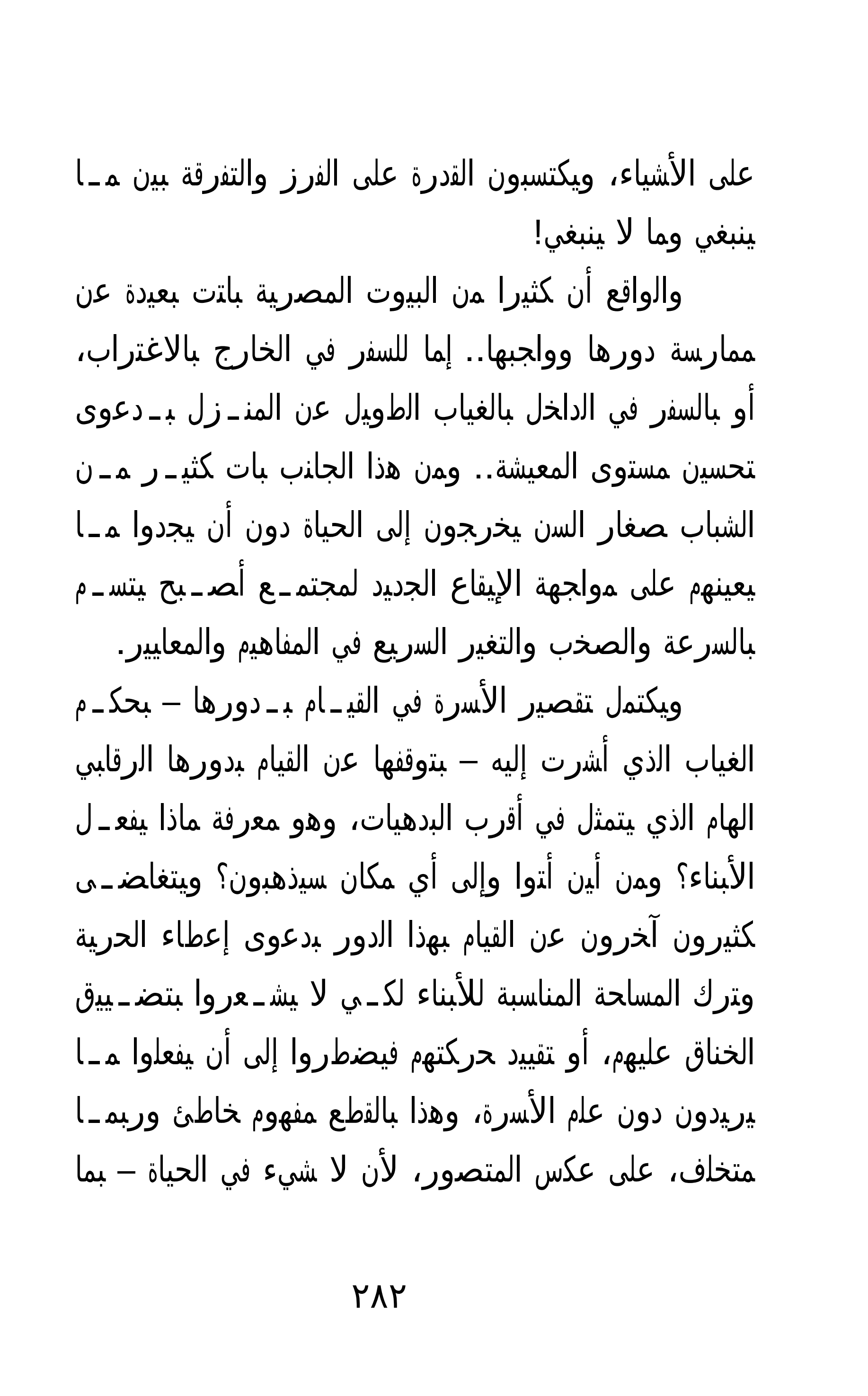
وبهذا المفهوم تكون كل الحالات التي يتم اكتشـافها – بما فيها الحالات التي يحكي أصحابها عنها كنوع من العظة والنصح للآخرين – مجرد قطرة في بحر، أو مثل قمة جبل الجليد التي تظهر على سطح الماء كجزء بسيط بينما الجسـم الحقيقي بكل ضخامته يستقر تحـت المـاء دون أن تظهـر خطورته إلا عند الاصطدام به!

ومن هذا المنطلق تبدو صعوبة الحل!.

الحل صعب؟!.. نعم صعب. لكنه موجود ويحتاج فقط إلى تحمل كل الأطراف لتبعاتهم ومسئولياتهم!

لن أتناول في البداية دور التوعية في وسائل الإعلام، أو التوجيه من المؤسسات الدينية لقناعتي بأن الـدور الأول والأهم يقع دائما على البيـت والأسـرة.. أي الأب والأم.. اللذين يمثلان المعلم الأول.. والموجه الأول.. والمرشد الأول للصواب والخطأ..

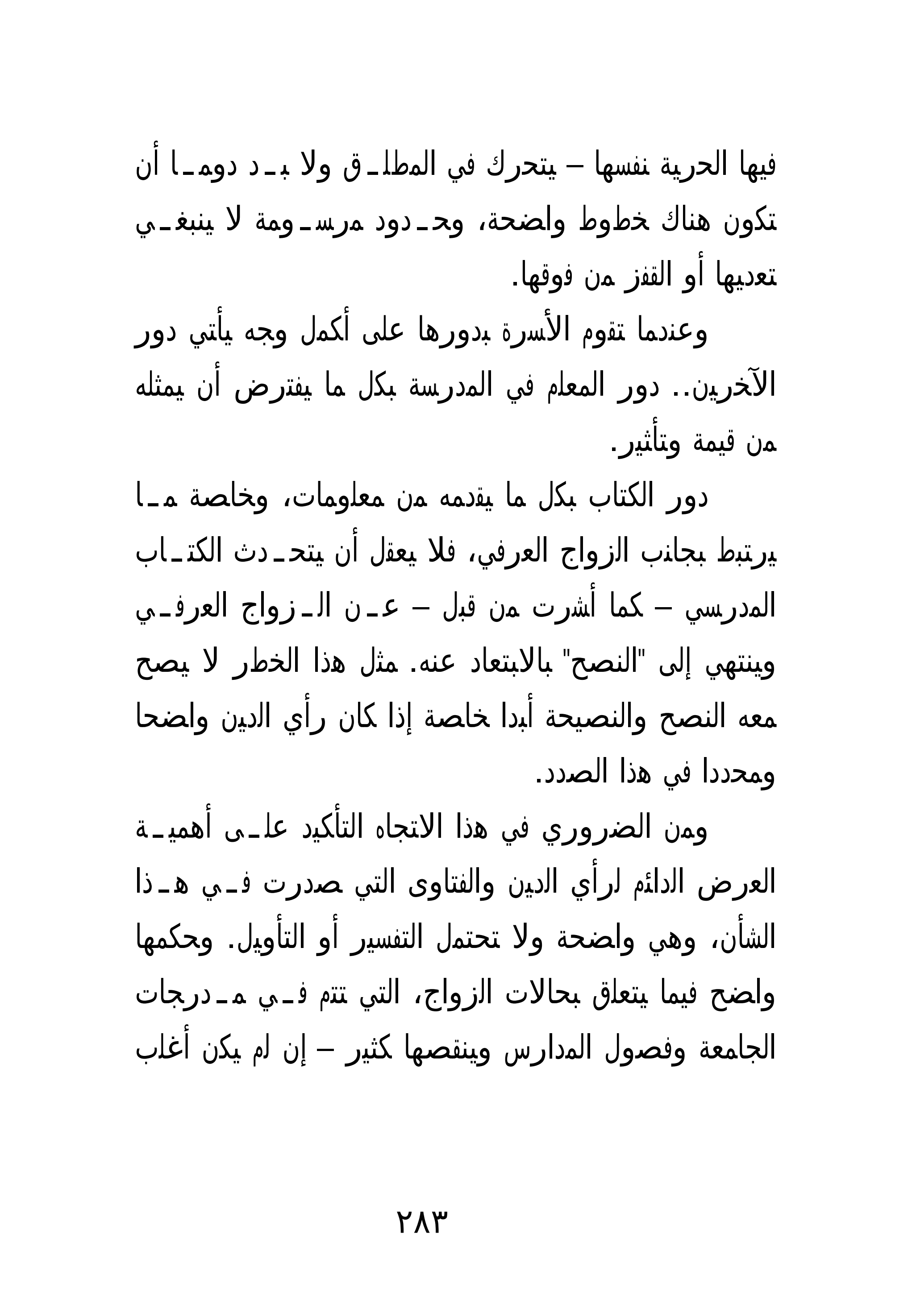
في البيت – أو هكذا يفترض – يتعلم الأبناء الـدرس الأول في القيم والمبادئ والأخلاق. يتعلمون الحكـم السـليم



على الأشياء، ويكتسبون القدرة على الفرز والتفرقة بين ما ينبغي وما لا ينبغي!

والواقع أن كثيرا من البيوت المصرية باتت بعيدة عن ممارسة دورها وواجبها.. إما للسفر في الخارج بالاغتراب، أو بالسفر في الداخل بالغياب الطويل عن المنزل بدعوى تحسين مستوى المعيشة.. ومن هذا الجانب بات كثير من الشباب صغار السن يخرجون إلى الحياة دون أن يجدوا ما يعينهم على مواجهة الإيقاع الجديد لمجتمع أصبح يتسم بالسرعة والصخب والتغير السريع في المفاهيم والمعايير.

ويكتمل تقصير الأسرة في القيام بدورها – بحكم الغياب الذي أشرت إليه – بتوقفها عن القيام بدورها الرقابي الهام الذي يتمثل في أقرب البدهيات، وهو معرفة ماذا يفعل الأبناء؟ ومن أين أتوا وإلى أي مكان سيذهبون؟ ويتغاضى كثيرون آخرون عن القيام بهذا الدور بدعوى إعطاء الحرية وترك المساحة المناسبة للأبناء لكي لا يشعروا بتضييق الخناق عليهم، أو تقييد حركتهم فيضطروا إلى أن يفعلوا ما يريدون دون علم الأسرة، وهذا بالقطع مفهوم خاطئ وربما متخلف، على عكس المتصور، لأن لا شيء في الحياة – بما

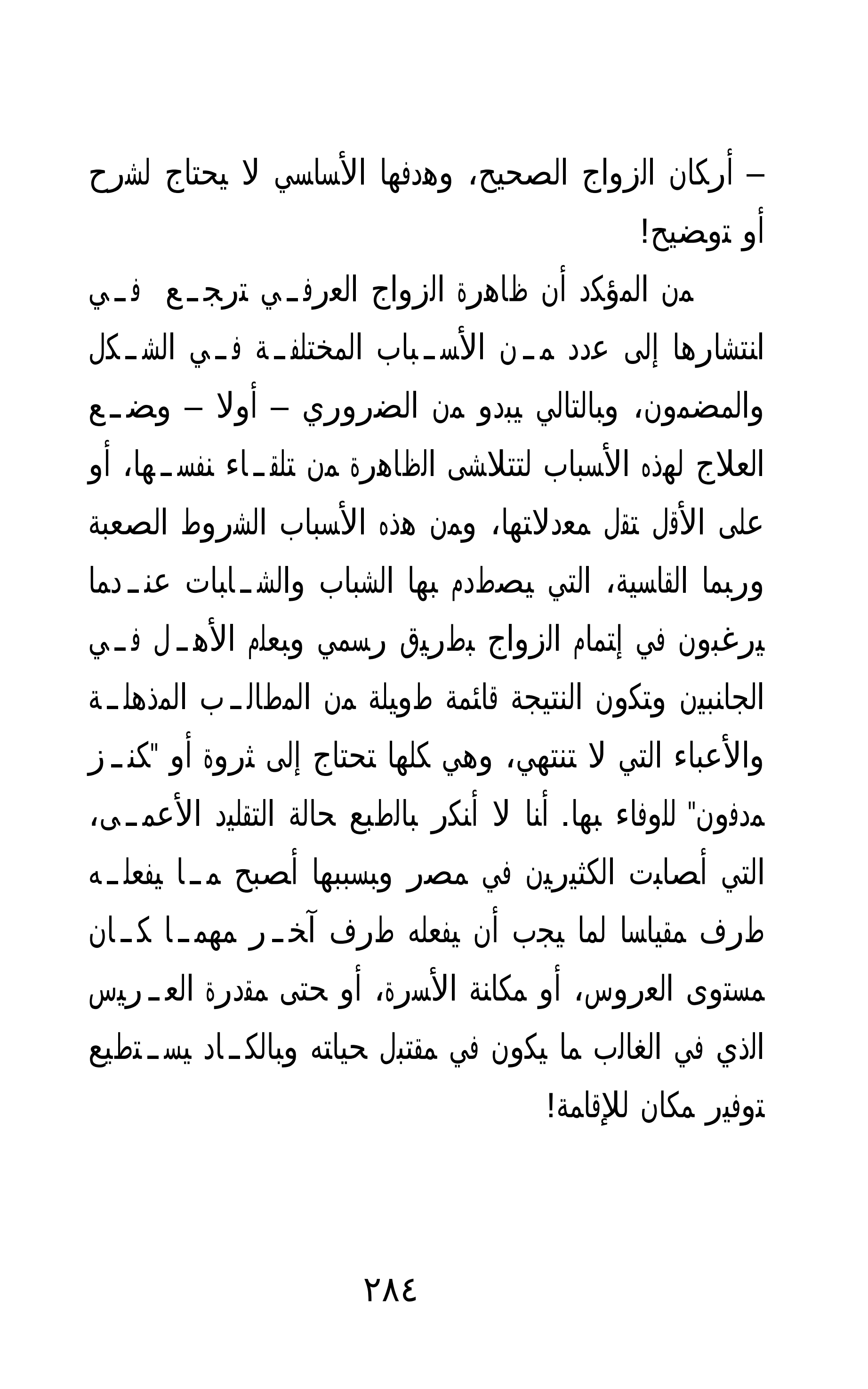


فيها الحرية نفسها – يتحرك في المطلق ولا بد دوما أن تكون هناك خطوط واضحة، وحدود مرسومة لا ينبغي تعديها أو القفز من فوقها.

وعندما تقوم الأسرة بدورها على أكمل وجه يأتي دور الآخرين.. دور المعلم في المدرسة بكل ما يفترض أن يمثله من قيمة وتأثير.

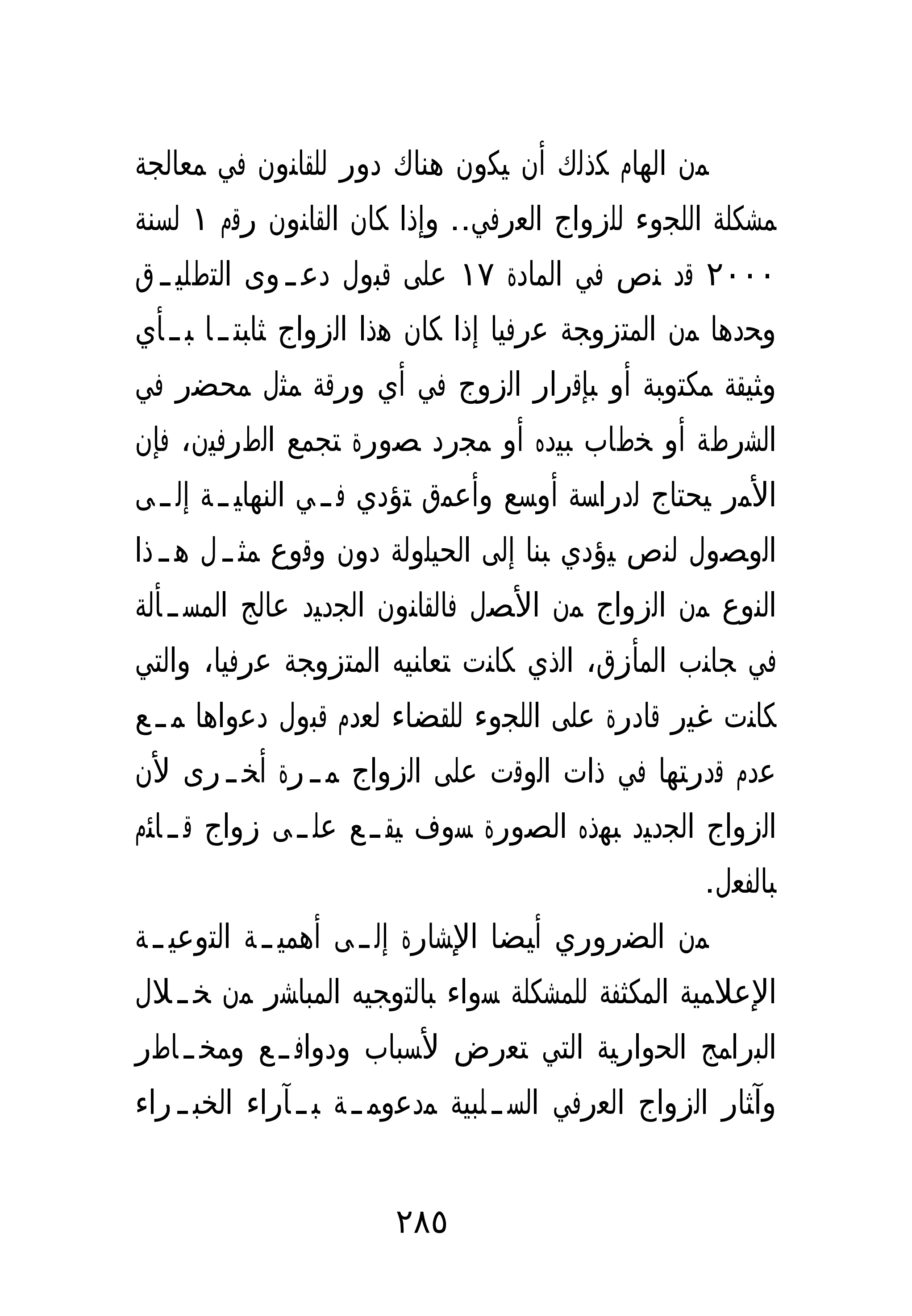
دور الكتاب بكل ما يقدمه من معلومات، وخاصة ما يرتبط بجانب الزواج العرفي، فلا يعقل أن يتحدث الكتاب المدرسي – كما أشرت من قبل – عن الزواج العرفي وينتهي إلى "النصح" بالابتعاد عنه. مثل هذا الخطر لا يصح معه النصح والنصيحة أبدا خاصة إذا كان رأي الدين واضحا ومحددا في هذا الصدد.

ومن الضروري في هذا الاتجاه التأكيد على أهمية العرض الدائم لرأي الدين والفتاوى التي صدرت في هذا الشأن، وهي واضحة ولا تحتمل التفسير أو التأويل. وحكمها واضح فيما يتعلق بحالات الزواج، التي تتم في مدرجات الجامعة وفصول المدارس وينقصها كثير – إن لم يكن أغلب



– أركان الزواج الصحيح، وهدفها الأساسي لا يحتاج لشرح أو توضيح!

من المؤكد أن ظاهرة الزواج العرفـي ترجـع فـي انتشارها إلى عدد مـن الأسـباب المختلفـة فـي الشـكل والمضمون، وبالتالي يبدو من الضروري – أولا – وضـع العلاج لهذه الأسباب لتتلاشى الظاهرة من تلقـاء نفسـها، أو على الأقل تقل معدلاتها، ومن هذه الأسباب الشروط الصعبة وربما القاسية، التي يصطدم بها الشباب والشـابات عنـدما يرغبون في إتمام الزواج بطريق رسمي وبعلم الأهـل فـي الجانبين وتكون النتيجة قائمة طويلة من المطالـب المذهلـة والأعباء التي لا تنتهي، وهي كلها تحتاج إلى ثروة أو "كنـز مدفون" للوفاء بها. أنا لا أنكر بالطبع حالة التقليد الأعمـى، التي أصابت الكثيرين في مصر وبسببها أصبح مـا يفعلـه طرف مقياسا لما يجب أن يفعله طرف آخـر مهمـا كـان مستوى العروس، أو مكانة الأسرة، أو حتى مقدرة العـريس الذي في الغالب ما يكون في مقتبل حياته وبالكـاد يسـتطيع توفير مكان للإقامة!



من الهام كذلك أن يكون هناك دور للقانون في معالجة مشكلة اللجوء للزواج العرفي.. وإذا كان القانون رقم ١ لسنة ٢٠٠٠ قد نص في المادة ١٧ على قبول دعـوى التطليـق وحدها من المتزوجة عرفيا إذا كان هذا الزواج ثابتـا بـأي وثيقة مكتوبة أو بإقرار الزوج في أي ورقة مثل محضر في الشرطة أو خطاب بيده أو مجرد صورة تجمع الطرفين، فإن الأمر يحتاج لدراسة أوسع وأعمق تؤدي فـي النهايـة إلـى الوصول لنص يؤدي بنا إلى الحيلولة دون وقوع مثـل هـذا النوع من الزواج من الأصل فالقانون الجديد عالج المسـألة في جانب المأزق، الذي كانت تعانيه المتزوجة عرفيا، والتي كانت غير قادرة على اللجوء للقضاء لعدم قبول دعواها مـع عدم قدرتها في ذات الوقت على الزواج مـرة أخـرى لأن الزواج الجديد بهذه الصورة سوف يقـع علـى زواج قـائم بالفعل.

من الضروري أيضا الإشارة إلـى أهميـة التوعيـة الإعلامية المكثفة للمشكلة سواء بالتوجيه المباشر من خـلال البرامج الحوارية التي تعرض لأسباب ودوافـع ومخـاطر وآثار الزواج العرفي السـلبية مدعومـة بـآراء الخبـراء

والمتخصصين في الدين والقانون وعلم الاجتماع، أو من خلال المواد الدرامية التي تقدم صورا من الحالات التي خاضت التجربة وكانت نتيجتها الأخيرة خسائر فادحة لحقت بكل الأطراف.. الشاب.. والفتاة.. والأسرة هنا وهناك.. وربما طرف ثالث – بريء – وجد نفسه يأتي إلى الدنيا على غير رغبة وقصد ممن كانا السبب في قدومه، لأنهما ببساطة شديدة – وبصراحة أشد – لم يكن بقصدهما الزواج بالمعنى المثالي والمفهوم للزواج. وكل ما في الأمر أن كلاهما كان يبحث عن غرض معين، ورغبة محددة وجعلا الزواج ستارا يمارسان خلفه هذا الغرض وتلك الرغبة!!.